# كونوا الرعاة الوعاة والدعاة السعاة !

مولود قاسم نايت بلقاسم
وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**والصلاة والسلام على أشرف المرسلين**

**اخواننا الاعزاء ،**

**أولا نشكر الله ونحمده على هذه النعمة التى أنعم بها علينا ، اذ مكننا من حضور هذه اللحظة السعيدة ، بافتتاح هذه المدرسة لتكوين الاطارات الدينية ورفع مستواها . وقد كان هذا المحل قلعة للتبشير المسيحى ـ كما كانوا يسمونه ـ او التنفير من الاسلام ، كما هو الواقع ، وكما هو الغرض الحقيقى ، فى العهد الاستعمارى البغيض .**

(*) نص الكلمة التى ارتجلها السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، وزير التعليم الأصلى والشؤون الدينية ، بمناسبة تدشين المدرسة الوطنية للاطارات الدينية بمفتاح ( ولاية البليدة ) بتاريخ 14 محرم 1396 هـ الموافق 16 جانفي 1976 .

وبهذه المناسبة نشكر جميع الذين ساهموا فى تحقيق هذا المشروع من الاخوة الوزراء السابقين ، ومن الاخوان المساعدين فى الوزارة ، ومن السلطات المحلية ، بما سعت به من قبل ، وبما عزمت ان تقوم به فى المستقبل ، كما وعدكم بذلك السيد الوالى منذ لحظة ، والسيد المقاول ، وجميع الذين ساهموا بقسط ما فى تحقيق هذا المشروع ·

والعمدة الآن عليكم طبعا بالدرجة الاولى ، وعلى حضرة الاساتذة الافاضل ، الذين نشكرهم سواء كانوا من اطارات الوزارة ، أو البحاثة على المستوى الوطنى ، أو من الاساتذة من الاقطار الشقيقة الموجودين هنا فى اطار نشاطهم العادى التربوى ، نشكرهم كلهم مقدما ، على ما سيقدمونه وما يقومون به لانجاح هذا المشروع . لأنه وان كان فى شكله المادى متواضعا جدا ، فالآمال المعلقة عليه ، والاهداف المنتظرة منه ، كبيرة جدا ، وتحقيق هذه الآمال وهذه الاهداف متوقف عليكم ، وعلى الاساتذة طبعا ، وعلى الائمة المتداولين ، اذ أن نشاط هذه المدرسة ، كما ذكر لكم الاخوان قبلى ، سيشمل جميع ائمة البلاد الموجودين حاليا ومستقبلا ــ على الاقل ريثما تنطلق كلية الشريعة والقانون المقارن فى قسنطينة ·

ربما تبادر الى ذهن البعض منكم ممن اخترناهم لحضور هذه الدورات التدريبية ، ربما تتساءلون : لماذا عينت أنا بالذات ؟ هل معنى هذا أن مستواى ضعيف ؟ هل معنى هذا أن الوزارة تقدرنى تقديرا سيئا ، تقدرنى دون مستواى الحقيقى ، أو تسىء الظن بهذا المستوى الخ ··· ؟ ما معنى تعيينى أنا بالذات من الولاية ؟ حيث أننا عينا ــ كما ذكر لكم الاخوان قبلى ــ عينا من كل ولاية امامين اثنين ، من جميع ولايات البلاد · ونقول لهم ان هذا ليس تمييزا بالمعنى السلبى ، بالمعنى القادح لكم · فبالعكس ، كنا اخترناكم فى الدرجة الأولى ليكون الانطلاق بالذين نرى فيهم أرفع مستوى بالنسبة للمستوى الموجود ، بالنسبة للمستوى العام لدى أئمتنا ، وبالنسبة للمستوى الثقافى العام فى بلادنا ·

ولا بد هنا أن نعترف طبعا أن رواسب الاستعمار لا يمكن ان تمحى هكذا بجرة قلم ، وبعصا موسى · فهذا يتطلب مجهودات متواصلة ، متوالية ، منتظمة ، ولمدة



السيد مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الأصلى والشؤون الدينية يلقى كلمته ، ويظهر على يمينه والى ولاية البليدة وقائد القطاع العسكرى بالولاية ، وعلى يساره المحافظ الوطنى للحزب لولاية البليدة ، ورئيس بلدية مفتاح .

طويلة ، لنتدارك النقص الذى ورثناه عن عهد استعمارى طويل ، وعن عهد طويل أيضا من الهمود ، والجمود ، والخمود ٠

فاذن اخترناكم لأننا نرى فيكم بالعكس مستوى لا بأس به ، وفضلنا أن نبتدىء بكم ليكون الانطلاق يبعث على التفاؤل ، مشجعا للاساتذة ، حتى لا يصدموا منذ الأول اذا ما وجدوا أنفسهم أمام أئمة ليس لديهم أى شيء اطلاقا ، ما عدا حفظ القرآن بــدون فهمه ، فطبعا القرآن عندما يفهم فهو كل شيء ، ولكن عندما لا يفهم فهو ــ واسمحوا لى أن أقول ــ ليس شيئا بالنسبة لكم ولا لنا اذا لم نفهمه ، وهناك آية فى هذا السيــاق تعرفونها كلكم عن حمل الاسفار ٠٠٠ فان شاء الله لا تنطبق على أحد منا ٠

اذن فهذا الاختيار كان بهذا القصد ، وسيشمل ــ كما قلنا ــ جميع الأئمة الموجودين حاليا فى جهات البلاد ، جميع الأئمة الذين يعملون ، وسيشمل أيضا الآخرين الذيــن سيتعينون فيما بعد ، حتى الذين سيتخرجون من كلية الشريعة والقانون المقــارن فى قسنطينة غدا سيمرون كذلك بفترة ما ٠ فلصقل هذه المعلومات ، ولترتيبها ، ولاعطائهم البطاقة الأخيرة ، بطاقة الانطلاق فى العمل ، لا بد أن يمروا بهذه المدرسة التى ستكون نواة ان شاء الله لجامعة اسلامية كاملة ٠

ولهذا قلت لكم فى الأول ربما نستصغر شأن هذه المدرسة عندما ننظر الى هياكلها المادية ، الى شكلها الحالى ، ولكن الذى ستتمخض عنه ان شاء الله فى المستقبل سيكون أكثر بكثير من هذا الوجه المادى ، من هذه الهياكل التى قد تستصغر ٠

نقطة أخرى أيضا ، قد يقول البعض منكم : ــ وقد قلنا اننا اخترناكم لمستواكم ، طبعا بالنسبة للآخرين ــ : « اذا كنتم ترون فينا هذا المستوى ، فلماذا اذن جئتم بنا الى هنا لهذا التكوين ، وأنتم ترون كما صرحتم بأنفسكم بأننــا لا بأس بنــا بالنسبــة للآخرين ؟ » ٠ وكما قلت منذ لحظة ، فحتى الذين سيتحصلون على الليسانس سيمرون بهذه المدرسة ، وهذه لا شيء فى الواقع بالنسبة لما كان ينبغى وينبغى أن يتم وأن يحدث .

وأعطيكم مثلا : هناك بلدان فى العالم ، بلدان اسلامية ، وبلدان مسيحية ، وبلدان شيوعية أيضا ، يكفينى أن أذكر أن يوغوسلافيا البلد الشيوعى المعروف لــديه أربــع

كليات للاهـوت ( أربع كليات من أصـول الدين ، كما نسميها نحن ) ، هـذا بـلد شيوعي ذكرته كمثل ، وهناك بلدان شيوعية أخرى ، وهناك بلد آخر أوروبى ، أكتفى بذكر واحد كنموذج لبلدان أوروبية أخرى غير شيوعية ، بلدان غربية ، فرنسا مثلا ، لديها عدة جامعات مسيحية ، جامعات دينية ، بغض النظر عن الجامعات الأخرى العادية . هذه الجامعات المسيحية كلها تقوم على نواتها الأصلية المركزية ، التى هى كلية اللاهوت، كلية أصول الدين ، كما نسميها نحن . وهناك تركيا كبلد اسلامى لا دينى ، كما يقال ، أى ليس لدولتها دين رسمى ، عكسنا نحن ، ولكن لديها كليات لأصول الدين لتكوين رجال السلك الدينى ، كليات عديدة ، ومدارس أخرى عديدة أيضا ، ويمر كل رجـال السلك الدينى عندهم بهذه الكليات ، وبهذه المدارس .

وبأى مستوى يدخلون الى الكليات فى فرنسا مثلا ، أو يوغوسلافيا ، أو فى تركيا بالنسبة للكليات ، اذ أن الكليات يدخلونها بمستوى معين ، شأنهم فى ذلك شأن فرنسا البلد الغربى الرأسمالى ، ويوغوسلافيا البلد الشيوعى اللادينى الملحد ، أو الذى ينكر على الأقل الأديان ، بأى مستوى يدخلون الى هذه الكليات فى هذه البلدان الثلاثة ؟ بلد اسلامى لا دينى ، بلد مسيحى غربى ، وبلد مسيحى أيضا ولكن شيوعى ؟

لا أحتاج الى ذكر بلدان اسلامية لديها هذه الكليات ، بلدان اسلامية الدين الاسلامى فيها رسمى ، وهى عديدة ، نكتفى بـذكر واحد منها ، ولديكم هنـا بعض الأساتذة من أساتذة هذه الكليات ، مثلا الجامعة الأزهرية التى فيها كلية لأصول الدين . يدخلون الى هذه الكليات الدينية كلها ، سـواء فى كلية أصـول الدين فى الجامعة الأزهرية ، أو فى كليات أخرى مماثلة فى بلـدان اسـلامية عديدة ، أو فى الكليات المماثلة الفرنسية والشيوعية وفى تركيا اللادينية ، فى جميع هذه البلدان التى ذكرتها ، فى جميع هـذه النماذج المختلفة ، يدخلون الى كلية أصول الدين بالبكالوريا ، فى تركيا ، وفى مصر ، وفى يوغوسلافيا ، وفى بولونيا .

أما فى فرنسا وبلجيكا مثلا ، وبلدان غربية أخرى لديها كليات اللاهوت ، فيدخلونها بعد أن يتحصلوا على شهادة الليسانس ! فكما يدخل آخـرون الى كلية العـلوم مثلا ، أو الطب ، أو الهندسة ، أو الآداب ، بالبكالوريا ، هـم يدخلون الى كلية اللاهـوت

بالليسانس ! هذا هو المستوى ، هذا هو التقدير الذى يعيرونه فى هذه البلدان المتقدمة المختلفة الأنظمة لهذا الجانب الهام من نشاطهم ومن تكوين شخصيتهم ، ومن تعزيز أصول مجتمعهم وقواعد أمتهم ٠

ولهذا لا تستغربوا أبـدا عندما عيناكم رغـم مستواكم الممتاز، بالنسبة لكثير منكم ، وبالنسبة لأغلبكم ، نقول قد نكون إسانا الاختيار ، ونكون نحن المخطئين ولستم أنتم ٠ وكذلك بالنسبة للآخرين الذين سيتلونكم ، وكذلك بالنسبة للذين سيتحصلون عـلى الليسانس من كلية الشريعة والقانون المقارن فى قسنطينة غدا ، ومن كلية أصول الدين وتاريخ الأديان المقارن فى وهران ، بعد غـد ، بعد الليسانس سيمرون بهذه المدرسة ٠ وربما أصبحت هـذه المدرسة فى يـوم ما مدرسة علـيا ، ليست فقط مدرسة وطنية للاطارات ، ولكن مدرسة عليا بمستوى الماجستير ، كما يقال، أو دكتوراه الدرجة الثالثة ، أو حتى لدكتوراه الدولة فى يوم من الايام ان شاء الله ٠ هذا هو السبب الذى اخترناكم من أجله ، وبدأنا بكم أنتم ، اخترناكم لمستواكم الذى رأيناه فيكم وننتظره منكم ٠

هذه البلاد ـ كما تعلمون ـ عانت كثيرا ، لا أريد أن أسترسل طويلا فى هذا لضيق الوقت ، وكنا نوينا أن نصلى الجمعة وأن نوجز طبعا فى الكلام ، ولهـذا حتى الاخـوان من السلطات المحلية كالاخ الوالى ، والاخ مسؤول الحزب فى الولاية ، والاخ رئيس المجلس البلدى الشعبى، وغيرهم من الاخوان المسؤولين فى هذه الولاية، لم نطلب منهم أن يلقـوا كلمات ولو مختصرة ، وأنا شخصيا كنت حضرت بضعة عناصر وكنت نويت أن أوجـز فيها الى أقصى حد الايجاز ، لنترك وقتا كذلك لصلاة الجمعة ولدرس الجمعة ، والاستاذ أحمد حمانى كان قد أحضر درسه ٠

ولكن السادة الائمة هنا معنا اختلفوا فيما بينهم ، وبالتدقيق السيدان رئيس المجلس الاسلامى الأعلى ونائبه ، أحدهما وهو نائب الرئيس ، قال : انه لا تجوز صلاة الجمعة ، لاننا لسنا مقيمين هنا فى هذه البلدة ، والمسافة هى كذا وكذا الى آخـره ، والسيـد



جمهور الحاضرين من سلطات محلية ، وصحفية ، وأساتذة ، وطلبة
يستمعون الى كلمة السيد الوزير

الرئيس قال : بل تجوز ، ثم بعد ، لا أدرى لماذا أعادا النظر فيما بينهما ، وفى آخر لحظة اعلمانى ونحن هنا بأننا نكتفى بصلاة الظهر . كالعادة ! الاختلاف رحمة، وأحيانا نقمة (1).

لهذا ربما سنستطرد قليلا ، وأكثر عليكم فى هذه الكلمة التى كنت نويت أن تكون رؤوس أقلام فقط كما يقال ، وبكلمات موجزة جدا أقول ان هذه البلاد عانت كثيرا جدا فى العهود الطويلة ، منذ الاحتلال الاسبانى الذى بدأ فى سنة 1505 باحتلال المرسى الكبير فى وهران ، وفيما بعد استمر ووصل الى العاصمة سنة 1510 م ، والى تونس وطرابلس فى نفس السنة 1510 م ، هذا الاستعمار الاسبانى حطم أهم ما كان موجودا فى هذه البلاد من بقايا آثار لمراكز ثقافية زاهرة فى العهود الماضية فى تيهرت ( تيارت ) ، وفى طبنة ، وفى قسنطينة ، وفى بجاية ، وفى تلمسان ، وفى ندرومة ، وبسكرة ، ومازونة ، والعاصمة ، الى آخره ... فى مختلف جهات البلاد .

حطم المد الاسبانى الجامعات المشهورة التى يذكرها علماء أعلام . ثم جاء الاستعمار الفرنسى فأجهز عليها ، ولم يترك شيئا منها ، حتى الجدران ، وحتى الأسوار ، وحتى الآثار ، حتى المواقع أحيانا اختفت ، حتى الاطلال لم يبق شىء منها !

فقد كانت لهذه البلاد مراكزها الزاهرة ، التى يذكرها المؤرخون ، مثل ابن خلدون ، والعبدرى،وأمثالهما كثيرون فى كتب الرحلات وكتب التاريخ . وقد خصصنا حصصا لهذا ، سيقوم بها الأستاذ المهدى البوعبدلى تحت عنوان « التراث والمراكز الثقافية فى الجزائر فى الماضى » .

اذن بهذه المؤسسات التى ذكرتها ، بكلية قسنطينة للشريعة والقانون المقارن ، وكلية وهران لأصول الدين وتاريخ الأديان المقارن ، وغيرهما ، وتطوير هذه المدرسة فيما بعد الى مستوى أعلى ، وبجامعات أخرى ان شاء الله ستتلوها ، بهذا كله سنصحح الأوضاع فقط ، سنعيد شيئا الى مكانه ، بعد أن أزيح عنه بفعل الاستعمار ، الذى كان

(1) وهنا دار نقاش حول جواز صلاة الجمعة فى المدرسة أو عدم جوازها ، لأن أغلب المصلين غير مقيمين بها على الدوام ، بل بالعاصمة التى تبعد عنها بأكثر من ساعة وبجهات أخرى من البلاد ، واستقر الرأى فى الاخير بين الشيوخ من مختلف المذاهب الاسلامية على جوازها ، بل وجوبها ، بالتوفيق بين بعض المذاهب ، وصليت فعلا هناك ، واصبحت تصلى فيها بانتظام ، بدون حاجة الى نصاب مقيم لا يريم !

سلاحه كما تعلمون كلكم ، كما أعلن هو بنفسه عن ذلك على لسان أعمدته : « السيف ، والمحراث ، والصليب » ! ( الجنرال بيجو ، الكردينال لافيجرى ، وغيرهما ) ٠

والمهام المطلوبة منكم بصفة عامة ، كمهام دائمة لنشاطكم على مدار السنة ، كما تعلمونه ، وكما بينا لكم فى عدة مناسبات ، يتمثل ، زيادة على المهام المعروفة ، أو التقليدية كما يقال ـ وان كنت لا أحب هذه الكلمة ، ولكن ما دام درجت عليها الألسن أقول ، زيادة على المهام التقليدية للامام التى أحيينا بعضا منها ، وأضفنا بعضا آخر ، يتمثل فى ثلاث مهام رئيسية جديدة وبعضها جددناه فقط ـ وهى : 1) مكافحة الأمية بالسبورة ، ولكن لاحظنا أن الكثير منكم لا يقوم بهذه المهمة رغم المنشورات ، ورغم التقارير ، ورغم التنبيهات ، ورغم العقاب ، ورغم الخصم أحيانا من المرتب ، ورغم الانذارات ، لا يزال بعضكم مع الأسف مخلا بهذه المهمة ، وهى مهمة كبيرة جدا ، وأول آية نزلت فى القرآن ، كما تعلمون ، هى « اقرأ » ! 2) **والمهمة الثانية** هى تحفيظ القرآن مَنَ الإمام نفسه ، بالنسبة للمساجد الصغيرة فى الأرياف ، فى القرى والمدن الصغيرة ، وفى المدن الكبيرة يقوم بها المؤذن أو الامام المساعد ، امام الصلوات الخمس ٠ 3) **والمهمة الثالثة** هى الدروس المسجدية ، من فقه ، وتوحيد ، وتاريخ ، وتفسير ، وحديث ، الى آخره، حسب مستواكم وحسب المطلوب من المصلين ٠

هذه الدروس كان يقام بها أثناء العهد الاستعمارى فى المساجد الحرة ، كان يقام بهذه الأدوار كلها . الآن مع الأسف فى الجزائر التى استعادت استقلالها يقصر كثير منكم فيها ، رغم التنبيهات ، ورغم التحذير ، ورغم التوبيخ ، ورغم العقاب ، ورغم المراقبة ٠ ولكن أعدكم باننا سنتشدد معكم بعد أن ازداد نظام الولايات بهذا العدد الكبير ، وأصبحت الرقعة محدودة ومنحصرة على المفتشين أيضا فى هذه الولايات ٠

والمفتشيات ، كما يعلم بعضكم ، وكما أعلمكم اليوم ، رفعت الى مستوى المديريات فى الولايات ٠ أصبحت الآن مديريات ، ستنطلق قريبا ان شاء الله ، وسيكون جهاز المراقبة اذ ذاك شديدا جدا عليكم . والى جانب الحقوق التى أعطيتموها ، والتى ستبدأون قريبا فى التمتع بكاملها ، من ترسيم ، ومرتب ملحق أو اضافى ، وتقاعد ، ومنح عائلية ، وعطلة

سنوية ، ستكون عليكم واجبات ، كغيركم من الموظفين الآخرين العاديين فى أيـة وزارة أخـرى فى البـــلاد ٠

اذن لديكم الآن جميع الحقوق التى يتمتع بها الموظف المركزى فى الوزارة ، أو موظف الداخلية ، أو الخارجية ، أو الدفاع ٠ ولكن سيطلب منكم نفس العمل أو أكثر ، بما أنه ينتظر منكم ، وتعتبرون أنفسكم ، أو اعتبرتم وتعتبرون ، أو قـيل لكم ، أو المفروض فيكم، أن تكونوا الواعز فى الأمة، أن تكونوا المنبه، أن تكونوا الراعى الواعى ! فانتم الذين تأخذون الكلمة ، وتصعدون الى منبر الرسول ، وتتكلمون باسم الرسول ، أنتم الامام ٠

فالامام فى كثير من النظم الاسلامية هو الخليفة ، هو الامير ، هو السلطان ، هو الملك ، هو رئيس الجمهورية ، هو رئيس الدولة ، كما تشاؤون ٠ اذن المطلوب منـكم أن تقوموا على مستوى مسجدكم مع المصلين ، ان تتحملوا مسؤولياتكم كاملة فى تتبع شؤون البلاد ، فى تتبع نهضة البلاد ، فى المساهمة فى تنمية البلاد فى جميع مجالات البناء ، بل وفى نهضة الأمة الاسلامية كلها ، وتتجاوزوا حدود الوطن بنشاطكم ، وباهتمامكم ، وبتوعيتكم، وبسهركم ، وبحرصكم ، **وتكونوا الرعاة الوعاة ، والدعاة السعاة !**

هذا هو المطلوب منكم ، ليس فقط أنه مطلوب أن تتركوا هذا الـذل ، هذه المسكنة التى يتسربل بها الكثير منكم ، المظهر الملئ بالذل والمسكنة الذى ورثتموه عن العهـــد الاستعمارى ٠ يجب أن تكونوا رافعى الرأس ، موفورى الكرامة ، الآن فى ظـل الدولة المستعادة ، تحت حماية السيادة المسترجعة ٠

اذن كونوا عناصر حية ، عناصر صالحة ، ليس فقط كجميع العناصر الحية فى جهاز البلاد ، فى جهاز الأمة ، بل ان تكونوا القدوة ، لأنكم انتم الذين تؤمون الأمـة ، تؤمون المصلين ، تقودونهم ، انتم الذين تقفون فى محراب الرسول ، أنتم الذين ورثـــتم هذه الرسالة ، ينبغى أن تكونوا وعاة بها ، ان تكونوا مقدرين لها ، ان تكونوا قائمـين بها فاذن عليكم مهام كبيرة جدا ، ثقيلة جدا ، ومسؤولية خطيرة جدا ٠

يبقى أن هذه الدروس التى تساهمون بنشاط وفعالية ، فيها ، تشاركون عمليا فيها ، وليست فقط تلقى عليكم هكذا سلبيا ، كما تتلقونها أمـــام التلفاز ، تبتلعون الأشيـاء

من غث وسمين، وفى أى جهاز تلفزيون فى العالم، ليس فقط فى جميع أنحاء العالم الاسلامى مع الأسف، وعندنا أيضا، يتلقى الانسان الغث والسمين، والأول أكثر ! لا، بل تشاركون فيها عمليا بأسئلتكم ، وبتوجيهكم ، توجهون حتى الأساتذة ، عندما تلاحظون أن الأستاذ قد أغفل نقطة مـا ، سها عن جانب مـا ، أنتم تنبهونه الى ذلك ، تثيرون الاهتمام بذلك الجانب الذى أغفله ، فيتداركه ، ويفيدكم به ، ويفيد غيركم • فاذن تشاركون عمليا فى هذه الدروس التى راعينا بقدر الامكان ، بقدر مـا لدينا من كفاءات ، من امكانات ، مـن اطارات ، ان تكون متكاملة ، ان تكون شاملة لمختلف جوانب التكوين •

مثلا فزيادة عن الدراسات القـرآنية ، وعن التفسـير ، وعن الحديث ، وعن السـيرة النبوية ، وعن الأصول ، وعن الفلسفة الاسلامية ، وعن الخطابة ، وعن قواعد اللـغة ، وعن الانشاء ، زيادة عن هذه المواد كلها ، رأيتم من البرنامج ـ وبدأتم تتلقون فعلا ـ بعض المواد الاخرى • لماذا اعطيناكم هذه المواد ؟ قد يقول البعض : « لماذا الفلسفة مثـلا ، ماذا أفعل أنا بالفلسفة ؟ » فزيادة على الفقـه ، على المذاهب الاربعة ، وعلى المذاهب الاسلامية الأخرى تتلقون الفقه على المذهب المالكى بالتوسع ، لأنه المذهب السائد فى البلاد ، وفى المذهب الشافعى ، وان كان ليس لـدينا فى الجزائر شافعيون ، وفى المذهب الحنـفى ، ولدينا مواطنون حنفيون ، حتى ولو كان عددهم قليلا بالنسبة للمجموع ، وفى المذهب الاباضى ، وعندنا مجموعة من المواطنين اباضيون ، وفى مذهب ابن حزم ، وان كان لدينا شخص واحد فقط هـو الأستاذ مبروك العوادى الموجود بينكم يتبـع هذا المذهب ، وفى المذهب الحنبـلى ، وان كان ليس لدينا فى الجـزائر مسلمون حنبليون ، ولكن لابـد من تدريسه ، وفى المذهب الزيدى،والجعفرى ، أى عـلى جميع المذاهب الاسلامية الثمانية ، وكان بودنا أن نعطيكم زيادة عن هذه اللمحة ، ولكن نكتفى بهذا القـدر مؤقتا ، ريثما يتوفر لدينا هذا الاطار ان شاء الله فى المستقبل • ولكنكم ستتلقون هذا كله حتى عـلى المستوى الحالى لهذه المدرسة •

اذن فزيادة على هذه المواد كلها التى ذكرتها ، أضفنا لكم دروسا عن دور الجـزائر الثقافى وتراثها • فلابد أن تطلعوا على هذا الجانب ، على هذا التراث ، على دور الجـــزائر الثقافى وتراثها فى الماضى البعيد ، منذ فجر الاسلام •

بل وحتى عما قبل الاسلام نستطيع أن نعطيكم لمحة ، فعندما يقول الفرنسيون مثلا « انكم كنتم شعبا همجيا فى هذه البلاد ، حتى دخلت روما ، ثم جاءت فرنسا لتستأنف ارث روما ، جاء الاستعمار الفرنسي وارثا ومستأنفا لعهد سابق لجدته روما » ، لان فرنسا كانت تعتبر نفسها البنت البكر للكنيسة كما تعلمون ـ كانت تسمى نفسها : « La fille aînée de l'Eglise » ، وملك فرنسا لويس الرابع عشر كان يلقب نفسه : « Le Roi très-chrétien » أى الملك المسيحى بالذات ، « الملك المسيحى بمعنى الكلمة » ، « الملك الممثل حقيقة للمسيحية » . هكذا كانوا يعتبرون أنفسهم ، وأنهم جاءوا الى هذه البلاد لاخذ الارث القديم لروما ، لأن هذا البلاد ـ بحسب دعواهم ـ كانت همجية قبل ، حتى جاءت روما ، جدتهم روما فى العهد الوثنى قبل الاسلام ، ثم فى المسيحية ، فمسحت هذه البلاد ، ومدنتها ، الى آخره ...

جاءت فرنسا بعد « العصور الجامدة ، الخامدة ، الهامدة ، بعد عهود الظلام ، لتصفية هذه الرواسب كلها ، ولاستئناف الارث الصافى ، النقى ، الزاهر ، المزدهر ، لروما » كحفيدتها البكر ! قلنا نحن : لا ، ولا ! فحتى فى العهد الاستعمارى ، بل حتى فى العهد الوثنى والمسيحى قبل الاسلام ، كانت لهذه البلاد أيضا ادوارها الثقافية ، حضارتها ، وذكرنا امثلة لهذا فى عدة مناسبات وسياقات أخرى .

ويكفى أن نشير الى شرشال مثلا . فالملك يوبا الثانى ، ملك شرشال فى ذلك الوقت ، هو الذى وضع أول خريطة للجزيرة العربية ، وهو أول من وضع دائرة معارف حسب المراجع الأوروبية ، دائرة معارف شاملة للعلوم الانسانية ، لأنه حتى ارسطو فى مدرسته ، أو افلاطون فى أكادميته ، وغيرهما ، حتى هؤلاء لم يضعوا دائرة معارف بمعنى الكلمة ، لجمع معارف الانسان ، بجميع العلوم والفنون البشرية فى ذلك الوقت ، حتى جاء يوبا الثانى ، ملك الجزائر ، فوضع دائرة معارف كاملة شاملة . وكذلك مثلا فى مداوروش ، فى شرق البلاد ، كان هناك أيضا أبو ليوس المعروف الذى كان سلطة ، كان مرجعا فى قرطاجنة فى القانون ، والآداب ، والفلسفة ، والطب .

هذه البلاد ، هذه الجزائر ، كان لها اذن دورها ، وكانت لها مساهمتها حتى فى ذلك الوقت البعيد في العهد الوثنى ،- ثم المسيحى ، وأوغستين الذى يقدرونه أيضا فى مجالات أخـــرى ، وانما يذكرونه فقط فى مجـــال التفـــريق ، فى مجـــال التمزيق ، لـكن لا يذكـرونه في المجـال الفلسـفى ، وهـو مـن أساطينـهم الكبـــرى فى التـــاريخ المسيحى ، ولد ونشأ بسوق أهراس ، ونشط فى عنابة ، ثم كان من الاساطين فى روما ・ اذن لابد من أن نشير الى هذا بلمحة ، ولكن نركز طبعا على تراثنا الاسلامى ، على مختلف العصور الزاهرة ، من طبنـة ، وتيارت،وبجـــاية ، وتلمسان ، ومازونة ، والعاصمة ، وقسنطينة ، وغيرها فى جميع عهود للبلاد ، جميع الدول الوطنية المتعاقبة على هذه البلاد ، التى قامت كل منها بقسطها فى اطار التراث الثقافى عامة ، والعربى الاسلامى خاصة ・

وستتلقون أيضا الجغرافيا ، على الأقل الجغرافيا السياسية للعالم الاسلامى ، فلابد كذلك أن تعرفوا الجغرافيا السياسية ، وحتى الاقتصادية ان امكن ، اذا اتسع لـديكم الوقت ・ فعندما تسمعون بالفلبين ، بالمسلمين فى الفلبين ، أو تايلاند ، الذين يتعرضون لمجازر وحملات ابادة ، تتساءلون : أين هذه الفيلبين ؟ وأين تايـلاند ؟ ربما الكثـير منا لا يستطيع أن يصورهما الآن فى الخريطة لو وضعنا أمامه الورقة والقـلم ・ والمسلمون فى فنلندا متى بـدأ وجودهم هناك ؟ وكيف كان ماضيـهم ، وكيف حاضرهم اليـوم ، وأين يوجدون ؟ وكم هم ؟ فلابد اذن أن تتلقوا عن الجغرافيا والتاريخ بضـع معلومات ، على الأقل خطوطا عريضة ・

وهذا كله سيكون فقط انطلاقا لكم ، وليس تكوينا ، وتعليما ، وتثقيفا ، الى آخره ・ هذا يقوم به الانسان لنفسه بنفسه فقط ، فى جميع البلدان ، وفى جميع المستويات ، وفى جميع الجامعات ، وفى جميع الأزمنة والأمكنة ・ وانما الشىء الذى يعطى فى مؤسسات التربية ، والتعليم ، والتكوين ، والجامعات ، هى التوجيهات العامة ، ذكر المراجع ، ذكر الاتجاهات العامة ، وعليكم أنتم أن تواصلوا ، وأن تتابعوا ذلك بأنفسكم ・

نعطيكم أيضا الاتجاهات الاقتصادية ، وتاريخ الأديان المقارن ـ وقد يقـول البعض منكم : ما فائدتى أنا اليوم فى دراسة اليهودية ، أو المسيحية ، أو كذا من الأديان المنزلة مثلا أو البـوذية ، أو المنـوية ، أو الزرادشتية ، أو اليهودية ، أو الاتجاهات السياسية




مدخل المدرسة

المعاصرة ؟ ما فائدتى أنا فى دراسة النازية ؟ والشيوعية ما دخلها هنا فى مدرسة تكوين الائمة ؟ ما المبرر لهذا ؟ ما القصد من تدريس الاتجاهات الاقتصادية والتيارات السياسية المعاصرة ، رأسمالية ، واشتراكية ، وشيوعية ، وغيرها ؟ ما معنى هذا ؟ ما مكانه من الاعراب ، كما يقال ؟ ما مكانه فى هذه المدرسة ؟

هذا كله لا بد لكم منه ، لا بد لكم من هذا كله ومن علم الاجتماع والفلسفة . قد يقول أحدكم : لماذا أدرس أنا هنا الوجودية ، وكتب افلاطون ، وكتب زرادشت ، أو فلان الألمانى ، أو علان الطليانى أو الاسبانى ، أو موسى الأكوينى المسيحى ، أو ابن ميمون اليهودى ، الذى كان تلميذا لابن رشد ، أو غيرهم ؟ ما معناهم ، ما ضرورة تدريس هذه المادة هنا للامام ؟ الامام يصلى ، يؤم الناس ، ينبغى أن يعرف أركان الاسلام ، وكفى ، أما هذا الآخر كله فهو ربما دفع بهم الى الالحاد ، الى الكفر ، الى المروق ، الى البدعة ، الى آخره !

قد يقول بعضكم هذا وقد يضيف آخر كذلك : ما معنى تدريس النظام الادارى فى الجزائر ؟ لماذا أدرس أنا هنا النظام الاقتصادى ، والسياسى ، والاجتماعى فى الجزائر ؟ لماذا ؟ هناك موظفون قائمون بهذا ، هناك وزارة الداخلية التى تقوم بالادارة فى البلاد ، هناك وزارات التعليم ، ولو كانت هذه الوزارة التى تشرف على الائمة من جملة هذه الوزارات ، وزارات التعليم ، الا أن هذا لا يهم الأئمة كأئمة ! والجانب الاقتصادى ؟ هناك وزارة المالية ، ووزارة التخطيط ، وغيرهما ، لماذا ندرس نحن هذا ؟ هناك الجامعة ! .

نعم ، لا بد أن تدرسوا هذا كله ! هذا من واجبكم ، لأنكم تؤمون المصلين ، لأنكم لا بد أن توعوا الفرد على مستواكم ، وفى وسطكم ، وفى بيئتكم ، وفى اطار واجبكم ، **والاسلام دين ودولة ، وليس للقراءة على الأموات ، وكتابة « الحروز » والتمائم ،** هذا ليس من الاسلام فى شىء ، لأن القرآن أنزل ، والرسول أرسل ، **للأحياء ، وليس للأموات** ! وعندما يموت الانسان فقد انتهى ، وقراءة القرآن عليه وكذا وكذا ، وكتابة الحرز له ، كل هذا لا ينفعه فى شىء ، كما تعلمون كلكم من قوله صلى الله عليه وسلم : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث عين جارية ، أو ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به » أو كما قال .

اذن ليس هذا هو مهمتكم • فمهمتكم ، **البناء المادى والروحى** ، مهمتكم **بناء المدرسة ، وبناء السد** ، وبناء **العين** ، **وفلاحة الأرض،وبناء مصنع ، وتسليح جيش ، وبناء جامع، وبناء كلية** • هذه هى مهمتكم • مهمتكم هى الدفع بهذه الأمة الى الأمام ، تقوية هذه الأمة ، وأعدوا لهم ما استطعتم • وهذا فى جميع المجالات ! ومن الذى يقوم به اذا كنتم تقولون : هذا لا يهمنا ، يهم الموظف فى البلدية ، والموظف فى الولاية ، وموظف الدائرة ، وموظف وزارة المالية ، ووزارة الدفاع ، ووزارة الاقتصاد ، يهم الجندى ، والضابط ، والشرطى ، والدركى ، أما أنا فلا يهمنى !

لا ! بل يهمكم أنتم كغيركم ، وربما يهمكم أنتم أكثر من أى أحد آخر ، لأنكم أنتم لديكم بعد وان كان مفروضا فيهم جميعا ، كمسلمين ، والاسلام لا يعترف **بهذا اللاهوت ، والكهنوت** ، ذلك السلك الدينى الخاص بالطقوس الدينية فقط ، المفصول عن الدنيا • لا ، لأن الاسلام ، كما قلنا ، دين ودولة ، ونظام اجتماعى كامل . اذن الامام يؤم المسلمين. فينبغى أن يكون متحصلا على جميع هذه الجوانب ، وينبغى أن يساهم فى جميع هذه الجوانب على مستواه وبقسطه • وليس معنى هذا أن الشرطى ، أو الدركى ، أو الجندى ، أو أى موظف من موظفى الدولة ، أو أى مواطن ، لا يهمه الاسلام • لا ، بل هو مسلم طبعا ، ولكن مهمته محصورة فى قطاع فنى معين ، أما أنتم فشاملة مهمتكم ، شاملة لهذا ولغيره !

هذا عبء قبلتم به ، هذه مسؤولية تحملتموها • فينبغى أن تقوموا بها ، وتؤدوا هذا الدور ، والا فقولوا : نحن لا نستطيع أن نقوم بهذا ، لتكلفوا بعمل آخر ، والبلاد محتاجة اليكم فى قطاعات أخرى، وتستطيعون أن تقوموا بالتعليم، تعليم القواعد، كمدرس للنحو مثلا • والمنتظر منكم عند تدريس قواعد النحو فعل وفاعل ، عوض أن تقولوا : قام زيد ، أن تقولوا : « قام الامام بدوره ! فعل وفاعل ، وجار ومجرور ومضاف اليه ! » •

يبقى أن نقول أن ليس معنى هذا أن يقول موظف آخر : « ان كل ما يتصل بالدين من شؤون وزارة الدين ، هناك وزارة للدين ! « أنا خطينى ، ماوش شغلى ! » لا ، بل هذا شىء مطلوب من كل مسلم ، مفروض فيه ، منتظر منه ، **الدين معلوم بالضرورة ، وكل مسلم مطالب بأن يقوم بقسطه فى هذا الجانب** •

اذن لهذا زودناكم بهـذه الاتجاهات السياسية والاقتصادية المعاصرة ، أى النازية ، والشيوعية ، والصهيونية ، والرأسمالية ، والاشتراكية ، والفاشيستية ، والديمقراطية، الى آخره ، جميع الاتجاهات السياسية والاقتصادية الموجودة فى العالم اليوم لابد أن تكون لكم فكرة عنها ، والا فكيف تريدون أن تردوا على قسيس ؟ أنتم تجادلون الآن ، وجادلوا أهل الكتاب بالتى هى أحسـن ، وعند الضرورة بالتى هى أخشـن ( بالخـاء المعجمة ) ( اسمحوا لى ، أنا لست مسيلمة الكذاب ، بالتى هى أحسن ، أو بالتى هى أخشن ، الأولى بغير نقطة ، والأخرى بنقطة ) ، كيف تريدون أن تردوا عليه ، أن تجادلوه ، اذا كنـتم أنتم لا تعلمون شيئا عن اللاهوت ؟ بعثنا أحد الاخوان ، ومن أحسن الاخوان تكوينا ، فى مناسبة رمضان الى أوروبا ، لأن فى باريس وفى فرنسا وفى غـيرها مواطنين قالوا لنا : « انكم تبعثـون لنا بالأئمـة فى رمضان فقط ، أى مـــرة فى السنة ، لموسم رمضان ، فيشتغلون وبعد يطبقون حوائجهم ويمشون هكذا ، واصبح مجىء الائمة الينا موسميا ، مثل الفطائرية ، والزلابجية ۰۰۰ ! » وهنا أفتح قوسين ثم أعود :

هذا الدور للأئمة فى فرنسا كان موجودا حتى فى العهد الاستعمارى ، كانت جمعية العلماء اذ ذاك قامت بدور ، وكان حزب الشعب قام بدور فى اطار التوعية السياسية ، وقام أيضا فى التعليم بقسطه ، ولكن هذا الدور بالجانب الدينى البحت قامت به جمعية العلماء ، اذ أرسلت وفدا دائما الى فرنسا شارك فيه الكثير ، شارك فيه الشيخ العـربى التبسى ، أظن ، فى وقت من الأوقات ، والشيخ السعـيد البيبانى ، والشيخ الفضـيل الورتلانى ، والشيخ الربيع بوشامة ، والشيخ البشير الابراهيمى فى وقت من الأوقات ، وان كانت مدة قصيرة ، كلهم مروا هناك بطريقة ما ، وقد يكون آخرون نسيتهم ، الشيخ فرحات الدراجى ، الشيخ السعيد الصالحى ، وآخرون وآخرون قاموا بقسط مـــا ، فى ظروف صعبة ، ولكن قاموا به ۰

أما الآن ، وقد استرجعت الأمة حريتها وسيادتها ، لابد أن تقوم بهذا الوفد على الأقل فى رمضان ۰ والوفد كان متمثلا فى مجموعة قليلة من الأئمة فقط ، ثم بعد وسعناه الى مجموعة من الأساتذة الشباب ، البعض منهم مزدوجو اللغة ، كما يقال ، مزدوجو الثقافة، لأبنائنا هناك فى الهجرة ، ثم عززناه فيما بعد أكثر ، ولكن بنوع من التطور والتقدم فيه

نسبيا ، عززناه أيضا بسيدات ، بعثنا بعض الاساتذة بزوجاتهم الى هناك ليساهمن ، هم يتكلمون لدى الرجال ، والسيدات زوجاتهم يتكلمن لدى النساء الجزائريات هناك وبناتهن فى اطار ، هذا فقط فى شهر رمضان ٠

ثم فيما بعد انشئت المفتشية الدائمة التى ستنطلق قريبا ، وبعض اطاراتها موجودون هناك فى فرنسا ، وآخرون يسافرون قريبا وموجودون هنا معنا الآن ، ولكن هذا كله سيبقى ـ طبعا ـ ناقصا ، سوف لا يكفى ٠ وأرجع الى السيد الذى بعثناه الى فرنسا منذ بضع سنين ، أحد الأخوان فى اطار هذه الوفود «الزلابجية» التى تذهب فقط فى رمضان ، قام بمحاضرة لدى الشباب ، وهو شيء حسن ، وهو من أحسن العناصر ايمانا ، وثقافة أيضا ، وينبغى أن نعترف له بذلك فى غيابه ٠ ولكن مع الأسف عندما قام قسيس فرنسى كان هنا فى الجزائر قبل ، قام ليرد عليه فقال له صاحبنا : « لا ، أنت قسيس ، قم واخرج من هنا ، لا مكان لك هنا فى هذه القاعة ! » واستنكر ذلك جميع الطلبة الجزائريين الحاضرين هناك ، المعرضين للتيارات ، وللتأثيرات المختلفة ، وقالوا : « لماذا تقول للقسيس اخرج ؟ كان ينبغى أن نجادله ، وأن نفحمه ، ان نقارعه بالحجة ، وليس أن نقول له اذهب واخرج من هنا ! ان معنى هذا هو العجز ، معنى أن هذا السيد الذى تكلم بهذه الطريقة عاجز لا يستطيع افحامه ، فقال له : اخرج » والسيد الذى تكلم لم يكن عاجزا فى الواقع ، بل هو كما قلت من أكفا الاطارات ، ولكن مع الأسف طبعه حاد ككثير منا ، فتغلب عليه طبعه الحاد ، وتصرف بهذه الطريقة ٠

ينبغى اذن أن نجادل ، ينبغى عليكم أن تجادلوا بطريقة ، أن تجادلوا بالتى هى أحسن ، عند الضرورة فقط استعملوا النقاط الأربع على الحاء والسين ، ولكن فى الظروف العادية جادلوا بالطريقة التى تكسب ، التى تقنع ، أو التى على الأقل تعزل العدو ، تنزع منه سلاحه ٠ فعندما تفحمونه أمام الغير هو انتصاركم ٠

ولكن كيف يتوفر لديكم هذا ؟ فزيادة على التغلب على الطبع الحاد بقدر الامكان ، ستتوفر لديكم هذه الغلبة بالمعلومات ، بالكفاءة ٠ والا فكيف تريدون أن تردوا على مسيحى ، أو على شيوعى ، أو على نازى ، أو على صهيونى ، اذا كنتم جاهلين بتاريخ

هذه الأديان والايديولوجيات ، واذا كنتم جاهلين حتى بأصولها ، وبطريقة تحريفها ؟ ينبغى أن تعرفوا أصولها ، وتحريفها ، أن تميزوا الغث من السمين ، لتقولوا لهم : يا قسيس فلان : دينك المسيحية الأصلية هى كذا وكذا ، هذا ما قاله المسيح ، ولكن أنتم حرفتموه فى العصر الفلانى ، فى العهد الفلانى بالمدرسة الفلانية ، بالطريقة كذا وكذا ! لكن اذا كنت جاهلا للأصل ، وللتغيير ، وللتحريف ، فكيف تريد أن تفحمه ، وأن تجادله ؟ طبعا هو الذى يتغلب عليك ، لأنه هو يعرف عن دينك الشىء الكثير ، ويكلمك بلغتك ربما ، ويكلم مواطنيك ، ويمسحهم ، وينفرهم من الاسلام ، بينما أنت جاهل لغته ودينه لا تستطيع طبعا ، وهذا سواء كما قلنا فى الجانب الدينى ، أو فى الجانب الاقتصادى ، أو فى الجانب السياسى ٠

اذن لا بد لكم من الاطلاع على الأديان السماوية ، وغير السماوية ، فى أصلها ، وما حرف منها ، ولا بد لكم من الاطلاع على الاتجاهات السياسية المعاصرة ، من الموالية لنا ، والقريبة منا ، والمعادية لنا ، والمختلفة معنا ، أو المماثلة لنا ٠ لا بد لكم أن تطلعوا كذلك على الاتجاهات الاقتصادية المعاصرة ٠ نفس الشىء أيضا ما قيل عن الاتجاهات السياسية ، وما قيل عن الأديان ٠ ينبغى أن تطالعوا فى كل هذا ، لتطلعوا ، ولتقارعوا ٠ فقبل التقدم الى الميدان ، لابد أن تطلعوا على هذا كله ٠

ولهذا أعطيناكم هذه التيارات السياسية ، والاتجاهات الاقتصادية المعاصرة ، وأعطيناكم كذلك تاريخ الأديان المقارن ، ولهذا أعطيناكم الفلسفة الوثنية ، والمسيحية ، واليهودية ، الى آخره ، واسمحوا لى أن اذكر هنا نكتة : قال لى أحد الاخوان هنا ، ولا تغضبوا عليه ـ وأقول لكم كذلك ، للدفاع عن الاخوان الذين يدرسون لكم هذه المواد ، انى أنا الذى ألحت عليهم ليقوموا بها ، فاذا كانوا قد أخطأوا بتدريسها لكم ، فألقوا المسؤولية على ، وليس عليهم ٠ فالأستاذ الطاهر الزيتونى ، الذى يحاضركم فى تاريخ الأديان المقارن، اذا رأيتم أنه قد أخطأ فى اعطائكم هذه المادة ، فليس هو المسؤول٠ بل أنا المسؤول اذا كان هناك خطأ فأنا الذى اتحمله٠وكذلك اذا كان الأستاذ عثمان شبوب يقدم لكم الفلسفة المعاصرة، أو الفلسفة عموما فى المقدمة،وتكلم لكم عن جانب ما لم يعجبكم فليس هو المسؤول ، بل أنا المسؤول ٠ فأنا الذى كلفته بهذا ٠ أما هو فمسؤول فقط عن

كيفية التقديم ، عن جمع المادة وطريقة عرضها ، هذا هو العمل الكبير المنتظر منه ، والمطلوب منه ومن غيره ، ليحببكم فى هذه المادة ، ليس ليجلبكم اليها طبعا ، ولكن للاطلاع عليها كما قلت · أما الفكرة نفسها فاذا رأيتم أنها خطأ فأنا المسؤول عنها ·

وأعود الآن الى بعض نوادركم التى ذكرها لى بعض الاخوان · فعندما سأل الأستاذ الطاهر زيتونى بعضكم عما هو الدين استغربوا ذلك ، وقيل له كيف هذا وأنت أعلم ، تقول لنا ما هو الدين ؟ آه ! استنكروا ذلك منه · وعندما جاء الأستاذ عثمان شبوب وقال لهم مثلا : نعطيكم فكرة عن الفلسفة عموما ، وتكلم عن الميتافزيقا ، وعن سقراط ، وقال لهم : ان مؤرخى الفلسفة قالوا عنه انزل الفلسفة من السماء الى الارض ، صاح كثير منكم : «يا لطيف ، أهذا جبريل ؟» وعندما قال لكم فى مقدمة دروسه عن الميتافزيقا : « لا بد أن نعطيكم فكرة عن الميتافزيقا ، والميتافزيقا يسميها ابن رشد ما وراء الطبيعة ، وسماها قبله الفارابى علم الربوبية »، صاح آخرون منكم : «أوه يا لطيف ! يا لطيف !» ·

هذا الشهرستانى ألف كتابا ضخما فى الملل والنحل، وتكلم عن الزرادشتية، والمانوية، واليهودية ، والمسيحية ، والصائبة ، والمجوسية ، كل المصائب تكلم عنها ، وتكلم طبعا عن الاسلام ، وعن المصائب الكثيرة أيضا الملصقة به من طرف ذويه ، أو من ينتسبون اليه · وكذلك ابن حزم فى كتابه الفصل فى الملل والنحل ، ومثل تاريخ الفرق الاسلامية، للبغدادى ، ومقالات الاسلاميين واختلاف المصلين لأبى الحسن الأشعرى ، وغيرهم كثيرون جدا ، أئمة كثيرون جدا كتبوا فى هذا · فلماذا ؟ لاطلاع المسلمين ، ولتحذيرهم من مناورات اليهود ، والمسيحيين ، والمجوس،الرامية الى مغالطة المسلمين ، والانحراف بهم عن دينهم ·

فلا بد من المقارعة بالحجة · هل أخطأ الأئمة العظام الذين ألفوا امهات الكتب ليطلعوا المسلمين على هذا ، وليحذروهم ، وليعطوهم السلاح الذى به يقارعون الآخرين الذين يأتون ليجادلوهم ، يؤولون لهم الآية ويأتون بشىء من عندهم ؟ فأنت طبعا بحكم جهلك لدينهم ، وضعف تمكنك من دينك ، طبعا تستسلم !

وحتى اذا كنت انت كامام لا تستسلم طبعا ، فان شبابك اليوم ، شبابك المعرض اليوم لمختلف الهزات والزوابع ، الذى يدرس على أساتذة متعاونين من مختلف الجنسيات

والأديان ، ومن مختلف الاتجاهات السياسية والاقتصادية ، والايديولوجيات والمذهبيات، فيأتيه أستاذ شيوعي ، وأستاذ مسيحي ، وأستاذ يهودي قد يكون مندسا ، لا ندري ؟ هذا موجود في جميع انحاء العالم الاسلامي ! الأساتذة الشيوعيون ، والأساتذة اليهود ، والأساتذة المسيحيون المتعاونون موجودون في الجزائر ، كما هم موجودون في تونس ، وموجودون في مصر ، وموجودون في سوريا ، وموجودون في العـراق ، وفي المغرب ، وفي ماليزيا ٠

وذلك أن جميع البلدان الاسلامية الآن تسمى نامية ، يعني في طريق النمو ، وكلها محتاجة ، وكلها تستورد الأدمغة من الخارج ، ولا تسأل عن أديانها ، لأن كثيرا من البلاد لا تعترف بالأديان رسميا أو لا تكتب الدين في بطاقات التعريف ، تطلب منهم مهندسا فيبعثون لك مهندسا ، فمن اليابان قد يكون بوذيا ، أو مسيحيا ، ومن بلدان شيوعية ، ومن بلدان أخرى أوروبية ٠ فقد يكون الذي ياتيك مـن فرنسا مسيحيا ، أو شيوعيا ٠ فاختر ، وأحلاهما مر ، هذا هو الوضع ، الذي يعلم فقط ولا يحاول ان يؤثر قليل !

بل وأكثر من هذا : فمن بعض البلدان الشقيقة يبعثون بالمسيحيين ! نحن نبهناهم مرارا ، ولكن بعضهم مع ذلك ينسون أو يخطئون فيبعثون لنا بأساتذة مسيحيين ٠ مع الأسف هذا الشيء موجود ، بأسماء عربية وكذا ، وشعبنا لا يعرف ، حيث ان بلادنا ليس فيها مسيحيون ، فمواطنونا عندما يسمعون اسم مراد ، أو أسعد ، وهو اسم عـربي ، فيظنونه مسلما ٠ فاذا لم يكن شبابك مسلحا ، واذا لم يكن مطلعا ، فكيف تريد أن يميز ؟ لا يميز بين هذه الاشياء التي يسمعها عن المتعاون ، سواء كان كما قلت من أوروبا ، أو من غير أوروبا ، أو من البلاد الشقيقة ، من مسيحيين وشيوعيين ، ومن مختلف الأنظمة السياسية ٠

لا نريد للتلميذ أن يبقى هناك انسانا أعزل ، انسانا ضعيفا بدون سلاح ، أمام هؤلاء الأساتذة ٠ بل ينبغي أن يسلح ، ينبغي أن يطلع ٠ وكيفـ يطلـع ؟ أنتم الذين تطلعونه كأساتذة أولا ، وكائمة ٠ وممن ياتيكم كثير من الطلبة لم تتـوفر لهم هذه الدروس في مؤسستهم ، ولكن في الجامع ياتي كم من واحد يستطيع أن يتحصل على هذا ، ربما أبوه أو أخوه ينبهه الى هذه الدروس عندما تقومون بها أنتم ٠

وكيف تريدون أن تقوموا بها اذا كنتم أنتم تجهلونها ؟ كيف تريدون أن تردوا على هذا الاتجاه السياسى أو ذلك التيار الاقتصادى فى العالم اذا كنتم أنتم تجهلونه ؟ كيف تريدون أن تردوا على الرأسمالية اذا كنتم أنتم لا تعرفون ما هى الرأسمالية ؟ كيف تريدون أن تردوا على الشيوعية اذا كنتم أنتم لا تعرفون الشيوعية ؟ كيف تريدون أن تردوا على الصهيونية اذا كنتم أنتم لا تعرفون الصهيونية ؟ كيف ؟ طبعا لا يمكن ، لا يمكن لكم أن تقولوا كلمة فى المجال الاقتصادى الا اذا كانت لكم بعض معلومات على الاقل عن الاقتصاد الاسلامى ، والاقتصاد المقارن ، أى الأنظمة الاقتصادية المختلفة فى العالم . وكذلك بالنسبة للناحية السياسية . وكذلك بالنسبة للنواحى المختلفة الاخرى .

لهذا كله أعطيناكم هذه المواد . وهذه كما قلت وأكرر منطلق فقط ، وليس تسليحا لكم ، يعنى توجيها الى مصنع الأسلحة ، توجيها لكم الى المراجع . فالاساتذة الذين يحاضرونكم فى هذه المواد يعطونكم المراجع ، تسمعون بكلمة الربوبية ، فما معنى الربوبية ؟ لابد أن تعرفوا معناها ، ليس معنى هذا ان الاستاذ يقول لكم ينبغى لكم أن تكفروا ، أن تقولوا أن هناك أربابا ... ولكن هناك دول ، هناك شعوب ، هناك ثقافات فيها هذا التعبير ، وفيها هذا المعنى ، ينبغى أن تعرفوه لتردوا عليه . وقد تقول أيها الامام « لا حول ولا قوة الا بالله ، هذا كفر ، هذا الحاد ! » وتذهب من هنا ، وتقول : « الوزارة أغرقتنا ، جاءت لترشدنا ولتكوننا ، واذا بها ذبذبتنا ، وشردتنا ، وفرقتنا شيعا ، وجعلتنا أسوأ من الأمس ، وخرجنا من هناك لا ندرى ما الطريق ، كنا من قبل نعرف شيئا ، وأصبحنا الآن نعرف أشياء كثيرة مختلطة أو لا نعرف شيئا أصلا ! » . لا ! ليس هذا هو مقصودنا طبعا .

فلابد أن تطلعوا على هذا كله ، ولابد أن تكملوا هذا بالمراجع ، سواء كانت موجودة هنا عندكم فى اطار المكتبة الضيقة ، أو فى المكتبات الأخرى عندما ترجعون الى عملكم . هذا اطلاع ، عمل متواصل ، عمل مستمر ، عمل دائب ، لا يكتفى فيه بمحاضرات . والطالب الجامعى عندما يتحصل على الليسانس أو الدكتوراه فهو منطلق فقط ، وليس معنى هذا أنه قد أتم دراسته ، قد حصل كل شىء . هذا هو الهدف من اعطائكم هذه

المواد • فلتقارعوا ، وتصارعوا ، لابد أن تطالعوا ! هذا هو الشيء الأول • الانسان يبتدىء بالخطوة الأولى ، يبتدىء بالبداية •

وعند الرجوع الى عملكم ينبغى أن تركزوا بالدرجة الاولى على الشباب ، وليس على الشيوخ • فعندما يمتلىء الجامع بالشيوخ ، سواء كانوا معممين ، أو مطربشين ، أو عراة الرؤوس ، لا تفرحوا ••• لا تظنوا أنكم قد أديتم واجبكم ! هؤلاء جاؤوا بأنفسهم ، بدون عمل منكم ، وبدون جهد منكم ، وبدون مزية منكم ، وبدون فضل منكم ، وليس لكم فى هذا أى شيء ، ليس لكم فى هذا أى حظ ! جاءوا ، هكذا ، من تحصيل الحاصل ، كانوا فى الجيب ، كانوا موجودين قبل ، لم يبق شيء بالنسبة لهؤلاء الكبار الا الجامع ، يأتون الى الجامع ! ولستم انتم الذين جذبتموهم اليه ! اذن فلا اجـر لكم فى ذلك ، ولا فضـــل ، ولا مزية ، ولا كسب !

ولكن المكسب الذى تكسبونه ، الجهد الذى تبذلونه ، النتيجة التى تجنونها ، هـى عندما يمتلىء المسجد بالشباب الطالع ، بالشباب الصاعد ، بالشباب المعرض للتأثيرات ، للهزات • هنا نستطيع أن نقول بأن هذا الامام بارك الله فيه ، لديه طريقة تحبب الناس، تجذب الناس !

ابن باديس رحمه الله كان يقف عند باب الجامع الأخضر فيقول للشباب : ادخـلوا الى الجامع ! فاعترض عليه بعض أصحابه فى السماح لهم بالدخول ، فكان يقول لهم لا ، بالعكس ، اتركوهم يدخلون ! لماذا اعترض عليه هـؤلاء ؟ قالوا هـؤلاء الشباب الذين يدخلون الجامع غير متوضئين، غير أطهار، كيف يدخلون الى الجامع ؟ يسمعون بابن باديس فيريدون أن يدخلوا ، يريدون أن يعرفوا من هو ابن باديس هذا ؟ وأن يروه مرة واحدة على سبيل حب الاطلاع والاستطلاع فقط ، « فنحن نمنعهم من دخول الجامع لأنهم غـير أطهار » « ألأنهم لا يصلون عادة ؟ لا ! اتركوهم يدخلون الجامع مرتين ، عشر مرات ، غير أطهار ، وفى المرة الحادية عشرة ، سيدخلون أطهارا ، اتركوهم هكذا » •

فأنتم كذلك : الشباب هو المهم ، وواجبكم ينحصر فى هؤلاء الشباب ، هذا واجبكم ، وهذه مزيتكم ، اذا كانت لكم مزية ، وهذا فضلكم ، كسب هذا الشباب الى الجامع ، ملء

الجامع بالشباب ، وليس بالشيوخ • فأنتم عندما تجدون الشيوخ يتمايلون معكم ، يمينا وشمالا ، ويقولون بارك الله فى هذا الامام ، الى آخره ، وأنتم تذكرون لهم الخرافات من أحد الكتب القديمة ، والقديمة فيها الصالح والطالح ، ولكن فيها كثير من الطالح مع الأسف ، مثل « من صام يوم منتصف شعبان غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » ، الى آخره ، رواه فلان ، كذا وكذا ، وتهرجون على الناس . فليس هذا الكلام هو الذى يكسب المسلمين للاسلام ، هذا ليس العمل ! لا ، ليس هذا ، العمل عندما تكسبون له الشباب ! ان عملكم اليومى ، ان جهادكم اليومى لتدخلوا الجنة ، ويغفر لكم ما تقدم من ذنبكم وما تأخر ، هو أن تقوموا بالعمل اليومى ! ان قيامك بعمل ما لا ينجر عنه ان الله يغفر لك **ما تأخر** ، أى ما يأتى فيما بعد ، لا • هذا كله غير صحيح ، ينبغى أن تأخذوا الكتب الصحيحة فى الحديث ، الكتب الصحيحة فى التفسير • هذا واجب الأساتذة الذين خيروا ليدرسوكم فى هذه المواد •

لا تغرروا بالناس ، لا تقولوا للانسان من صام يوم كذا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وتدفعونه الى ارتكاب الحرام ، وتدفعونه الى العصيان فيما بعد ، حيث انه يعرف انه اذا ما صام يوم كذا سيغفر له ما تقدم وما تأخر ! تحثونه بذلك من حيث لا تريدون على اتيان المعصيات ، وارتكاب الاثم ، لأنه سمع منكم أن لديه بطاقة فى الجيب بطاقة الجنة ، لأنكم أنتم قلتم له : « وما تأخر » ، ( اعمل ، فركس كما تحب ، راك مضمون حتى يوم القيامة » ! « الشىء اللى تعمله راه مغفور لك مقدما » ! لا ! غير صحيح !

ادرسوا الكتب الصحاح وعلموا الناس ، ووعوا الناس ، ولا تدفعوهم الى الخطا ، ولا تدفعوهم الى الاجرام ، ولا تدفعوهم الى الحرام بهذه الطرق ! لابد أن تأخذوا الكتب الصحاح ، المراجع الصحيحة ، لتوجهوا هؤلاء الشباب ! أما الشيوخ ، فسواء حكيتم لهم هذا أو لم تحكوه ، فهم أولا لم يعد فى امكانهم أن يعصوا ، لأنهم فاتهم الوقت ! لم يعد الشيخ الكبير راغبا فى المخمرة ، أو فى أن يرتكب أشياء أخرى ، أو يذهب ليسرق ، أو يذهب ليقطع الطرق،هذا كله لم يعد فى امكانه •

الذى هو معرض لهذا هو الشباب ، والشباب هو الذى تكسبونه بالطرق الحديثة ، بالطرق الصحيحة ، بالرجوع الى الكتب الأصلية ، الى المراجع الأساسية ، وبمنهج أيضا ،

بمنهج صحيح ، واضح ، يكسب لنا الشباب ، هذا هو المطلوب منـــكم ، اذن فمقياس نجاحكم هو هذا ، ملء الجامع بالشباب ، بالصغار ، سواء كانوا رجالا أو نساء • هذا هو المقياس ـ والنساء طبعا فى الأماكن المخصصة لهن ـ أى فى المســاجد التى فيها أماكن لصلاة النساء ، هذا هو المطلوب منكم •

وعليكم أن تقوموا بدروس حتى للنساء عندما يكون الطلب • هناك شروط ، وهناك حدود ، وهناك قواعد ، ولكن المبدأ أن تقوموا بهذا أيضا ، بالتوعية لدى النساء • واذا ما أصلحتم مرأة فأحسن من عشرين رجلا • المرأة هى سبب الداء ، هى سبب المصيبة • فاذا صلحت استطاعت أن تساهم فى اصلاح عشرين رجلا ، واذا فسدت أفسدت العدد الاكبر • فاذن لابد أن تهتموا كذلك بالمرأة فى التعليم ، وفى الدروس المسجدية أيضا • لابد أن تقوموا بهذا الواجب ، والا فكيف تريدون أن تصلحوا المجتمع ؟

لهذه الجوانب كلها ركزنا على هذه النقاط ، وهذه المواد ، ونلح الالحاح الأكبر عليكم فى أن تستفيدوا من هذه الدورات التدريبية ، التكوينية ، كمنطلق لكم فقط ، وكبداية ، وكخطوة أولى لزيادة الاطلاع وللتوسع • وبالرجوع الى المصادر ، وبالتباحث فيما بينكم ، وبالتناقش ، تستطيعون أن تكونوا حلقات كالحلقات التقليدية ـ امتاع بكرى ، أمتــاع زمان ـ تبادل الأسئلة والأجوبة • وبهذا تركزون المعلومات فى أنفسكم • تستغلون هذا الوقت الذى تجتمعون فيه هنا خاصة فى التركيز ، فى تحصيل أكبر مقدار من المعلومات، ووسعوها ، وأكرر وأكرر بقصد ، عند العودة بالاطلاع ، بمواصلة الاطلاع فى الكتب ، فى المراجع • فهذه التى يعطونكم اياها هنا لا تمزقوها بمجرد الخروج من هنا والذهاب الى القطار ، أو تلقون بها مع المهملات ؟ لا ، ينبغى أن تحتفظوا بها ، وترجعوا الى تلــك المراجع ، الى تلك المصادر ، لتكونوا أنفسكم ، ولتستمروا فى مواصلة الاطلاع •

يبقى دور الاساتذة • طبعا أظن أنى لست فى حاجــة الى التركيز عليه ، فبجهودهم هذه ، وبتقديرهم لواجبهم ، وبحرصهم على أداء هذه المهمة أحسن الأداء ، تستطيع هذه المدرسة أن تكون مصنعا لصقــل الأذهــان ، مصنعا لتربية الــذوق ، مصنعا لتحصــين الأرواح ، مصنعا لتوفير المناعة ، مصنعا للانطلاقة الجديدة فى هذا المجال على مستـــوى البلاد ، لتجهزوا الأدمغة والقلوب ، الافئدة والعقول ، وتحصنوا الأرواح بهذه المادة التى

تعطونها ، وبالطريقة التى تعرضونها بها ، التى بها تحببونهم فيها ، وتساهمون المساهمة الكبرى فى ضمان هذا الاسمنت الروحى ، بتحقيق هذه المناعة ، هذه الحصانة المعنوية • تستطيعون أن تقوموا بهذا ، وتستطيعون تكوين الرجال الأكفاء ، كما تستطيعون كذلك أن تكرهوهم فى هذا ، وأن تثبطوا عزائمهم، وأن تجعلوهم يراجعون أنفسهم، ويتساءلون عما اذا كانوا قد أخطأوا الطريق يوم أن اختاروا هذه المهمـة ، أو المهنة ، أو الحـرفة ، أو الوجهة • فعليكم يتوقف هذا ، أنتم الاساتذة ، عليكم يتوقف هذا الى حد كبير ، الى حد فاصـــــل •

عليكم أن توضحوا لهم المعالم بين الربوبية والالحاد ، ان تنيروا أذهان من ينغلقون على كل شىء ، ولا يريدون تتبع العصر ، مصرين على مواصلة الهمود فى أعقاب عصـــور الجمود والخمود ، ويحوقلون عند سماع كلمات مثل الربوبية والفلسفة • وان تفتحوا بهم آذان وأعين الذين يرمون بجميع القيم عـرض الحائط ، المعرضين للتحلل ، والانحلال ، والالحـــــاد !

أرجو لكم النجاح فى مهمتكم ، وادعو الله أن يوفقنا جميعا ، والسلام عليكم •

قضية

# الصّحراء الغربيّة
## وَالقانون الدّولى العام

د • بوعلام بن حمودة
وزير العدل ، وحافظ الاختام



**ان جمعية الحقوقيين الجزائريين تستحق الشكر على مبادرتها لعقد هذا الملتقى الذى يعتزم أن يدرس قضية الصحراء الغربية من الوجهة القانونية •**

**فمن خلال المبادرة تجسد جمعية الحقوقيين هدفا من اهدافها وهو تجنيد الحقوقيين لنصرة القضايا العادلة فى العالم • والقاعة التى تجتمعون فيها شهدت عدة ملتقيات من هذا النوع ونذكر من بينها الملتقى الذى انعقد لتأييد شعوب الهند الصينية ولتبيان أن الحق والقانون الدولى مع المكافحين الهند الصينيين والاحداث قد أنصفتهم وانصفتنا •**

---

نص الكلمة التى القاها السيد بوعلام بن حمودة ، وزير العدل ، وحافظ الاختام ، يوم 30 جانفى 1976 بقصر يوسف زيروت ، أمام جمعية الحقوقيين الجزائريين •

ولابد أن يعلم الصحراويون أن الكفاح التحريرى يخاض ، حسب التجربة ، على عدة جبهات : الجبهة السياسية والجبهة العسكرية والجبهة الدبلوماسية والجبهة القانونية ٠

فملتقى اليوم هو مساهمة فى معركة الصحراويين على الجبهة القانونية ، مساهمة تدخل فى اطار سياسة الثورة الجزائرية الناصرة لكل الحركات التحريرية فى العالم ٠

## الاغراض الدنيئة للغزاة

انه لا يصعب على المحلل النزيه لقضية الصحراء الغربية أن يكتشف الاغراض التوسعية للنظام الملكى المغربى والاغراض السياسية والاقتصادية لنفس النظام : أما الاغراض التوسعية فهى بارزة فى الصحف المغربية وبرامج الاحزاب المغربية والمهرجانات الهستيرية وتباطؤ النظام الملكى فى المصادقة على اتفاقية الحدود الجزائرية المغربية قصد استغلالها كورقة ضغط فى قضية الصحراء الغربية ٠ أما الاغراض السياسية والاقتصادية فهى واضحة أيضا : محاصرة الثورة الجزائرية ، الاتصال المباشر بالحدود الموريطانية للانقضاض عليها وعلى جزء من مالى وعلى جزء من الجزائر فى الوقت المناسب ، الاستيلاء على مناجم الفوسفات ٠ كل هذه المسائل دخلت فى حسبان النظام الملكى المغربى ٠ فكل من ينكر هذه النوايا مصاب بالعمى السياسى كما يقال ٠

وممثل اسبانيا صرح أمام جمعية الامم المتحدة فى آخر 1975 بأن مطالب المغرب لم تكتس صبغة الحاح الا فى اليوم الذى ظهرت فيه ثروات الفوسفات ٠

## من انتهاك الى انهاك

واذا تناولنا موضوع الصحراء الغربية من الوجهة القانونية ورجعنا الى الوثائق التى التزمت بها الدول المعنية والهيئات الدولية لتوصلنا الى نتيجة بينة وهى أن النظام الملكى المغربى ومواطئة النظام الموريطانى ذهبا من انتهاك الى انتهاك ٠ وفعلا لقد انتهكت الالتزامات الفردية كما انتهكت الاتفاقيات الثنائية والثلاثية وخولفت قرارات الهيئات الدولية ، مما يعرض القانون الدولى للزوال ويجعل العلاقات الدولية غير آمنة ٠ ان عدم احترام الدول لالتزاماتها التى عبرت عنها بمحض ارادتها سواء فى تصريحاتها الرسمية

أو فى الاتفاقيات التى وقعت عليها ، يخل بالامن الدولى وبالتالى يحطم كل المكتسبات التى حصلت عليها الانسانية بعد أن قضت على قانون القوة .

وتجدر الاشارة الى أن محكمة العدل الدولية الدائمة أكدت سنة 1933 على ضرورة احترام الالتزامات فى قضية نشأت بين الدانمارك والنرويج حول «القرويلاند» الشرقية وقالت بأن تصريح وزير خارجية النرويج باسم حكومته يلزم بلده .

فما بالكم بتصريح رئيس دولة يؤكد التزام حكومته باحترام مبدأ تقرير المصير فى الصحراء كما سنرى من بعد ! .

والقاعدة القانونية تكسب صفة الزامية بالتقاء ارادات الدول سواء كانت قليلة العدد أو كثيرة . فسنرى كم من مرة التقت ارادات الدول المعنية حول ضرورة ضمان تقرير المصير للشعب الصحراوى .

ويذهب بعض العلماء منهم النمساوى كلسن الشهير الى أن قاعدة القواعد فى القانون الدولى العام هى » قدسية الاتفاق والوفاء بالعهد « وباللاتينية Pacta Sunt Servanda وهى اذن أساس الالتزام .

والعمل بهذه القاعدة يمنح استقرارا فى العلاقات الدولية ويسد الفراغ الناجم عن انعدام سلطة دولية عليا تفرض احترام الالتزامات والاتفاقيات العامة والخاصة التى تقيم قواعد تعترف بها الدول المتخاصمة ، مذكورة فى المادة 38 من قانون محكمة العدل الدولية كمصدر من المصادر القانونية التى تعتمد عليها بجانب العرف الدولى والمبادىء العامة للقانون ومذاهب الفقهاء المشهورين .

ولا ننسى أن كل أعضاء الامم المتحدة منضمون الى قانون محكمة العدل حسب المادة 93 من ميثاق الامم المتحدة .

فقانونيا اذن الاتفاق الذى وقع بين الدول المعنية بقضية الصحراء والذى أقر مبدأ تقرير المصير لصالح الشعب الصحراوى اكتسى صبغة الزامية .

وقاعدة الوفاء بالعهد التى يعمل بها الآن القانون الدولى كعمود لوجوب احترام الاتفاقيات نجدها فى الحقيقة فى القرآن العظيم وفى الحديث النبوى الشريف . فكم من

آية الحث على وجوب احترام العهود والوفاء بها ! من بين الآيات الكثيرة نـــذكر الآيات التالية : « **أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم** » الآية 100 سورة البقرة · « **وأوفـوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا** » الآية 34 سورة الاسراء · « **بلى من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين** » الآية 76 سورة آل عمران ·

ومن الاحاديث النبوية المعروفة : « **من عاهد وفى** » فالوفاء بالعهد شيء مقـدس فى الدين الاسلامى ·

## انتهـاك التصريحـات الرسميـه

يقول السيد بوطالب ممثل المغرب فى الدورة الخامسة والعشرين لجمعية الامم المتحدة ( 12 أكتوبر 1970 ) فيما يخص الصحراء : « ان المغرب وجيرانه ، حرصا على السلم فى المنطقة وعلى تنمية التعاون بين بلدانها ، قرروا بذل كل ما فى وسعهم لتسهيل تطبيق تقرير المصير فى الصحراء بتعاون مع جمعية الامم المتحدة والسلطـــة المديـرة » ( أى اسبانيـا ) ·

والسيد بن هيمة فى الدورة الثامنة والعشرين ( 3 أكتوبر 1973 ) يؤكد نفس الشيء باسـم الحكومة المغربية اذ يعلن : « الكل يعلم أن بلدى صرح رسميا هنا وأمام هيئـات دولية أخرى أنه تبنى مبدأ تقرير المصير لسكان هذا البلد » أى الصحراء ·

أما وزير خارجية موريطانيا السيد ولد مكناس فقد أعلن أمام جمعية الامم المتحـدة فى أول أكتوبر 1974 : « ان بلدى قد وافق منذ 13 ديسمبر 1962 هنا فى الامم المتحدة على مبدأ تقرير المصير لسكان الصحراء » ·

والسيد كورتينا موزى Cortina Mauri ممثل اسبانيا يقول دائما أمام جمعية الامم المتحدة يوم 30 سبتمبر 1975 : « ان أحداث السنة الاخيرة والكيفية التى تعاون بهـا سكان الصحراء معنا يبينان أنه لابد من الاخذ بالاعتبار ارادة هؤلاء السكان لمواصلـــة السعى الى نزع الاستعمار · وفى النهاية ينبغى أن نحمى هذا الشعب ليمارس حقه فى تقرير المصير ، فمن الخطأ فى التقدير أن نفسح المجال لارادة عناصر أجنبية تعمل ضـــد المصالح الاصلية لهذا الشعب الذى يجب أن نحميه ليقرر بحرية مصيره » ·

والاستاذ رمان طماناس Raman tamanas ذكـــر فى المحاضرة التى نشرت فى جريدة المجاهد يوم 25 ديسمبر 1975 أن الحكومة الاسبانية تعهدت عـــلى لسان رئيس دولتها الجنيرال فرانكو بضمان سلامة التراب الصحراوى وبالاعتراف بسيادة الشعـب الصحراوى على ثرواته الطبيعية كما تعهدت دولة اسبانيا بضمان حريــة الشعــــب الصحراوى فى تقرير مستقبله ·

هذه التزامات فردية واذا تطرقنا الى الالتزامات الجماعية ، وجدنا اختراقات أخـــرى رغم وضوح النصوص المتفق عليها ·

## انتهـاك التعهـدات الجماعيـة

فى البلاغ الجزائرى المغربى الصادر يوم 27 ماى 1970 بعد اللقاء الذى تم بين الرئيس بومدين والملك الحسن الثانى نقرأ : « فيما يخص الاراضى التى تحتلها اسبانيا ، فـان الطرفين استنادا الى لائحة الامم المتحدة الناصة على مبدأ تقرير المصير قررا تنسيق العمل لتحرير هذه الاراضى من الاستعمار » ·

فيظهر أن المغرب لم ينسق الجهود مع الجزائر حسب ما جاء فى هذا البلاغ لتحريـر الصحراء من الاستعمار بل عمل وتعاون مع اسبانيا على اقتسام ثروات واراض هى ملك للغـــير ·

والبلاغ الجزائرى الموريطانى الصادر فى الجزائر يوم 26 فيفرى 1973 بين الرئيس بومدين والرئيس ولد داده يشير الى تبنى قرارات جمعية الامم المتحدة · ومنظمة الوحدة الافريقية ومنظمة عدم الانحياز والى ضرورة السعى لتطبيق حق تقرير المصير بالنسبـة للصحراء الغربية ·

وهناك أيضا اتفاق ثلاثى نشر بعد لقاء نواديبو فى 14 سبتمبر بين الرئيس بومدين والرئيس ولد داده والملك الحسن الثانى · وهذا الاتفاق يؤكد على ضرورة تنسيق العمل وضرورة تطبيق لوائح جمعية الامم المتحدة ·

أما لقاء أقادير فى 24 جوليت 1973 بين الرؤساء الثلاثة فانه بعد ذكـــر اهتمـــام الرؤساء الثلاثة بقضية الصحراء الغربية يقول : « ان رؤساء الدول الثلاثة يؤكدون من

جديد تعلقهم المتين بمبدأ تقرير المصير وحرصهم على تطبيق هذا المبدأ فى اطار يضمن لسكان الصحراء التعبير الحر والحقيقى لارادتهم حسب قرارات جمعية الامم المتحدة فى هذا الميدان ، فالعبارات ليست فيها أى غموض ٠

ومجلس منظمة الوحدة الافريقية سواء فى أديس أبيبا ( 6 سبتمبر 1969 ) و (فيفرى 1970 وأوت 1970 وماى 1973 ) أو فى الرباط ( جوان 1972 ) أو فى موقاديشو ( جوان 1974 ) فانه ألح دائما على مبدأ تقرير المصير بالنسبة للشعب الصحراوى ٠ ونفس الموقف فى اجتماع كوالا لامبور فى اطار الندوة الاسلامية ( 25 جوان 1974 ) ومؤتمر عدم الانحياز الذى انعقد فى الجزائر ( من 5 الى 9 سبتمبر 1973 ) ٠

## انتهاك لوائح جمعية الامم المتحدة

ان اللائحة رقم (20) 1514 بتاريخ 14 ديسمبر 1960 صرحت بان وضع الشعوب فى تبعية وسيطرة واستغلال أجنبى يكون جحودا للحقوق الاساسية للانسان ويناقض ميثاق الامم المتحدة ويعرض للخطر السلم والتعاون فى العالم ٠

نفس اللائحة تقرر بأن كل الشعوب لها الحق فى تقرير المصير ٠

والمبادىء هذه اعتمدت عليها جمعية الامم لمنح حل تقرير المصير للشعب الصحراوى فى عدة لوائح : لائحة رقم (22) 2354 بتاريخ 19 ديسمبر 1967 ، لائحة رقم (23) 2428 بتاريخ 16 ديسمبر 1968 ، لائحة رقم (24) 2591 بتاريخ 16 ديسمبر 1969 ، لائحة رقم (25) 2711 بتاريخ 14 ديسمبر 1970 ، لائحة رقم (22) 2983 بتاريخ 14 ديسمبر 1972 ، لائحة رقم (23) 3162 بتاريخ 14 ديسمبر 1973 لائحة رقم (24) 3292 بتاريخ 13 ديسمبر 1974 ٠

ويوم الخميس 11 ديسمبر 1975 صادقت جمعية الامم المتحدة على لائحتين الاولى نالت 88 صوتا والثانية 42 صوتا ٠ يبدو ان اللائحة الاولى ( التى تستنكر كل مبادرة فردية مخالفة لقرارات الامم المتحدة التى تدعو الى احترام حكم محكمة العدل وتقرر مبدأ تقرير المصير ) هى التى نالت رضى أغلبية الدول وهى التى ينبغى أن تطبق ٠

أما اللائحة الثانية وان كانت تسجل الاتفاق الثلاثى بين اسبانيا وموريطانيا والمغرب فانها تؤكد أيضا على وجوب احترام حق تقرير المصير وعلى مسؤولية الامم المتحدة فى هذا المضمار ٠

ان تحليل اللوائح المختلفة للامم المتحدة أظهر بوضوح تعلقها بحق تقرير المصير الممنوح للشعب الصحراوى والاعتراف لم يكن بالفاظ عامة بل عنى الشعب الصحراوى خصيصا بذكر اسمه ٠

واللوائح المتخذة من طرف جمعية الامم المتحدة ليست وليدة الظروف أو المؤامرات بل هى وفية لميثاق الامم المتحدة الذى يسجل فى مادته الاولى من بين الاهداف هدف تنمية علاقات ودية بين الامم مبنية على احترام مبدأ المساواة فى الحقوق لصالح كل الشعوب واحترام حق تقرير المصير لهذه الشعوب ٠ والمادة 55 من الميثاق تكرر هذا المبدأ ٠

فبعد اختراق هذه المبادىء والقرارات الملزمة فى نظر القانون الدولى لا يسعنا الا أن نتكلم عن انتهاك للقانون الدولى من طرف الانظمة السياسية فى اسبانيا والمغرب وموريطانيا وعن خيانة عظمى وصمت بها تلك الانظمة ٠

## شرعية الكفاح التحريرى

فامام الفضيحة كيف يلام شعب على طرد الغزاة الذين لم تاخذهم رحمة ولا شفقة على شعب فقير الحال طالما استغله الاستعمار الاسبانى ٠ ان الحق بجانب الشعب الصحراوى والقانون أيضا اذ أن اللائحة رقم (20) 2105 فى سنة 1965 تقر شرعية كفاح الشعوب من أجل تقرير مصيرها وتوجه نداء لمساعدة هذه الشعوب ماديا ومعنويا ٠

وكفاح الشعب الصحراوى الآن كفاح من كان فى حالة دفاع شرعى عن الكيان وفى حالة مضطر الى رد العدوان السافر ٠

## عدم احترام اتفاقيات جنيف ولاهاى

وبما ان الحرب فرضت على الشعب الصحراوى فان الاتفاقيات الدولية وقواعد العرف الدولى تدعو المحاربين الى احترام الحقوق الانسانية ٠

والقواعد التى نصت عليها اتفاقيات لاهاى واتفاقيات جنيف أصبحت مندمجةفى القانون الدولى العام • وياللاسف نلاحظ أن الغزاة المغاربة والموريطانيين لم يراعوا تلك القواعد • فالاخبار تؤكد انتهاكاتهم لها وعودتهم الى الجاهلية والهمجية : فهم يقتلون اللاجئين والسكان العزل أى يقتلون غير المكافحين ، وهم يحمون أنفسهم بأتراس بشرية ، ويعذبون اعتباطا أى بدون منفعة ولا يقومون بتغذية عادية للسكان بل يحاولون تجويعهم ، ويستعملون مواد قاتلة محرمة فى الاتفاقيات الدولية المتعددة مثل النابالم • كل هذه التصرفات الاجرامية يدينها القانون الدولى العام • ونحبذ لو اقترحتم انشاء لجنة دولية خاصة تحقق فى جرائم الحرب التى ترتكبها جيوش النظام الملكى المغربى ونظام موريطانيا ، وتعرض القضية على محكمة Russel روسل •

## شرعية المسألة

فكيف تلام الجزائر وهى تدعو الى احترام المواثيق الدولية وقرارات منظمة الوحدة الافريقية والندوة الاسلامية ومؤتمر عدم الانحياز وتطالب باحترام تقرير المصير الذى اتفق عليه بصفة رسمية وعلانية ؟

ومساعدة الجزائر لكفاح الشعب الصحراوى سواء أكانت مادية أو معنوية زيادة على أنها تنسجم تماما مع السياسة التى انتهجتها دائما فى قضايا التحرير ، فانها تعتبر واجبا تحث عليه الهيئة الدولية العليا أى جمعية الامم المتحدة فى قرارها رقم (25) 2625 بتاريخ 4 نوفمبر 1970 •

واللائحة الآنفة الذكر تحمل تصريحا متعلقا بالمبادىء السبعة التى تمس العلاقات الدولية والتعاون بين الدول • فالمبدأ الرابع يفرض على الدول فرديا وجماعيا ان تساعد على محو الاستعمار • والتأييد المادى والمعنوى لجبهة البوليزاريو من طرف الجزائر يعتبر أيضا تلبية للنداء الموجود فى هذه اللائحة واللائحة رقم (20) 2105 (سنة 1965) التى ذكرناها من قبل •

## قضية الصحراء ومحكمة العدل الدولية

والغريب فى الامر هو أن النظام المغربى والنظام الموريطانى بعد ما اتفقا على طرح قضية الصحراء على محكمة العدل الدولية ، تهربا من اتباع النتائج التى توصلت اليها •

وننبهكم الى أن مجرد تقديم القضية للمحكمة الدولية يدل على ارتباك النظامين وشكهما فى تبعية بلد الصحراء الغربية لسيادتهما المزعومة • كما أن تقسيم البلد يفسد مزاعم كل من النظامين فى السيادة • ونضيف أن رفضهما لمبدأ استفتاء شعبى يؤكد عدم تاكدهما من صحة مزاعهما •

فان كان الشعب الصحراوى حقا تابعا للمملكة المغربية أو لموريطانيا فكيف يرفض الالتحاق « بالوطن الام » ؟ ولماذا لم يخص المغرب وموريطانيا كفاحا مسلحا لانقاذ أرضهم حسب ما يدعون ، من براثن الاستعمار الاسبانى ؟ بينما رأينا الجزائر رفضت مرارا استقلال أرض جزائرية مبتورة من أى جزء من أجزائها •

والمهم أن بحوث وأشغال محكمة العدل الدولية أسفرت عن نتائج واضحة ولا يمكن لنا أن نشك فيها ، وطبقا للمادة الثانية من قانونها الاساسى ان المحكمة مؤلفة من بين القضاة السامين الذين يتمتعون بتقدير معنوى وبعلم وافر فى القانون الدولى ، وينتمى هؤلاء القضاة الى جنسيات مختلفة •

هؤلاء القضاة منتخبون ويعملون مستقلين •

واليكم النقاط الاساسية التى توصلت اليها المحكمة :

1) ان المحكمة تعترف بأن الصحراء الغربية لم تكن أرضا مهجورة بدون مالك بل كان فيها سكان يعيشون فى نظام اقتصادى اجتماعى تحت سلطة رؤسائهم المحاطين بالجماعة •

2) التشريع المطبق فى الصحراء الغربية لم يكن تشريعا مغربيا بل كان مستمدا من الفقه الاسلامى ومن العرف •

3) لم تكن تبعية ترابية للمغرب •

4) لم يمارس المغرب أو موريطانيا أعمالا سيادية فعلية •

5) لم تجب ضرائب فى الصحراء باسم دولة المغرب أو مجموعة موريطانيا •

فالنقاط الخمسة هذه لم تترك مجالا للشك : فالشعب الصحراوى عاش حرا حتى استولى عليه الاستعمار الاسبانى • اذن فهل تطالب المغرب لتملك الصحراء الغربية

لان بعض التجار مروا بها لشراء العبيد والذهب مما كان يسمى بالسودان ؟ ليحق للصحراويين فى هذا الافتراض أن يطالبوا بالسيادة على المغرب وعلى اسبانيا لان أجدادهم المرابطين انطلقوا من الصحراء الغربية فى القرن الحادى عشر لبسط سلطتهم على كل المنطقة وعلى الاندلس ٠

فبعد الرأى الاستشارى لمحكمة العدل الدولية وبعد امتناع المغرب واسبانيا وموريطانيا عن اتباع نتائجه ، وبعد الحالة التى أحدثتها تلك البلدان والتى تعرض السلم للخطر فى المنطقة ، لم يبق لمجلس الامن الا أن يتخذ التدابير اللازمة طبقا للاحكام الموجودة فى الفصول 5 و 6 و 7 من ميثاق الامم المتحدة ٠

فالسؤال الموجه لمجلس الامن والامين العام للامم المتحدة : ما هذا الصمت ؟ ٠ ما هذا الجمود بعد التحركات التى لاحظناها فى العام الماضى ؟ فلابد أن نكشف القناع عن مؤامرة الصمت التى تحاك حول قضية الصحراء ٠ فالامم المتحدة لم تضطلع بمسؤولياتها القانونية وتجاهلت واجباتها ، وبعض الدول اعتبرت المسالة هامشية ٠

كل البراهين التى قدمناها والتى تثبت حق الشعب الصحراوى فى تقرير المصير والاستقلال مستمدة من المواثيق الدولية ومن التعهدات الفردية والجماعية ، ولقد زادها قوة أنها جزء من القانون الدولى العام وأنها أكدت تكرارا فى هيئات دولية من النوع الجهوى ومن النوع العقائدى ومن النوع القضائى ومن النوع الامى ٠

فليكن كلامنا مساهمة فى الدعم القانونى الذى أرادت جمعية الحقوقيين الجزائريين أن توفره لقضية مقدسه ، قضية استقلال الشعب الصحراوى ٠

# المفتي الجزائري ـ المصري ابن العنابي وكتابه
# السّعي المحمود في نظام الجنود

د. أبو القاسم سعد الله

**كتاب « السعى المحمود فى نظام الجنود » لمفتى الجزائر ومصر ، محمد بن محمود الجزائرى المشهور بابن العنابى ، يعتبر من أوائل الكتب العربية التى عالجت موضوع التجديد فى النظم الاسلامية أو تقليد المسلمين للاروبيين فى مبتكراتهم الحديثة . حقا أن هذا الكتاب يتناول خاصة طريقة الاخذ بنظام الجيوش الاروبية ، ولكنه يحتوى كذلك على لمسات جديرة بالدراسة حول قضية التقليد والابتكار. وقد ناقش المؤلف كل ذلك فى ضوء الشريعة الاسلامية من جهة وفى ضوء حاجة المجتمع الاسلامى الى التطور من جهة اخرى . فاذا عرفنا ان المؤلف كان مفتى الاحناف ( شيخ الاسلام ) ، وان زمن تاليف الكتاب 1242 (1826 م) يشكل منعرجا خطيرا فى لقاء الحضارتين الاسلامية والاروبية ، أدركنا ما للكتاب من قيمة**

* كتب هذا البحث مساهمة فى الكتاب التذكارى الذى اعده فى مصر طــلاب وأصدقاء الدكتور أحمد عزت عبد الكريم على شرفه .

**تاريخية وحضارية ، وما لآراء صاحبه من اهمية • ولهذه الاسباب عزمنا على كتابة هذه العجالة عنه وعن مؤلفه •**

أولا ـ **حياة ابن العنابى** : ورغم شهرة ابن العنابى كمفتى ومؤلف وصاحب موقف سياسى فان تاريخ ميلاده غير معروف بالضبط • ولكننا اذا عرفنا ان المصادر تجمع على ان تاريخ وفاته هو 1267 (1851 م) (1) وانه قد عاش حتى تجاوز السبعين سنة عرفنا أنه من مواليد الربع الاخير من القرن الثامن عشر الميلادى (2) وهذه الفترة التى عاشها ابن العنابى تعد من أحرج الفترات التاريخية لا فى الجزائر فحسب ولكن فى الدولة العثمانية والعالم الاسلامى قاطبة • فقد عاصر الثورة الفرنسية وما نتج عنها من أحداث مست جوانب متعددة من الحضارة الاسلامية ، وعاصر فى بلاده ( الجزائر ) حروبا خارجية ضد الانكليز والامريكان والفرنسيين والاسبان والتونسيين وغيرهم ، وحروبا داخلية كثورة الطريقة الدرقاوية وثورة ابن الاحرش ، والتنازع على السلطة بين الطائفة التركية نفسها سواء على مستوى السلطة المركزية فى مدينة الجزائر أو على مستوى الاقاليم • وكان ضحية كل هذه الحروب ( الخارجية والداخلية ) هو الرجل العادى من الفلاحين وأصحاب الحرف والتجار ، لانه هو الدافع للضرائب وهو وقود الفتن •

وبالاضافة الى ذلك عاصر ابن العنابى ، الذى تولى عدة وظائف رسمية كما سنرى ، بداية عهد التنظيمات فى الدولة العثمانية من جهة وأخذ محمد على والى مصر عندئذ بمبادىء التمدن الغربية من جهة أخرى • وسنرى ان هذه التنظيمات والمبادىء هى التى دفعته الى كتابة كتابه الذى نحن بصدد التعريف به • اما فى الجزائر حيث كان يعمل فاننا لا نجد هذه الظاهرة قد وجدت لها مكانا • حقا ان الانكشارية قد تدهورت كنظام

---

(1) على ذلك بروكلمان ، ملحق 2 ، ص 739 ، والاعلام للزركلى ، 7 ، ص 311 • وكلاهما لا يذكر له تاريخ ميلاد • وشذ محمد بن عبد الكريم فذكر ان ابن العنابى تولى الافتاء فى الاسكندرية سنة 1267 (1851) وتوفى بها سنة 1269 (1853) ـ أنظر حمدان بن عثمان خوجة ومذكراته ، بيروت 1972 ، ص 161 ، هامش 2 •

(2) ليس هناك من أشار الى تاريخ ميلاد ابن العنابى ، ولكن مشاركته المبكرة فى الحياة السياسية ( ابتداء من 1805 ) ووصف تلاميذه له بأوصاف تدل على الشيخوخة تجعلنا نرجح ان يكون تاريخ ميلاده حوالى 1775 م •

واصبحت عاملا سلبيا فى الحيـــاة السياسية والاقتصادية ، بل اصبحت مثار فتنـــة واضطراب فى البلاد ، ولعل ذلك هو ما جعل الـــداى على خوجة يحاول التخلص منهم سنة 1817 (3) بطريقة سبق بها السلطان محمود الثانى معهم · ولكن على خوجة قــد مات بالوباء (4) وفشل فيما رامه وعاد بعده الانكشارية الى صولتهم · ولعل ذلك هو ما ساعد على احتلال فرنسا للجزائر بعد حوالى عشر سنوات من وفاته ·

وقد ولد ابن العنابى على ما يظهر فى مدينة الجزائر فى التاريخ المشار اليه · واسمه الكامــل هــو محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائرى (5) ، وشهرته العنابى أو ابن العنابى (6) · وكان على مذهب الحنفية · واسرته تركية قديمة فى تاريخ الجزائر (7) ولكنها ظهرت فيما يبدو بعد مجىء العثمانيين · فنحن نجــد اسم جده الثانى ( حسين بن محمد بن العنابى ) فى قائمة المفتيين الاحناف فى الجـــزائر سنة 1148 ( 1735 ) · والمفتى الحنفى فى الجزائر العثمانية هو « شيخ الاسلام » الذى لا يفوقه فى المنزلة والاعتبار سوى « الداى » أو رئيس الدولة · وكان حسين بن العنابى ، فيما يبدو عالما واســـع

(3) انظر الطريقة التى استعملها لضربهم فى ( مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار ) تحقيق ونشر أحمد توفيق المدنى ، الجزائر ، 1974 ، ص 132 ــ 134 ·

(4) عن هذا الوباء انظر نفس المصدر ، ص 141 ، 151 · وقد مات منه خلق كثير ، ودام حوالى سبع سنوات · وتوقف بسببه اداء فريضة الحج فترة ·

(5) لا ندرى كيف ولا متى لصقت به هذه النسبة · والظاهر انها نسبة لاحــد اجداده الذين قدموا من آسيا الصغرى الى الجزائر فى العهد العثمانى ، ولعل جده حسين هو الــذى أخذ النسبة أولا لان المؤلف يتوقف عنده · وقد كنا نرجح أن المؤلف أخذ هذه النسبة بعد خروجه من الجزائر لولا وجودها فى اسمه فى نص قديم يعود الى سنـــة 1811 ( 1226هـ ) عندما كان فى الجزائر ·

(6) الذى كان يكتبه بنفسه هو ( ابن العنابى ) ، ولكن بعض المؤلفين، ومنهم بروكلمان، يكتفون ( بالعنابى ) فقط · والراجح انها ليست نسبة الى عنابة ( مدينة بالجزائر ) ولكنها شهرته ، وهو قد استعملها كذلك فى جوابه على مسألة التوحيد الذى يعود الى سنـــة 1811 فقال بعد ذكر اسمـــه « المدعو بابن العنابى » · ويستعمل بعض المؤلفين عبـارة « الشهـير بابن العنـــابى » · وقد استعـــمل الزهـــار ، المعـــاصر له ، مـــرة ابن العنابى ومـــرة العنـــابى فقـــط ، أمـــا خـــوجة ، المعـــاصر لـــه أيضا ، فقـــد استعمـــل العنابى ، بخلاف ديرينو الذى استعمل ابن العنابى ، وهكذا · وهى فى الواقع شهرة جده الاعلى أيضا ، حسين بن محمد بن العنابى ·

(7) رسالة الشيخ المهدى البوعبدلى الى المؤلف بتاريخ 27 مايو 1975 ·

المعرفة بعلوم الشريعة ، وله تفسير للقرآن الكريم ينقل عنه حفيده ، موضوع هذا البحث ، فى كتابه « السعى المحمود » عدة مرات ، ويشير اليه بهذه العبارة « قال مولانا الجد الاكبر حسين بن محمد رحمه الله فى تفسيره » (8) . واشتهر عالم آخر من هذه العائلة وهو مصطفى بن رمضان العنابى (9) المتوفى سنة 1130 وهو عم حسين المذكور . أما جد المؤلف الادنى ( محمد بن حسين ) فقد أصبح قاضى الحنفية بالجزائر وتوفى سنة 1203 بمصر . ورغم أن والده ( محمود بن محمد ) لم يتقلد ، حسبما نعلم ، منصب الافتاء أو القضاء ( اذ لا نجده ضمن قائمة هؤلاء أو أولئك ) فانه كان يعتبر من علما العصر . وقد توفى هو أيضا بمصر ( دفن عند ساحل السويس ) عند منصرفه من الحج سنة 1236 (10) . وهكذا نجد أن مؤلف ( السعى المحمود) ينتمى الى أسرة جزائرية عريقة فى العلم والوظائف الرسمية والفقه الحنفى .

وتثقف ابن العنابى ثقافة واسعة بمفهوم عصره . ونحن نقول « بمفهوم عصره » لنمهد الى القول بأن ثقافته تقليدية اذا ما حكمنا عليها من خلال كتابه المذكور ومن خلال ثبته المعروف ( بثبت الجزائرى (11) فهو حافظ وناقل اكثر منه مفكرا ومجتهدا . ومهما يكن الامر فقد تلقى العلم فى وطنه على جده وعلى والده كما تلقاه على المفتى المالكى

---

(8) فصول 6 ، 7 ، 8 .

(9) قرأ عليه أحمد بن مصطفى برناز التونسى اثناء زيارته لمدينة الجزائر . انظر ( بشائر أهل الايمان فى فتوحات آل عثمان ) لحسين خوجة ، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية . وكذلك رسالة الشيخ البوعبدلى الى المؤلف . وقد اطلع البوعبدلى على بعض تآليفه فى طرابلس الغرب . وفى زيارة قمت بها لمدينة البرواقية بالجزائر سجلت فى مذكرتى اننى رأيت مخطوطا باحدى المكتبات هناك فيه اسانيد مصطفى العنابى وبعض الاسماء الاخرى من اسرته . ولكنى لم اعد الى هذه المكتبة ولم اسجل بالضبط ما رأيته فى المخطوط .

(10) ذكر المؤلف هؤلاء وتواريخ وفاتهم فى اجازته لبعض تلاميذه ، ومنهم ابراهيم السقا وعبد القادر الرافعى . وتعرف اجازته للاول ( بثبت الجزائرى ) . وكلاهما مخطوط عندى . اما اجازته للاول فقد نسختها من نسخة المرحوم نعيم النعيمى الجزائرى فى داره بقسنطينة 12 ابريل ، سنة 1971 ، واما اجازته للثانى فقد سلمنى منها نسخة الاستاذ محمد بن عبد الكريم مشكورا .

(11) الاعلام ، 7 ، ص 311 . ورسالة الشيخ البوعبدلى الى المؤلف .

على بن عبد القادر بن الامين (12) • وهؤلاء هم الذين ذكرهم فى ( ثبته ) وهو يشير الى روايته الحديث وغيره • فقد قال انه قرأ بعض صحيح البخارى على جده ( يعنى جده الادنى ) وأجازه ببقيته وبكتب الحديث الستة الاخرى ـ أما عن والده فقد قرأ الفقه الحنفى وغيره من العلوم • وهو يروى البخارى « بأعلى سند يوجد فى الدنيا » عن شيخه على بن عبد القادر المفتى المالكى المذكور • ويسميه تارة « شيخى أبى الحسن » وتارة « شيخنا ابن الامين » ، واحيانا يقول « صاحبت شيخنا » • ولكننا اذا تأملنا فى مصادر ( السعى المحمود ) وجدنا ان ابن العنابى كان عميق الثقافة ، سواء منها تلك التى تمت بصلة الى علوم الدين أو علوم الدنيا • اما فى ( الثبت ) فهو يتحدث فقط عن روايته لمسلسلات الحديث الشريف وهى المعروفة « بالسند » •

وقد كان فى مدينة الجزائر علماء معاصرون له ، نذكر منهم المفتى الشاعر محمد بن الشاهد (13) ، والمفتى مصطفى بن الكبابطى (14) ، والعالم محمد بن مالك (15) ، والكاتب السياسى حمدان خوجة (16) •

ولعل الذى رشح ابن العنابى للوظائف الرسمية فى الدولة هو مكانة أسرته ومنزلته العلية • وقد عرفنا ان أسرته كانت ذات حظوة لدى دايات الجزائر منذ أوائل القرن الثانى عشر للهجرة ( الثامن عشر الميلادى ) • اما المنزلة العلمية فالظاهر ان ابن العنابى كان متمكنا فى العلوم الشرعية خاصة ، واقدم نص وجدناه له يدل على ذلك • فقد عثرنا له على جواب أجاب به على مسالة فى التوحيد بدأه هكذا «ورد على سؤال نصه بعد

(12) توفى عن ثمانين سنة عام 1236 (1820) • انظر ( ثبت الجزائرى ) •

(13) توفى حوالى سنة 1792 وكان بالاضافة الى الشعر ينظم الموشحات ويلحنها ، ولا سيما فى المولد النبوى وقد تولى الافتاء عدة مرات •

(14) تولى الافتاء زمن الفرنسيين ثم نفوه لمعارضته ضم الاوقاف الاسلامية الى املاك الدولة الفرنسية ، وقد استوطن الاسكندرية ، ولعله تولى فيها الافتاء ، وكان شاعرا رقيقا أيضا ، وله شعر فى الحنين الى الوطن • وهو دفين الاسكندرية •

(15) مذكرات ، ص 81 ـ 82 ، 91 • وكان ابن مالك مدرسا وقاضيا للمالكية وله تدخل فى الامور السياسية •

(16) له عدة مؤلفات سنذكر بعضها • وقد تزعم حركة معارضة ضد الفرنسيين فنفوه ، وبعد اقامة قصيرة فى باريس استوطن اسطانبول وتولى بها بعض الوظائف وبها توفى حوالى 1845 •

عنوانه ، اذا قيل حيث كان أهل الحق مطبقين على ان الحق تعالى يرى فى الاخرة بالابصار ... فأقول اعلم أولا ان المدركات تنقسم الى ما يدخل فى الخيال كالصور المتخيلة والاجسام المتلونة المتشكلة والى ما لا يدخل فى الخيال كالذات العلية ، وكل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة والارادة ... » وعندما وصل فى هذه المسألة الى الفصل بين رأى المعتزلة وأهل السنة اختار ابن العنابى رأى اهل السنة قائلا عن رأى المعتزلة « ونحن لا نقول به لضيق مجاله فنسلمه لاربابه ، سالكين مسلك الجمهور من أهل السنة لوضوح أدلتهم ... » (17) • ويتضح من هذا النص القصير منطق ابن العنابى فى معالجة هذه القضية الشائكة وترجيحه لرأى الجمهور المعروفين بتفضيل النقل عند تعارض الادلة • فاذا عرفنا ان تاريخ هذا النص يعود الى سنة 1226 (1811) عرفنا منزلة ابن العنابى المبكرة لدى علماء عصره ، وهى المنزلة التى جلبت اليه انتباه حكام عصره أيضا •

والوظائف الرسمية التى تولاها ابن العنابى فى الجزائر متنوعة • والظاهر ان أول من ولى ابن العنابى وظيفة القضاء الحنفى هو الداى أحمد باشا ( 1220 = 1805 ) (1223 ـ 1808) • ذلك أن النص الذى بين ايدينا ينسب الى ابن العنابى عندئذ مهمتين كبيرتين الاولى وظيفة القضاء والثانية الكتابة الى باى تونس • فقد جاء فى مذكرات احمد الزهار ان الباشا قد أمر « الفقيه محمد بن العنابى ، قاضى الحنفية ، ان يكتب كتابا الى حمودة باشا ( باى تونس ) • فكتب الكتاب وبعثوا به » • ووعد الزهار ان يذكر نص الكتاب فى مبيضته ، ولكنه لم يفعل لانه لم يبيض عمله • وعلى كل حال فقد اشار اليه بانه يقع فى « ورقة صغيرة » (18) • ولو ذكره لعرفنا منه فحوى الكتاب واسلوب كاتبه • ومهما يكن الامر فان هذا الخبر يشير الى منزلة ابن العنابى لدى الداى ، ولولا

(17) يقع النص فى ورقتين ضمن مجموع ص 55 ـ 58 • الخزانة العامة المغربية ، ك 1089 • والخط ليس خط المؤلف لان نهاية النص هكذا : « انتهى ما نقل من خط المؤلف » • وقد وقع اسمه هكذا : « قال هذا وكتبه بيده الفانية محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائرى المدعو بابن العنابى اصلح الله حاله ... بتاريخ ذى القعدة سنة 1226 » •

(18) مذكرات ، ص 97 •

ذلك لاستكتب الداى كتابه الرسميين ( أو الخوجات ) لنفس الغرض . اذ المعروف أن قاضى الحنفية ( أو القاضى عامة ) لا يقوم بهذه المهمة .

ويختفى اسم ابن العنابى فترة من الوظائف الرسمية ، فلا يظهر من جديد الا فى عهد الداى عمر باشا (1230 ـ 1814) (1232 ـ 1816) . فقد وجد اسمه عندئذ هكذا « محمد بن محمود » ضمن قائمة وزراء وأعيان الباشا المذكور ، متقلدا وظيفة « نقيب اشراف مكة والمدينة » واضعا اما ذلك ختمه الذى يحمل تاريخه (19) .

وكما كلف الداى أحمد باشا ابن العنابى بالكتابة لباى تونس كلفه الداى عمر باشا بسفارة للمغرب الاقصى لدى السلطان المولى سليمان . ذلك أن الجزائر قد تعرضت الى قصف الاسطول الانكليزى سنة 1816 (20) . وقد ادى ذلك الى هلاك معظم الاسطول الجزائرى فأرسل الباشا سفراء عنه الى السلطان محمود الثانى والسلطان سليمان ويوسف باشا باى طرابلس يستعينهم على اعادة بناء الاسطول بنجدته بالسفن والاموال . والذى يهمنا من هذه الحادثة هو ان الباشا كتب الى السلطان سليمان كتابا بعث به مع « السيد الحاج محمد العنابى ، قاضى السادة الحنفية رسولا » . وقد ذهب ابن العنابى شخصيا الى المغرب وسلم مكتوب الباشا الى السلطان ، « وبعد ان استراح التقى مع السلطان فأحسن اليه » ، وجهزه ببعض المراكب « واعطاه اموالا وأمره بتسليمها للمجاهدين » . وعاد

---

(19) عبد الجليل التميمى ( بحوث ووثائق فى التاريخ المغربى ) تونس ، 1972 ، ص 255 ولم يستطع التميمى قراءة تاريخ الختم ، ونرجح ان يكون سنة 1232 لوجوده فى مكان آخر كذلك . ويذكر أحمد توفيق المدنى فى ( مذكرات ) الزهار ص 128 ان ابن العنابى قد تولى القضاء الحنفى لنفس الباشا ، وكان آخر قضاته قبل وفاته . اما التميمى فيذكر ص 255 ان القاضى الحنفى كان يدعى سليمان بن محمد وأن المفتى الحنفى كان يدعى محمد بن أحمد . ولعل قصر مدة التولية لهؤلاء هى التى سببت هذا الغموض .

(20) هى حملة اللورد اكسموث الشهيرة ، وقد فصلها قنصل بريطانيا فى الجزائر الضابط بليفير فى كتابه ( جلادة المسيحية ) ، لندن ، 1884 ، ص 250 ـ 280 . انظر كذلك عبد الجليل التميمى « وثائق تركية غير منشورة عن ضرب مدينة الجزائر » سنة 1816 فى ( مجلة الغرب الاسلامى والبحر الابيض ) ، رقم 5 ، سنة 1968 ص 111 ـ 133 .

ابن العنابى بذلك الى الجزائر ، فكانت سفارته ناجحة ، على الاقل اذا حكمنا من نتائجها • (21)

وهكذا يتضح ان ابن العنابى لم يكن مجرد عالم بالفقه وما اليه من العلوم الشرعية بل كان أيضا دبلوماسيا ناجحا وخبيرا بشؤون الدول • ولعل سفارته الى المغرب لم تكن أول خروج له من الجزائر فقد استعملت عبارة ( الحاج ) مع اسمه قبل ذلك • ومعنى هذا انه قد يكون حج خلال سنوات 1808 ــ 1815 • والحج عندئذ ليس مجرد اداء للفريضة ، ولكنه تعلم وتعليم ، وسياحة واطلاع ، ومشاركة فى كثير من جوانب الحياة السياسية والاقتصادية • فماذا كان نصيب ابن العنابى من كل ذلك خلال حجه ؟ ذلك ما سيظهر عندما نعالج محتوى كتابه •

اما الآن فحسبنا ان نتتبع نشاطه فى الجزائر الى سنة 1830 وهو تاريخ احتلال فرنسا للجزائر وتاريخ فصل جديد من حياة المؤلف • ذلك ان وثائق سنوات 1817 ــ 1819 تتحدث عنه كقاضى الاحناف فى الجزائر زمن الداى على خوجة (1232 ــ 1817) والداى حسين باشا (1233 ــ 1818) • فقد جاء فى احدى الوثائق ان ابن العنابى ، قاضى الحنفية ، قد وضع ختمه بتاريخ 1232 (1817) ضمن قائمة وزراء وموظفى الداى على خوجة فى رسالة بعث بها الداى الى السلطان محمود الثانى (22) • وورد فى وثيقة أخرى ان أول قاضى حنفى لدى الداى حسين باشا هو محمد بن محمود العنابى (23) • فاذا عرفنا ان هذا الداى قد تولى سنة 1233 (1818) وانه قد ولى قاضيا حنفيا جديدا سنة 1235 (1820) (24) عرفنا ان ابن العنابى قد يكون توجه الى المشرق خلال سنوات 1235 ــ 1244 والمهم هو ان هذه الفترة من حياته غامضة • ذلك اننا سنعرف ان كتابه (السعى المحمود)

---

(21) مذكرات ، ص 127 • ويذكر هذا الكاتب ان عهد عمر باشا كان نكبة على البلاد ، فقد حل بها الجراد والوباء وغلاء المعيشة ، وحملة الانكليز ، وموت القبطان ( الريس ) حميد وفى معركة ضد الاسطول الامريكى ، بالاضافة الى ان هذا الباشا كان سفاكا للدماء •

(22) التميمى ، بحوث ، ص 260 •

(23) مذكرات ، ص 182 •

(24) جواخيم قونزاليز ( مشاهير مسلمى مدينة الجزائر ) الجزائر ، 1886 ، ص 57 • انظر كذلك نور الدين عبد القادر ، ( صفحات من تاريخ مدينة الجزائر ) ، الجزائر 1964 ، ص 187 ــ 188 •

مكتوب سنة 1242 (1826) وان اسمه يذكر عندئذ مقرونا بعبارة « نزيل مصر القاهرة » فهل كان مغضوبا عليه سياسيا ؟ أو هل ذهب الى الحج مرة ثانية واطال الاقامة بالمشرق، وخاصة بمصر التى دفن فيها كل من والده وجده ؟ أو هل ذهب فى مهمة لدى محمد على فى عهد حسين باشا كما ذهب فى مهمة لدى سلطان المغرب ؟ أو هل اخذته قدماه الى الآستانة فى مهمة لدى السلطان محمود الثانى الذى سنجده يتحدث عن مآثره ومآثر اجداده فى كتابه ؟ كل هذه اسئلة يمكن طرحها فى هذا المجال ما دام الغموض يكتنف هذه الفترة من حياته . وسيظل الجواب على هذه الاسئلة مرهونا باكتشاف ما تضمره الايام عنه .

وعلى كل حال فان ابن العنابى لم يكتب سنة 1242 كتابه ( السعى المحمود ) فقط ، بل نجده يقيم فى مصر ويختلف الى الجامع الازهر ، ويأتيه العلماء للدرس « وروما للثواب » ويقوم هو باجازة المستجيزين واجابة الداعين . فقد كتب ( السعى المحمود ) فى شهر رجب من السنة المذكورة واجاز الشيخ ابراهيم السقافى شهر شعبان ، كما اجاز الشيخ عبد القادر الرافعى فى رمضان من نفس السنة . ومعنى هذا ان ابن العنابى قد تصدر لتدريس الحديث والفقه فى الازهر والتف حوله تلاميذ وعلماء .

ومما جاء فى اجازته لتلميذه ابراهيم السقا ما يلى : « وقد قرأ على الشيخ الامام الفاضل ابن الحسن ابراهيم بن على بن حسن المعروف بالسقا ... جل صحيح البخارى الى باب الاحتباء من كتاب اللباس . وسمع ذلك الشيخ الامام ابو العباس أحمد بن يوسف القنواتى (؟) امام الجامع الازهر والشيخ الامام ابو زيد عبد الرحمن بن عثمان الدمياطى الغمراوى الشافعى ... (25) وابراهيم بن حسن الكردى الشافعى ... » وختمها بقوله « قال هذا وكتبه الفقير اليه سبحانه محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائرى الحنفى الشهير ببلده بابن العنابى ... بتاريخ خامس شعبان سنة 1242 » .

(25) بين الاسمين يوجد بياض فى الاصل المنقول عنه .

اما الاجازة الثانية فهى اجازته للشيخ عبد القادر الرافعى • وهى كالسابقة باستثناء بعض التفاصيل وقد قرأ عليه هذا اوائل كتب الحديث وغيرها واجازه اجازة عامة• ووضع بأسفل الاجازة خاتمه وهو « منتظر لطف الودود عبده محمد بن محمود 1232 » (26) •

ولاشك ان لابن العنابى تلاميذ آخرين أجازهم ، أو قرأوا عليه • وسنعرف ان كتابه ( السعى المحمود ) كان نفسه عبارة عن جواب لاحد السائلين ممن جمعته معه حلقة درس أو جلسة سمر •

ولكننا نجد اسم ابن العنابى فى الجزائر من جديد بعد سنة 1244 (1829) • فبعد تولية الشيخ أحمد بن ابراهيم ، المذكور سابقا ، يأتى المفتون : محمد بن عبد الرحمن ( بدون تاريخ ) وأحمد بن عمر بن مصطفى ( سنة 1244 ـ 1829 ) ومحمد بن محمود ( بدون كلمة العنابى وبدون تحديد تاريخ ) ، ويرد بعده اسم مصطفى أفندى (27) ( بدون تاريخ أيضا ) ثم محمد بن شعبان (سنة 1251 ـ 1835) (28) • فمتى عاد ابن العنابى الى الجزائر ؟ وكيف تولى الافتاء من جديد ؟ وهل تولاه فعلا ؟ أسئلة أخرى ليس من السهل الاجابة عليها الآن لعدم توفر المادة • ومما يزيد الامر تعقيدا ان المؤرخين يذكرون بعض الحوادث التى جرت فى الاسابيع الاولى للاحتلال وورد خلالها اسم ابن العنابى •

وليس من المؤكد الآن ان المفتى الحنفى وقت دخول الفرنسيين للجزائر كان هو ابن العنابى • فقد عرفنا اسماء عدد من المفتين تولوا فى الفترة القصيرة من 1244 (1828) الى 1251 (1835) من بينهم ابن العنابى، مع اغفال تواريخ تعيين بعضهم • وهذا الغموض فى تلك الفترة الدقيقة لا يساعد على فهم الحوادث التى سيرد فيها اسم ابن العنابى •

(26) هذا يدل على انه شخصيا كان يختصر اسمه ويكتفى بمحمد بن محمود • كما ان التاريخ المذكور قد يكون هو الذى لم يستطع التميمى قراءته فى وثيقة أخرى •

(27) حسب احمد توفيق المدنى انه هو مصطفى بن الكبابطى « الذى وقعت الكارثة ( الاحتلال ) فى عهده » . ولكن المعروف ان هذا كان مفتى المالكية وانه هو الذى نفاه الفرنسيون سنة 1843 ، وليس وقت الاحتلال • انظر ( مذكرات ) ، ص 183 •

(28) انظر نور الدين ، ص 187 ـ 188 ، وفونزاليز ، ص 57 ، وكذلك ( بمذكرات ) ، ص 182 •

ومن هذا الغموض أيضا ان وظيفة المفتى الحنفى قد تعرضت الى تقلبات خلال السنة الاولى من الاحتلال مع عدم ذكر اسم المفتى المعنى بالامر · فقد جاء فى اخبار الحملة الفرنسية على الجزائر ان الداى حسين باشا قد عزل ، فى آخر لحظـــة قبل دخول الفرنسيين ، المفتى الحنفى « التركى » وعين بدله مفتيا عربيا من أهل البلاد آملا ان يكون ذلـــك سببا فى التفاف الجزائريين حوله فى مقاومته للجيش الفرنسى · فمن هو المفتى المعزول ؟ ومن هو المفتى الجديد ؟ هذه نقطة تظل بدون جواب أيضا · كذلك تتحدث الاخبار عن ان الباشا قد استدعى ، بعد هزيمة جيشه فى فى واقعة سطاولى ، « المفتى الحنفى ، شيخ الاسلام » وسلمه سيفا وطلب منه ان يدعو الناس للجهاد دفاعا عن البلاد (29) · ولكن هذه الاخبار لا تذكر اسم هذا المفتى سيء الحظ الذى وضعته الاقدار فى مفترق الطرق (30) ·

وفى العهد الاول للجنرال كلوزيل (31) ظهر اسم ابن العنابى من جديد · فقد كان هذا المفتى موضع شبهة السلطات الفرنسية منذ دخولها ، وكانت العلاقات متوترة بينهما، وتازم الموقف بين الطرفين فحيكت له مؤامرة قرر أثرها كلوزيل سجن المفتى ثم نفيــه خلال مدة قصيرة · ويبدأ هذا التوتر ، حسب اخبار الحملة الفرنسية على الجزائر ، حينما اجبر كلوزيل المفتى على تسليمه بعض المساجد فى المدينة لجعلها مستشفيات للجيش ، متعهدا له باستعمالها مدة شهرين فقط (32) · وكان ابن العنابى شديد النقد للسلطات الفرنسية على خرقها للاتفاق الموقع بين الداى حسين باشا والكونت دى بورمون · وكان

---

(29) حمدان خوجة ، ( المرآة ) ترجمة العربى الزبيرى ، الجزائر ، 1975 ، ص 198 · أنظـــر بيليسييه ديرينو ( الحوليات الجزائرية ) ، ج 1 ، باريس ، 1854 ، ط 2 ، ص 53 · وكذلك ابو القاسم سعد الله ، ( تاريخ الجزائر الحديث ، بداية الاحتلال ) ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1970 ، ص 69 ـ 71 ·

(30) يذكر خوجة أيضا ان بورمون ، قائد الحملة الفرنسية على الجزائر ، وقد وشى له بالقاضى الحنفى ( ولم يذكر اسمه ) فنفاه · ص 229 · فمن يكون هذا القاضى ؟ ·

(31) تولى الجنرال كلوزيل قيادة الادارة الفرنسيـــة فى الجزائـــر مرتـــين الاولى ( 1830 ـ 1831 ) ، والثانية ( 1835 ـ 1836 ) · وكان شديد الحماس للاستعمار ، ولذلك شن حملة ضد الجزائريين المعارضين للاحتلال الفرنسى فنفى بعضهم الى المشرق ونفى آخرين الى فرنسا ، وشرد وسجن الباقى فى الجزائر نفسها ·

(32) خوجة ، ص 250 ·

يكتب بنقده ولومه الى الجنرال كلوزيل (33) • وضاق كلوزيل ذرعا بجرأة المفتى فقرر وضع حد لها • فقد القى عليه رجال الدرك القبض وقادوه الى السجن وتعرضت أسرته خلال ذلك الى المهانة (34) • وكانت التهمة التى وجهت اليه هى تدبير مؤامرة ضد الوجود الفرنسى واعادة الحكم الاسلامى ( العثمانى ) للجزائر • وتروى المصادر الفرنسية ان المخبرين قد وشوشوا فى أذن كلوزيل بأن المفتى الحنفى لمدينة الجزائر رجل خطير على الوجود الفرنسى وأن له تاثيرا قويا على أهل البلاد • وهذا ما ادعاه لنفسه (35) • ويعلق ديرينو على ذلك بأن المفتى لم يكن له ذلك التأثير المشار اليه • اما حمدان خوجة الجزائرى فيفصل الحادثة ، حسبما رواها له المفتى نفسه ، فيما يلى : جاء الترجمان الى منزل ابن العنابى وطرح عليه بعض الاسئلة تتعلق بمكانته فى البلاد وخططه المستقبلة • من ذلك ان الترجمان أخبره بأن كلوزيل ينوى الجلاء عن الجزائر وتسليم الحكم له ، وسأله ما اذا كانت لديه القدرة على تنظيم جيش والدفاع عن البلاد ، فأجابه المفتى بأن ذلك فى استطاعته اذا اقتضى الامر • ثم سأله الترجمان هل جيشه سيكون من داخل البلاد أو من مدينة الجزائر وحدها ، فأجاب المفتى بانه سيجيش جيشا يبلغ ثلاثين الفا من كل البلاد • وكان الترجمان قد اخفى ، حسب هذه الرواية ، شخصين ظلا ينصتان لهذه المحادثة ، ليكونا شاهدين ضد المفتى (36) •

فكم بقى ابن العنابى فى السجن ؟ هذا ما لا نعلمه الآن • والذى نعلمه حقا هو ان كلوزيل قد أمر بنفيه فورا (37) ، ولم يمهله ، رغم انه كان صاحب اسرة واطفال وأملاك

(33) نفس المصدر ، ص 259 •

(34) يستعمل خوجة ، نفس المصدر ، عبارة « وتعرضت اسرته لجميع الاهانات بحجة انها كانت تدبر مؤامرة يا ترى ما الجناية التى يمكن اسنادها للنساء والاطفال » ؟ • وهذا برهان على انه كان للمفتى اسرة كبيرة ومتفرعة • وقد يكون بين المفتى وخوجة مصاهرة •

(35) ديرينو ، ص 155 ــ 156 • وسعد الله ، ص 69 ــ 71 • ويقول خوجة بأنه سأل كلوزيل عن التهمة الموجهة الى المفتى فأجابه بأنه كان يعد القبائل للثورة ضد الفرنسيين ، خوجة ، ص 259 •

(36) خوجة ، ص 260 •

(37) يؤكد المهدى البعبدلى فى رسالته الى المؤلف ان المفتى كان يباشر وظيفته عند دخول الفرنسيين وان كلوزيل قد « عزله » منها • وهذا يؤكد أهمية دور ابن العنابى فى تلك الظروف •

وديون وغيرها مما يستوجب مهلة معقولة لتصفية هذه الامور قبل مغادرة البلاد · وهذا الجانب الانسانى هو الذى جعل خوجة يتدخل لدى كلوزيل لصالح المفتى ، رغم توجس هذا منه (38) · فقد رجاه ان يمهله حتى يبيع املاكه ويصفى ديونه ويسفر أسرته · ولم يحصل له خوجة على مهلة عشرين يوما الا بصعوبة كبيرة · وبعد انقضاء ذلك الاجل رحل ابن العنابى الى الاسكندرية (39) · ولا شك ان سفر المفتى كان بحرا · ورغم ان تاريخ النفى غير معروف الآن بالضبط فانه بدون شك كان فى خريف أو شتاء سنة 1830 ـ 1831 لان كلوزيل قد تولى مهمته فى الجزائر خلال سبتمبر سنة 1830 ·

وبنفى ابن العنابى من الجزائر أسدل الستار على نشاطه فيها · فقد توجه بأسرته الى مصر واقام بالاسكندرية ، وهناك ولاه محمد على وظيفة الفتوى الحنفية بهذه المدينة ، ولذلك نجد اسمه مقرونا بعد حادثة النفى بعبارة « مفتى ثغر الاسكندرية » · والملاحظ ان بعض العائلات الجزائرية الاخرى قد هاجرت أو نفيت أيضا الى الاسكندرية · من ذلك المفتى ابن الكبابطى ، والداى حسين باشا نفسه ، ومصطفى بومزراق باى التيطرى السابق ، والباى حسن ، باى وهران السابق الخ ··· وقد قيل أن أسرة ابن العنابى ما زالت بالاسكندرية الى اليوم وتعرف بأسرة الجزائرلى (40) ·

* * *

لم يعرف عن ابن العنابى أنه كان من المؤلفين المكثرين · فاغلب المصادر لا تذكر له سوى ( السعى المحمود ) الذى نحن بصدده (41) · و ( ثبته ) المذكور ، أو اجازته لتلميذه ابراهيم السقا. وقد عرفنا أن له اجازة أخرى مشابهة لتلميذه عبد القادر الرافعى. وعثرنا له على رسالة فى مسالة توحيد كنا قد أشرنا اليها أيضا · والظاهر انه ما كان مقلا فى التاليف كان مكثرا فى الفتاوى · وقد اشتهر بذلك حتى ان بعض العلماء

(38) يقول خوجة ، ص 198 ، ان الواشين قد زعموا للمفتى بأن خوجة عميل للفرنسيين لانه زار بلادهم واعجب بحضارتهم ، واوصوه بالاحتراس منه ·
(39) خوجة ، ص 261 ، ورسالة البوعبدلى ، وابن عبد الكريم ، ص 161 ·
(40) رسالة البوعبدلى الى المؤلف ·
(41) سنذكر بعض النسخ الموجودة من هذا الكتاب عند الحديث عنه ·

الجزائريين ، كالمفتى حميدة العمالى ، كان ينقل فتاويه بنصها فى ( كناشه ) (42) • وكان ابن العنابى يوقع فتاويه ، وهو بالاسكندرية ، هكذا « مفتى السادة الحنفية بثغر الاسكندرية » • وقد عرفنا ان الدايات كانوا يستكتبونه فى المسائل السياسية أيضا • ولا شك ان بعض رسائله فى ذلك ما زالت مدفونة فى دور الوثائق ( الارشيف ) • ولعل له بعض الاعمال الاخرى التى لم نهتد اليها بعد • ومما يذكر أن مؤلف ( الاعلام ) قد عثر له على نموذج من خطه ، على (ثبت الجوهرى) فى دار الكتب المصرية (43) • ولا ندرى ماذا كتب ابن العنابى هناك ولا كمية ما كتبه •

ولكن اذا كان التأليف قليلا عند ابن العنابى فان تلاميذه كثيرون • وقد عرفنا منهم على الاقل اثنين ، ( الرافعى والسقا ) والاخير هو الذى اختصر كتاب شيخه لمحمد على ، كما سنرى • واذا كنا لا ندرى ان ابن العنابى قد تصدر للتدريس فى بلاده بالجامع الكبير أو الجامع الجديد ، فاننا قد عرفنا أنه جلس للتدريس فى الجامع الازهر وكانت حلقة درسه موئل العلماء على اختلاف مستوياتهم • وجاء فى رسالة الشيخ المهدى البوعبدلى (44) ان ابن العنابى قد « روى عنه الكثير من اعلام المشرق والمغرب لما كان فى الاسكندرية » ، ونحن لا نشك فى ان تلاميذه بالجزائر قد يفوقون عدا تلاميذه فى المشرق لطول اقامته بها وارتفاع شأنه فيها •

وباشارة من محمد على ، والى مصر ، اختصر ابراهيم السقا (45) ، تلميذ ابن العنابى ،

(42) رسالة البوعبدلى الى المؤلف • وحميدة العمالى كان مفتى المالكية فى الجزائر مدة طويلة • انظر صورته فى ( التقويم الجزائرى ) للشيخ محمود كحول سنوات 1911 ـ 1913 ، ولا اذكر الآن فى أية سنة توجد صورته • وفى مراسلة راسلنى بها الشيخ المهدى البوعبدلى بتاريخ 3 ديسمبر 1971 حديث عنه وعن علاقته بالطيب ابن المختار وغيره من علماء الجزائر والمغرب • انظر عنه دراستنا « مدارس الثقافة العربية فى الجزائر خلال الاحتلال الفرنسى » فى ( مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ) راجع أيضا أبو القاسم الحفناوى ، تعريف الخلف برجال السلف ، جزآن ، الجزائر ، 1906 ـ 1907 • ج 2 ، ص 526 ـ 529 • وفيه ان وفاة العمالى كانت سنة 1876 ـ 1877 •

(43) الاعلام ، II ـ الخطوط والصور ، 2 ، رقم 1279 •

(44) من رسالة الى المؤلف •

(45) توفى سنة 1298 ( 1881 ) ، انظر بروكلمان ، ملحق 2 ، ص 739 • انظر كذلك مقالة لعيسى اسكندر المعلوف عن نفائس المخطوطات بالخزانة التيمورية ، فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، م 3 ( نوفمبر ـ ديسمبر ، 1923 ) ، ص 365 •

كتاب ( السعى المحمود ) وسمى المختصر هكذا ( بلوغ المقصود مختصر السعى المحمود )٠ ولا شك ان محمد على قد فعل ذلك لاهمية الكتاب الاصلى التى سنتحدث عنها ، ولكونه محشوا بشواهد واستطرادات مملة للقارىء العادى الذى يهمه الرأى والفكرة أكثر مما يهمه التثبت والتعليل ٠ وقد وقفت شخصيا على نسخة من ( بلـــوغ المقصـــود ) (46) فوجدته يحتوى على 68 صفحة ومكتوبا بخط نسخ جيد ٠ والنسخة التى وقفنا عليهـــا تحمل تاريخ سنة 1308، وهو بلا شك ليس تاريخ اختصار الكتاب وانما هو تاريخ نسخة أخرى منه ٠ ونعتقد ان ابراهيم السقا قد اختصر كتاب شيخه بعد تأليف الاصل بقليل، أى بعد سنة 1242 (1826) ، لانها هى الفترة التى تليق بموضوع الكتاب الذى سنتحدث عنه ٠ وقد وجدت اسم الناسخ (لبلوغ المقصود) هكذا « تم هذا الكتاب ٠٠٠ على يد ٠٠٠ أحمد عبد رب النبى المغبى (كذا) بلدا الشافعى مذهبا ٠٠٠ يوم الاحد المبارك 23 ٠٠٠ المحرم سنة 1308 » ٠ اما اسم ابن العنابى فى هذه النسخة فقد ورد على النحو التـالى « كشاف الحقائق ، ومنبع الرقائق ، شيخنا المحفوف باللطف الخفى ، محمد بن محمـود ابن محمد الجزائرى الحنفى » (47) ٠ والغالب على الظن ان هذه العبارة هى من وضـع ابراهيم السقا وليس من وضع الناسخ ٠ والملاحظ ان النسخة التى اطلعنا عليها مـن ( بلوغ المقصود ) تضم تعاليق مطولة فى معنى الايات والاحاديث والكتب والمعانى الواردة فى صلب المختصر ، ولا تضيف جديدا للفكرة الاساسية التى انطلق منها المؤلف الاصلى ٠ والملاحظة الاخيرة التى نبديها حول ( بلوغ المقصود ) انه قد جاء فى آخره اضافة وصف « الشافعى » أمام اسم ابن العنابى ٠ فقد جاء هناك « قال اصله قال جامعه الفقـير اليه سبحانه محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائرى الحنفى الشافعى (48) ، الشهير ببلده بابن القبانى (كـذا) ، نزيل مصر القـاهرة ، فرغت من جمعه سنة 1242 ، رابـع عشر رجب هجرية » ٠

(46) دار الكتب المصرية ، الخزانة التيمورية ، فروسية رقم 31 ٠

(47) بلوغ المقصود ، ص 2 ٠

(48) الظاهر ان ذلك سهو من الناسخ ، وان كان شائعا لدى العلماء الانتقال من مذهب الى آخر ٠ كما سها نفس الناسخ فى كتابة القبانى بدل العنابى ٠

وقد اختلفت الآراء حول شخصية ابن العنابى · فقد عرفنا وصف تلاميذه له من كونه شخصا يتبرك به ويرام الثواب عنده · وجاء فى نسخة ( السعى المحمود ) التى سندرسها انه « شيخنا واستاذنا العالم الربانى » · ووصفه السقا فى ( بلوغ المقصود ) « بكشاف الحقائق ، ومنبع الرقائق والدقائق ، شيخنا المحفوف باللطف الخفى الخ » · وتوافق هذه الاوصاف المصطبغة بالمشاعر الدينية والصوفية الاوصاف التى اطلقها عليه معاصروه ومواطنه حمدان بن عثمان خوجة ، وهو رجل سياسى واقتصادى · فقد لاحظ خوجة على تكليف الباشا للمفتى ( اذا صح انه ابن العنابى ) بالدعوة الى الجهاد ابان الحملة الفرنسية بأن المفتى كان رجلا صالحا وعادلا ولكنه لم يكن محاربا (49) · ويتفق هذا الحكم تقريبا مع حكم ديرينو الفرنسى المعاصر له أيضا (50) · وعندما تقرر نفى ابن العنابى من الجزائر كتب خوجة « كان المفتى سيدى محمد العنابى رجلا نزيها وفاضلا ··· كان يكتب دائما الى كلوزيل يلومه على تصرفاته التى كانت تبدو له مخالفة لوثيقة الاستسلام » (51) · وقد عرفنا انه كان محل ثقة لبعض دايات الجزائر الذين كلفوه بسفارة للمغرب واستكتبوه لباى تونس ، كما اصبح محل ثقة محمد على الذى عينه مفتى الحنفية بالاسكندرية (52) ·

وهكذا يتضح ان ابن العنابى كان شخصية مرموقة بين قومه فى عصره · ويمكن تقسيم دوره الى دينى وسياسى · فالدور الدينى لعبه وهو يباشر وظيفة الافتاء ويتصدر للتدريس ويمنح الاجازات لتلاميذه والمعجبين بعلمه · اما الدور السياسى فيتمثل فى صلته بدايات الجزائر وفى موقفه من الاحتلال الفرنسى لبلاده وفى اشادته بدولة آل عثمان ( وسنعرف هذا منه ) وتوليه وظيفة الافتاء بمصر باعتباره عالما منفيا لاسباب سياسية · ويضاف الى ذلك دوره الفكرى ، وهو الذى يظهر فيما طرحه فى كتابه ( السعى المحمود )

(49) خوجة ، ص 198 ·
(50) ديرينو ، ص 53 ·
(51) خوجة ، ص 259 · أيضا ديرينو ، ص 155 ــ 156 ، وسعد الله ، ص 69 ــ 71 ·
(52) احتضنت مصر منذ القديم علماء الجزائر ، ومنهم احمد المقرى صاحب ( النفح ) ويحيى الشاوى ، واقام فيها ابن عمار ، والمقايسى ، وبوراس · وفى العهد الفرنسى ابن العنابى والكبابطى · وهناك غيرهم كثيرون ، سيما منذ فاتح القرن الحالى ·

من آراء فى الحضارة الغربية وضرورة أخذ المسلمين منها ما يرقيهم وينسجم مع شريعتهم ٠ واذا كنا قد تعرضنا الى دوره الاول والثانى ، فقد بقى علينا ان ندرس دوره الثالث ٠

* * *

**ثانيا ـ كتاب ( السعى المحمود ) :**

النسخة التى اعتمدنا عليها فى هذه الدراسة تحمل عنوان ( السعى المحمود فى نظام الجنود ) ٠ ولكن تعدد النسخ من هذا الكتاب جعل عنوانه يتغير قليلا من نسخة الى أخرى ٠ ونفس العنوان تحمله نسختا اسطانبول (53) ، وكذلك نسخة محمد ابن عبد الكريم (54) ٠ اما بروكلمان فقد اورد كلمة « تاليف » بدل « نظام » (55) ، وسار الزركلى فى ( الاعلام ) على نفس النمط (56) ٠ واورد عيسى اسكندر المعلوف أيضا كلمة « تاليف » بدل « نظام » نقلا عن نسخة الخزانة التيمورية (57) ٠ ولكننا اطلعنا على نسخة فى الخزانة التيمورية فاذا عنوان الكتاب فيها هكذا ( السعى المحمود فى تاليف العساكر والجنود ) (58) ٠ وانفردت المكتبة البلدية بالاسكندرية باعطاء الكتاب عنوانا فيه تصرف كبير ، فقد جاء فى فهرستها ان لابن العنابى ( رسالة فى نظام العساكر الاسلامية ) (59) ٠ ويبدو ان هذا عنوان وضعه صاحب الفهرس ، وليس العنوان الاصلى للكتاب ٠ اما ابراهيم السقا ، تلميذ المؤلف ، ومختصر الكتاب فقد جعل

---

(53) محمد بن عبد الكريم ، مخطوطات جزائرية فى مكتبات اسطنبول ٠ دار مكتبة الحياة ، بيروت 1972 ، ص 159 ٠ فقد ذكر له نسختين ، الاولى بالمكتبة السليمانية ، قسم شهيد على باشا، رقم 1275 ، وتقع فى 182 صفحة ٠ والثانية بنفس المكان، قسم اسعد افندى، رقم 1885 ، وتقع فى 140 صفحة ٠

(54) من نسخة صور لى منها مشكورا صفحة العنوان ٠ ولا ادرى مصدرها، ولعلها صورة لاحدى النسختين المذكورتين فى التعليق السابق (53) ٠

(55) بروكلمان ، ملحق ، 2 ، ص 739 ٠

(56) الاعلام ، 7 ، ص 311 ٠

(57) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، م 3 ، ( نوفمبر ـ ديسمبر 1923 ) ، ص 364 ـ 365 ٠

(58) دار الكتب المصرية ، الخزانة التيمورية ، مخطوط رقم 1 ضمن مجموع ، رقم 219 ٠

(59) فهرس المكتبة البلدية بالاسكندرية ، 4562 ج ، والمخطوط رقم 1 ضمن مجموع يحمل الرقم السابق ٠

عنوان مختصره هكذا ( بلوغ المقصود مختصر السعى المحمود فى تاليف العساكر والجنود ) (60) ، وهذا العنوان لكتاب ابن العنابى ينسجم مع النسخة التيمورية التى اطلعنا عليها ٠

ويتبين مما سبق ان كتاب ابن العنابى قد تعددت نسخه وانه سافر من مصر الى اسطانبول ٠ والغريب فى الامر اننا لا نجد ، حسب علمنا ، نسخة منه فى فهارس مخطوطات الجزائر٠اما النسخة التى اعتمدنا عليها فهى نسخة سوهاج (مصر) المصورة لدى مكتبة معهد المخطوطات العربية بالجامعة العربية ٠ وهى موجودة فى قسم « فنون حربية وفروسية » ٠ اما فى مكتبة سوهاج نفسها فالنسخة موضوعة فى قسم « الادب » ٠ ومقاسها 17 × 23 سم ٠ وخطها رقعى جيد ٠ وهى من نسخ السيد محمد الشربينى وبدون تاريخ ، وعدد صفحاتها 120 صفحة (61) ٠ ولو كنا بصدد تحقيق هذه النسخة لقابلناها ببعض النسخ المشار اليها ، ولكن هذا ليس من هدفنا الآن ٠ ولذلك نكتفى منها بهذا التعريف القصير ٠ وما دمنا قد اطلعنا على نسخة أخرى فى المكتبة التيمورية فلنشر الى انها بخط رقعى جيد ، ومنسوخة فى جمادى الآخرة سنة 1268 (1852) أى سنة بعد وفاة المؤلف ، ولا وجود فيها لاسم ناسخها ، وتقع فى 145 صفحة ٠ وفيها ان المؤلف من علماء القرن الثالث عشر وان الكتاب « فى فضل الجهاد وجواز تنظيم الجند على النظام الجديد » (62) ٠ والملاحظ انها ، بالرغم من نسخها سنة 1268 ، فان اسم المؤلف لا يقترن بعبارة « المرحوم » ٠ وبدلا من ذلك وردت معه عبارة « نفعنا الله ببركته » ٠ فهل معنى هذاانه كان ما يزال عندئذ حيا ؟

ولكن ما مكان وزمان تاليف هذا الكتاب ؟ اما المكان فالغالب على الظن انه القاهرة ، لسببين :

---

(60) أنظر تعليق رقم (46) ٠

(61) تحمل النسخة فى مكتبة سوهاج رقم 678 ٠ اما فى مصورات معهد المخطوطات العربية فتحمل رقم 22 فى الجزء الرابع الخاص بالمعارف العامة والفنون المتنوعة ٠ وعندى صورة منها على الميكروفيلم ٠

(62) انظر التعليق رقم (58) ٠

الاول : ان اسم المؤلف فى جميع النسخ يأتى مقرونا بعبارة « نزيل مصر القاهرة » ·

والثانى : اننا قد عرفنا ان ابن العنابى قد تصدر للتدريس فى الازهر وأجاز بعض العلماء فى نفس التاريخ الذى ألف فيه الكتاب · ومعنى هذا ان المؤلف كتب كتابه فى القاهرة اثناء اقامة بها غير محددة وان ذلك كان قبـل استيطانه اذسكندرية منفيا من الجزائر · واما زمان تأليف الكتاب فمن المؤكد ان المؤلف فرغ منه فى سنة 1242 (1826) لانه قد ضبط ذلك بنفسه بالحروف والارقام · غيران نسخة محمد بن عبد الكريم تضيف تاريخا محيرا (63)، فقد جاء فى صفحة العنوان بعد ذكر اسم المؤلف «نزيل مصر القاهرة» الموجود سنة 1245 · فما معنى كلمة « موجود » هنا ؟ هل تدل على كونه موجـودا فى القاهرة أو موجودا على قيد الحياة ؟ ووجه الحـيرة من هذا التاريخ هو اننا قد عرفنا ان ابن العنابى كان موجودا ضمن قائمة من تولى الافتاء فى الجزائر بعد سنة 1244 · فكيف نوفق بين وجوده فى القاهرة ، مثلا ، ووجوده فى الجزائر ؟ الواقع انه لا جواب لدينـا الآن على هذه النقطة ·

ان عقد العشرينات من القرن الماضى يمثل نقطة تحول فى تاريخ الدولة العثمانية · فبالاضافة الى المسألة الشرقية القديمة هناك الحروب ضد روسيا ، وثورة اليونـان ، والثورة الوهابية ، وتهديد محمد على ، وضياع الجزائر · ولكن القضية التى تمس خاصة موضوع كتاب ابن العنابى هى ذلك النزاع الطويل والخطير الذى كان بين السلطان محمود الثانى وفرقة الانكشارية ، وهو النزاع الذى انتهى بالقضاء نهائيا على هذه الفرقة سنة 1826 ، وهى السنة التى ألف فيها ابن العنابى كتابه · وكان مصدر ذلك النزاع هـو رغبة السلطان فى ادخال النظم الاوروبية الحديثة على جيشه بعد الهزائم التى منى بهـا على يد الروس خاصة ، بينما كانت فرقة الانكشارية وانصارها يعارضون ذلك اشـد المعارضة بدعوى انه مخالف للشريعة الاسلامية ·

واذا كان السلطان ما يزال عندئذ يواجه هذه المعارضة فى الاخذ بالنظم الاوروبيـة فان محمد على كان قد تجاوز هذه المرحلة وبدأت تظهر النتائج الايجابية مـن تقليـد

---

(63) انظر التعليق رقم (54) ·

الاوروبيين فى انتصاراته الخارجية وتقدم نظامه فى الداخل · ومن ثمة وجد ابن العنابى الجو ملائما له فى القاهرة ليكتب كتابه ويطرح افكاره بحرية فى قضية خطيرة عندئذ ، كالتى تناولها فى كتابه ، وهى جواز ، بل وجوب ، تعلم الحضارة من الاوروبيين ( أو الكفار كما يسميهم ) · ولعل ذلك يفسر لنا انتقال نسختين من كتابه الى عاصمة الدولة العثمانية التى كانت فى حاجة الى مثل رأيه ، كما يفسر لنا تكليف محمد على للسيد ابراهيم السقا باختصار ( السعى المحمود ) وجعله فى متناول القراء ، لانه كتاب يساير الاتجاه الذى كان هو يعمل بمقتضاه · وقد روى ابن العنابى فى مقدمة كتابه هذه الظروف بشىء من الاختصار · فالاوروبيون ، فى رأيه ، قد نظموا جندهم ليضروا بالاسلام وأهله · وامام هذا الخطر اصبح من المحتم على المسلمين ان يتعلموا منهم ما اخترعوه من صنائع ونظم ، لان فى ذلك مصلحة عليا للدين والامة الاسلامية· فقد قال « لما حدث فى هذه الاعصار الآخرة ، تطاول طغاة الامم الكافرة ، بترتيب اجنادهم على طريقة محكمة ابتدعوها ، وتدريبهم على فنون حيل اخترعوها ، قصد المكيدة للاسلام وأهله ، وسعيا فى استباحة حماه وتمزيق شمله ، ··· عظم الخطب (64) فدعت ضرورة الحال الى استعلام ذلك من قبلهم ، والتدرب على ما ألفوا من صنائع وحيلهم » · وقد أشار ابن العنابى الى ان الدولة العثمانية قد اخذت بهذا النظام الجديد ، وهذا يدل على ان تأليفه كان قريب عهد بحادثة الانكشارية · كما لمح الى ان هذا النظام لم يكن مقبولا لدى الجميع ، وان هناك معارضة له من بعض رجال الدين وبعض الجنود المتمسكين بالنظام القديم ، وحتى من بعض المتزمتين من شرائح المجتمع الاخرى · فقد قال فى هذا المعنى « فرتبت العساكر الاسلامية على نحو من ذلك نظاما جديدا ، وصدر به من جانب السلطنة العلية ، ادام الله تأييدها ، وضيقت ملابس الجند، واختصرت، وفننت ألوانها وقصرت ، فاستكره ذلك اناس ··· » (65) ·

اما الدافع الذى حمل ابن العنابى على وضع هذا الكتاب فالظاهر انه اجابة احد السائلين المستزيدين من آرائه فى الموضوع · ذلك ان موضوع تجديد الجيش والاخذ

(64) هنا كلمات غير مقروءة على الميكروفيلم ·
(65) السعى المحمود ، المقدمة ·

باسباب الحضارة ، أو اذا شئت الخصام بين انصار التقليد والتجديد ، كان على اشـــده خلال عقد العشرينات ، وكان حديث المجالس ، ومدار الدروس ، ولعله كان أيضا مصدر الهمس والنكتة • ومن ذلك ما جرى فى احد المجالس التى حضرها ابن العنـــابى فى القاهرة • وقد نطق اثناء ذلك بكلام جعل بعضهم يرسل اليه ، بعد افتــراق المجلس ، طالبا منه كتابة رسالة فى الموضوع • وهذا نص كلامه فى عبارات مسجعة ثقيلة « وقـد جرى بينى وبين افاضل الاخوان ، فى مجمع انس جاد به الزمان ، كلام علق منه بباله ، فوجه الى خطابه بكتابة جواب على منواله ، فلزمنى ان اسعفه بما رام ، وازيده بسطــا يناسب المقام ، فاقول فى جوابه ، متلذذا بتجديد خطابه » • (66)

ولكن هذا دافع تقليدى لتاليف الكتاب ، فالمؤلفون كثيرا ما يخلقون شخصا يطلب منهم أو يحثهم على وضع كتاب فى الموضوع الذى اختاروه • فهل كان بطل ابن العنابى حقيقيا أو تصوريا ؟ واذا كان حقيقيا فمن يكون يا ترى ؟ هل هو من اصحاب محمد على نفسه الذى امر فيما بعد ، كما عرفنا ، ابراهيم السقا ، باختصار الكتـــاب ؟ واذا كان تصوريا فهل كان اقتناع ابن العنابى شخصيا بفكرة تجديد الجيش وتقليد الحضــــارة الاوروبية اقتناعا كاملا جعله يقدم على هذا العمل تلقائيا ليدعو الى مذهب التجديـــد الذى آمن بفوائده على دينه وقومه ؟ ومهما يكن بطل ابن العنابى ، حقيقيا أو تصوريـا ، فان اقدام المؤلف على هذا العمل يخدم انصار التجديد عندئذ ، وفيهم السلطان محمود الثانى ومحمد على والى مصر ، كما يخدم نزعة شخصية واضحة لدى ابن العنابى •

ذلك أن ابن العنابى لم يكن شخصية بسيطة ولا ضيق الافق • فقد عرفنا انه مـــن أسرة توارثت القضاء والافتاء ، وكانت قريبة من مقاليد السلطة وذوى النفوذ فى البلاد • وكان هو شخصيا قد تولى ، الى جانب وظائفه الدينية ، بعض المهمات السياسية • وكان قد شاهد اسطول بلاده يتحطم امام الغزو الانكليزى ـ الهولاندى ، وامـام الاسطـول الامريكى فى فترة قصيرة ، ولاحظ مدى الصراع على السلطة لدى ( الوجق ) أو الانكشارية فى الجزائر • وقد تجول فى البلاد الاسلامية فرأى ما عليه حال جيش المغرب الاقصى ، وما عليه حال جيش مصر بقيادة ابراهيم باشا ، وسمع عن انتصارات الاوروبيين عـــلى

(66) نفس المصدر •

انكشارية الدولة العثمانية ، وعاش فى زمن شهد الحروب النابوليونية ومؤتمر فيينا • فهل نستغرب منه بعد ذلك ان يكتب (السعى المحمود) داعيا فيه الى تجديد الجيوش الاسلامية والاستعداد للجهاد الحق على غرار ما كان عليه الجهاد زمن الانتصارات الباهرة ؟ وهل نستغرب منه أيضا تأييده لحججه بالايات والاحاديث وآراء المجتهدين من ائمة الاسلام الاوائل ليبرهن على ان دعوته نابعة من الكتاب والسنة والسلف وانها فى صميم التقاليد الاسلامية ؟ • ومما يلفت النظر ان ابن العنابى يرى ان ما جاء به الاوروبيون من جديد فى نظام الجيش تتلازم فيه الفكرة العسكرية والسياسة للارتباط الوثيق بينهما ، لانه لا جيش بدون حكم ولا حكم بدون جيش • وقد جاء فى نص كلامه ما يلى « اعلم أولا انه قد عرف ان ترتيب نظام الجند على الوجه الذى ابتدعه الكفرة يحصره امران : احدهما أمور حربية ، والثانى أمور سياسية » •

واعتبارا لهذه الفكرة قسم ابن العنابى كتابه الى قسمين رئيسيين ، اطلق على كل منهما عبارة « مقصد » ، وهما : المقصد الاول فى الامور الحربية ، والمقصد الثانى فى الامور السياسية • وفى نهاية الكتاب جاء بخاتمة طرح فيها ما لم يذكره فى المقصدين من افكار • والمقصد الاول هو اساس الكتاب ، فكرة وحجما • اما الافكار فسنتعرض اليها ، واما الحجم فقد خصص له 97 صفحة من مجموع 120 صفحة • وبينما قسم هذا المقصد الى ستة عشر فصلا ، اكتفى فى المقصد الثانى بايراد افكاره دون منهج • مهملا استعمال الفصول • وهذه الخطة تنسجم تماما مع عنوان الكتاب الذى يجعله خاصا بنظام الجند ، أى بالامور الحربية • واذا كان هذا صحيحا فان اشتمال الكتاب على قسم خاص بالامور السياسية يصبح خارجا عن الموضوع • غير اننا سنعرف لماذا جاء المؤلف بهذا القسم فى آخر الكتاب •

ولنذكر الآن عناوين الفصول الواردة ضمن المقصد الاول ( الامور الحربية ) ، ثم نعود اليها بشىء من التفصيل ، وقد فضلنا وضع رقم ازاء كل فصل ليعرف القارىء حجم كل فصل من الكتاب :

وبعد هذه الفصول يأتى المقصد الثانى ( الامور السياسية ) وهو من صفحة 99 الى صفحة 111 · اما باقى الصفحات فهو للخاتمة · وقد اعطى المؤلف شبه عنوان للخاتمة أيضا فقال انها « فى أمور شتى من أسباب النصر والقوة » ·

* * *

هذا هو الاطار العام أو الهيكل الذى بنى عليه ابن العنابى كتابه ، فما محتواه ؟ وما الافكار التى بثها فى ثناياه والتى كانت الدافع الحقيقى على تاليفـه ؟ · اننـا نعتقد ان ابن العنابى قد وضع أفكاره الاساسية فى أمكنة ثلاثة من الكتاب · الاول فى مقـــدمة

المقصد الاول ( الامور الحربية ) ، والثانى فى الفصل الرابع عشر الذى اشاد فيه بدور آل عثمان فى التاريخ ، وامتدح رجالهم المعاصرين ، ونصح القائمين منهم من مغبة التهاون والاستبداد · والثالث فى الفصل الاخير ( جواز تعلم العلوم الآلية من الكفرة ) · أما بقية عناصر الكتاب فموضحة أو مكملة لهذه الافكار الاساسية ·

وقد عرف ابن العنابى الامور الحربية بانها كل قوة مادية أو معنوية لردع الاعداء والحط من شأنهم · واعتبر كل ذلك أمرا شرعيا · ومما جاء من كلامه فى هذا المعنى قوله : « نعنى بها كل ما انتج قوة محسوسة أو معقولة على دفاع الاعداء وارهابهم واغاضة نفوسهم واتعابهم » · فكل هذه المعانى أمور شرعية ، لان فيها اذلال الكفرة وعز الاسلام ، وانه المقصود الاعظم من شرعية الجهاد » · فالمؤلف هنا لا يكتفى بتقرير الحقيقة ولكنه يجتهد فيربط بين القوة ونصرة الدين وحكمة الجهاد · ثم توسع فى هذا المعنى واضاف اليه فكرته عن النظام العسكرى الجديد · ولخصه فى ان كل ما يفيد المسلمين ويرفع من شأن الدين فهو شرعى ، ولو جاء ذلك من الاروبيين ، ولو كان مبتدعا منهم غير معروف لاهل الاسلام · ونورد هنا عبارته ، رغم ما فيها من حشو ، اذ أن آخرها هو خبر بدايتها المفصولة بكلام طويل :

« فكل ما يفيد منفعة لها تعلق باعزاز الدين ورفعة أهله ، مما اشتمل عليه النظام المستجد للكفرة من ترتيب العساكر ، وتصفيفهم ، وحصر اعدادهم ، وتعديد قوادهم ، وعرفائهم ، ولتسويم اصنافهم وكبرائهم ، بخصوص لباس أو علامة ، وتضييق ملابسهم ، وتقصيرها ، وتعيين مواقفهم وعملهم ، وتخصيص كل فريق براية أو لواء ، ثم تدريبهم على عمل الحرب لتعليمهم كيفية الرمى والطعن والضرب ، وغير ذلك مما يقتضيه امر الحرب من تصفيف واغارة ، واجتماع وافتراق ، واقدام واحجام ، وكر وفر ، وركوب ونزول ، وظهور وكمون ، وتحريض وتثبيت ، ورفع صوت وخفضه ، ورد منهزم ، وحراسة ، وغير ذلك مما قد تدعو اليه الحاجة فهو أمر مشروع » (67) ·

وكأن ابن العنابى كان يجيب بالحديث التالى سائله ويوضع له اسس الفكرة التى يدعو اليها · فهو يخاطبه بقوله ان الاروبيين اذا اخترعوا عتادا حربيا جديدا قد يضر

(67) نفس المصدر ، ص 3 ·

بالمسلمين فما على هؤلاء الا أن يتعلموه ويحذقوه ، بل عليهم ان يسبقوا فى ذلك أصحاب الاختراع انفسهم . واذا اقتضى الامر عدم تعلم ذلك الاختراع الا منهم وجب على المسلمين ان يتعلموه منهم ما دام ذلك فى قدرتهم ، لانه لا يعقل ان يواجه المسلمون هذا الاختراع الجديد الفتاك بأسلحة بالية غير فعالة . فالتمسك بالتقاليد القديمة فى هذا المجال يلحق بالمسلمين الهزيمة والهوان ، وهو امر ضد الدين وضد الرجولة . وتطوير هذه الفكرة عند ابن العنابى ، على النحو الذى سبق ، يتماشى تماما مع ما كان ياخذ به محمد على والى مصر . فقد كان لا يكتفى بتقليد الاروبيين فيما اخترعوه بل كان ياتى بهم ليعلموه الى المسلمين أو يبعث بهؤلاء اليهم فى مواطنهم . فابن العنابى فى الواقع كان يبارك هذه السياسة من محمد على ويقنع الناس بها . فكتابه اذن من كتب الدعاية ، اذا صح هذا التعبير . واذا عرفنا انه أيضا كان يشيد بالخطوات التى قطعتها الدولة العثمانية بهذا الصدد عرفنا انه كان يبارك أيضا اتجاهها نحو التجديد . وها نحن نورد نص عبارته فى ذلك المعنى ملاحظين انه ، خلافا لبعض النصوص السابقة ، لم يستعمل فيها السجع ، ولكنه احتفظ فيها بالجملة الطويلة المعقدة ، ولاسيما الجملة الاخيرة من الفقرة :

«... وانهم ( يعنى الكفار ـ الاروبيين ) اذا ابتدعوا من أدوات الحرب وصنائعه أمرا له موقع لا نؤمن من استطالتهم به علينا ، لزمنا بذل الوسع فى تعلمه واعداده لهم والاجتهاد فى مجاوزتهم فيه . وانه اذا لم يكن استعلام ذلك الا من قبلهم ، وجب استعلامه منهم لانه مستطاع لنا . وانهم اذا اعدوا لنا صواعق البارود فاعددنا لهم القسى والمنجنيق ، اللذين صارا اليوم كالشريعة المنسوخة ، أو اقتصرنا على السيوف والبندقيات ، أو شمروا لنا الثياب فاعددنا للقائهم الثياب المجررة والاكمام المطولة ، والعمائم المكبرة لم نخرج عن عهدة الامر ، ولزمنا الاثم والعار ، فلا غرض الشارع حصلنا ولا سبيل الرجولة سلكنا » (68) .

ونحب أن يتامل القارىء في هذه المقابلات والصور التى يجريها ابن العنابى فى كلامه . فصواعق البارود تقابلها القسى والمنجنيق ، والتشمير على الثياب تقابلها الثياب المجررة ، والعمائم المكبرة والاكمام المطولة . وصورة اتباع الشرع يقابلها البوء بالاثم ،

(68) نفس المصدر ، ص 11 ـ 12 .

وصورة الرجولة يقابلها العار • وهكذا • كما أن عبـارة « الاجتهاد فى مجاوزتهم فيه » تبرهن على أن المؤلف لا يدعو الى التقليد فقط ولكن الى القوة والتفوق • واعتباره الاسلحة القديمة ( القسى والمنجنيق ) « كالشريعة المنسوخة » يعبر عن صورة فى نفسه من جهة وعن ثقافته الدينية من جهة أخرى • فالمؤلف يجمع فى هذا النص بين الدعوة الى الاخذ بأسباب الحضارة الاروبية ، والحث على التفوق واليقظة والاجتهاد ، والعتاب على التمسك بالامور البالية التى تخالف الشريعة والرجولة معا •

ولكى يقنع المتزمتين من قومه ، المدعين فى بقائهم على ما هم عليه بالتمسك بالدين ، قال ابن العنابى ان ما تقدم من كلامه يدل على اعجاز القرآن وانه تعالى ما فرط فى الكتاب من شىء • ذلك ان كل ما جاء به من أفكار حول أسباب القوة والتفوق له « شواهد ••• من الكتاب والسنة » • وعلى هذا الاساس بنى كتابه ، لانه ، كما لاحظنا ، يطرح الفكرة ثم يحشد لها من الشواهد القرآنية والاحاديث النبوية ما تصير معه مقنعة ، فى نظره ، للمتزمتين والمترددين من قضية التجديد وتقليد الاجانب والتعلم منهم •

وطريقة ابن العنابى فى الفصول التى ذكرناها بسيطة وواضحة ، فهو يبدأ بتعـريف الفكرة التى حملها عنوان الفصل ، ثم يروى لنا ما جادت به حافظته ونقوله من الشواهد والامثال ، وحتى الاشعار احيانا ، ومن المواقف والتجارب السابقة للنبى (صلى الله عليه وسلم) والصحابة والخلفاء والقواد الكبار • واذا اراد هو ان يتدخل فى الموضوع بـرأى فانه يستعمل له عبارة «قلت كذا» او «قلت وهو الاوجه عندى» ترجيحا لرأى دون آخر • وهو ينقل كثيرا عن المؤلفين السابقين حـول الموضوع كالطبرانى والطرطوشى والغزالى • وينقل ايضا عن جده الاعلى كما سبق ان اشرنا ، وعن ابن عبد الحكم والوزير الســراج (صاحب الحلل السندسية فى الاخبار الاندلسية) ، وحسين خوجة (صاحب بشائر اهل الايمان بفتوحات آل عثمان) ، وغـيرهم •

فقد عرف تجنيد الجند (69) بانه جمع الاعوان والانصار لحماية الاسلام وجهاد الكفار وارهابهم ، مستدلا على ذلك بحديث البيعة مع الانصار ، وتحدث عن واجب الامـام فى

(69) نفس المصدر ، الفصل الاول •

مثل هذه الاحوال ، وعن الجهاد الواجب والمستحب • وعرف ترتيب الجند (70) بأنه «تنزيل كل منهم فى خصوص مرتبة تليق به بحسب ما له من خصال» وهذا هو معنى الجدارة والاستحقاق فى نظم اليوم ، فالتفضيل هنا بحسب الكفاءة لا بحسب المال او الجاه • ومما تجدر ملاحظته بهذا الصدد انه قال : ان هذا التصنيف يطابق الآية الكريمة « **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** » ، مفسرا العلم هنا بأنه جنس العلم «الشامل لكل علم شرعى وكل علم له ثمرة تتعلق باقامة امر شرعى» • وهذا طبعا اجتهاد منه قصد به تاييد رأيه فى جواز تعلم العلوم من الاجانب اذا كان فيها منفعة للاسلام وأهله • وقد اضاف بان العالم بفنون الحرب يستوى مع العالم بأمور الشرع • بل انه اعتبر العالم بفنون الحرب من العلوم الشرعية قائلا « فمن العلوم الشرعية العلم بكيفية الحرب ، وعمله وتدبير أمره ، وتصريف حيله بهذه المثابة (أى من العلوم الشرعية) اذ لا تكاد تتم اقامة الجهاد المفروض الا به • فالعالم به مندرج فى عموم علماء الشرع» • (71) ويشترط فى الجندى ان يكون شجاعا ، ولكن غير متهور ، لان الشجاعة فضيلة ترشح صاحبها لقيادة الجنود ، اما التهور ، وهو الخروج عن حد الشجاعة ، فمذموم ولا يصلح المتصف به لرياسة الجند « ذ ربما غرر بهم فالقى بهم الى التهلكة» • (72) وبعد توفر الشجاعة يصنف الجند ، فى نظر المؤلف ، على حسب الفضيلة والغنى • وقد عمم هذه القضية فقال بانه «ينبغى ان يراعى ذلك (ايضا) فى تدوين الدواوين وتوفر العطايا» معتمدا فى ذلك على سيرة الخليفة عمر بن الخطاب •

وعند ما تحدث عن تصنيف الجند (73) اورد كلاما يعتبر اليوم ، وفى عصر القوميات ، محل نظر • فقد قال بان تصنيف الجند يعنى جعل كل صنف منهم على حدة ، اقتداء بسيرة الرسول الذى صنف جيشه «اصنافا مصنفة ، كل قبيلة على حدتها متميزة عن غيرها» • والى هنا يمكن أخذ كلام المؤلف على انه رواية تاريخية قابلة للمناقشة • ولكنه

---

(70) نفس المصدر ، الفصل الثانى •
(71) نفس المصدر ، ص 18 •
(72) نفس المصدر ، ص 21 •
(73) نفس المصدر ، الفصل الثالث •

يتدخل فى الامر مرجحا هذه الطريقة فى الربع الاول من القرن التاسع عشر ، الـــذى كانت فيه الشعوب الاروبية خاصة تعلن عن نهاية عصر القبيلة والاقطاع واقامة كيانات على اساس «القومية» التى تذوب فيها جميع عناصر شعب من الشعوب ، ولا سيمـا اذا كان الامر يتعلق بخطر خارجى يحدق بهذه القومية • ومما يلفت النظر ان ابن العنـابى يقيم دعوته على التجربة الشخصية، قائلا «وذلك (اى التصنيف حسب القبيلة) ما لا يخفى على من جرب» • ولكن اذا تذكرنا الظرف الذى كان يكتب فيه ابن العنابى ، ووضـــع العالم الاسلامى عندئذ ، وشيوع الاقطاع والقبلية وما اليها ، عذرناه فيما ذهب اليـه • وفى تدخله الشخصى فى هذا الموضـوع قال «وهذا (يعنى التصنيف حسب القبيلـة) ما يقتضيه حسن السياسة فى تدبير أمر الجند ، تحرزا من الاختلاف وافتراق الكلمـة ، لما فى خلط الفرق المختلفة من تعريضهم لثورات الفتنة بينهم ، وبسبب اختلاف طباعهم وميل كل فريق لمن انتسب اليه بمقتضى الطبع البشرى ، وافراد بعضهم عن بعض ادعـى للالفة وحسن العشرة ، لان بناهما على اتحاد الطبع وتقاربه ، ولاتحاد الوطن والحال اثر عظيم فى ذلك • • • وذلك ما لا يخفى على من جرب» • (74)

ويسير على نفس النسق فى ضبط عدد الجند وقواده وتسويمه (75) ، ولكنه يختصر الكلام اختصارا ، ولا يكاد يأتى حول هذه الموضوعات بجديد • وقد رتب عدد الجند عـلى نماذج من غزوتى أحد وبدر ، ناقلا للحديث الشريف «خير الصحابة اربعة ، وخير الرايات اربعمائة،وخير الجيوش أربعة آلاف، ولا يهزم اثنى (كذا) عشر ألفا من قلة»•وقد تحدث عن الطاقة واتفاق الكلمة فى الجيش باعتبارهما شرطا لمواصلة الجهاد • ويكتفى فى كل ذلك بالنقول ولا نكاد نظفر له برأى شخصى • اما قائد الجند فقد عرفه بامير اللواء الذى تنقاد اليه الجيوش ، وعرف العريف بالنقيب ، وبين ان السيرة النبوية واضحة فى ان الرايات والالوية لا يحملها الا المتقدم على القوم • واضاف بان «النظام المستحدث» يرتب الجنـد على المئين والعشرات ، ويدخل فى ذلك تسويم الجند بمعنى وضع العلامات ، ناقـــلا عن جده فى تفسيره ان التسويم من المسومة وهى العلامة التى توضع على الشاة وغـيرها •

(74) نفس المصدر ، ص 23 ـ 24 •
(75) نفس المصدر ، فصول 4 ، 5 ، 6 •

وكذلك الشعار أو العلامة أيضا • والمعمول به هو ان يختار أمام المسلمين كلمة أو عبارة ترمز الى الانتصار على العدو تفاؤلا • وفى كل هذه الامور يورد المؤلف الآيات والاحاديث والمواقف ، ولكنه يقف عندها ولا يظهر هو فيها برأى او تعليق •

ومن القضايا التى تحدث عنها فى بداية الكتاب ثم خصها بفصل متوسط (76) حديثه عن لباس الجند • ورأيه فى ذلك معتمد على السيرة النبوية والصحابة الذين قال عنهم انهم كانوا يضيقون اللباس فى وقت الحرب • وقد قيد ضيق اللباس بهدف المنفعة كالخدعة او دفع البرد وليس التشبه بالاعداء • ومن الجدير بالذكر هنا هو انه قال ان «الكفار» هم الذين كانوا يجررون الثياب • وقد قال بان «الافضل ان يكون منتهى طول الثياب الى نصف الساق ، وان الزيادة على ذلك الى منتهى الكعب مرخص فيها من غير تضييق ولا تأثيم ، وان ما اسفل الكعبين غير مرخص فيه بل متوعد عليه بالنار» • وقد اعتمد فى بعض اخبار هذا الفصل على رأى جده المذكور • كما اعتمد عليه فى حديثه عن تعيين مواقف الجند • (77) ولا تكاد شخصية ابن العنابى تظهر هنا ايضا ، فالفصل كله عبارة عن مستخرجات من حافظته ، مع الاشارة الى النهى عن تزحزح الجندى من مكانه واستعجاله الغنيمة قبل الانتهاء من المهمة المسندة اليه • ونفس الشيء تقريبا اتبعه فى عقد الالوية والرايات • (78) فقد اكتفى بتعريف اللواء بانه علم صغير بخلاف الراية التى هى علم اكبر من اللواء واصغر من البندق (او البيذق) • وتمشيا مع هذا الاتجاه نقل عن السيدة عائشة ان لواء الرسول كان ، يوم الفتح ، ابيض ، وان رايته كانت سوداء وتدعى «العقاب» • ولاحظ وجوب ايثار قواد الجيوش بالراية او العلم الاكبر اظهارا للتواضع حسب تعبيره •

ويبدو ان شخصية المؤلف تظهر تدريجيا فى كتابه ، وخاصة فى حديثه عن التدريب على الاعمال الحربية ، وعن الحصون والخنادق والاسلحة ، وعن حيل الحرب • (79) فقد عرف

(76) نفس المصدر ، الفصل السابع •
(77) نفس المصدر ، الفصل الثامن •
(78) نفس المصدر ، الفصل التاسع •
(79) نفس المصدر ، فصول 10 ، 11 ، 12 •

التدريب على انه من الدربة (بالضم) وهو «تعليم صناعة الحرب التى هى علم بكيفية اعماله ، مع مباشرتها ، لتحصيل ملكته التى هى كيفية نفسانية تصدر عنها افعاله الاختيارية من غير روية» ، وهو تعريف معقد مؤداه ان الجندى يتدرب على فنون الحرب باستعمال ادواتها وخوضها عمليا حتى يصبح قادرا عليها تلقائيا • وآلات الحرب التى ذكرها كثيرة ، منها المنجنيق والحراب والمصارعة • والغريب انه لم يستعمل اسماء حديثة لهذه الآلات ، سيما وقد عرفنا انه يدعو الى التجديد ، وانه اعتبر المنجنيق «كالشريعة المنسوخة» • وقد سبق له ان ذكر فى المقدمة عبارة «صواعق البارود» فى مقابلة الآلات المذكورة • وعدد بعد ذلك جملة من الامور التى على الجندى التدرب عليها ، واذا شئت بلغة اليوم ذكر برنامج التدريب العملى والنظرى للجندى ، مثل الاجتماع والافتراق ، والاقدام والاحجام ، والكر والفر ، والظهور والنزول ، والتجلد للاعداء ، والتثبيت والتحريض ، ورفع الصوت وخفضه ، والحراسة ، وركوب البحر ، وغير ذلك • ويتصل بهذا اقامة الحصون وحفر الخنادق والاحتساب فيها • وقد أورد هنا رأيا شخصيا له عبر عنه بقوله « قلت ومن فرط فيها ( الخنادق ) استهوانا لامر عدوه ، واغترارا بكثرة جنده ، فقد مكن عدوه من تبييته ، وعرض نفسه للهزيمة والمعرة » (80) • وأما حيل الحرب فهو يعنى بها زرع الجواسيس فى صفوف العدو ، وتحطيم معنويات العدو بمنح الهدايا لقواده ، ودس الكتب على ألسنتهم ، واستعمال الخدعة • وقد أورد بهذه المناسبة قصة طويلة من حروب الاندلس •

وفى حديثه عن الحزم (81) يقترب المؤلف من عصره رواية ورأيا • فقد عرف الحزم بأنه ضبط الرجل أمره واخذه بالثقة والمشاورة ، لان الرأى هو اساس الانطلاق نحو النجاح ، ولذلك جاء ببيت المتنبى المشهور :

**الرأى قبل شجاعة الشجعان      فهى اولا وهو المحل الثانى**

كما جاء بخبر عن المؤرخ ابن عبد الحكم خاصا بفتح الاسكندرية • وحول المشاورة وأهميتها نقل قصة طويلة عن فتح الاندلس أيضا على يد طارق بن زياد ، ونقل قصة

(80) نفس المصدر ، ص 69

(81) نفس المصدر ، الفصل 13 •

أخرى فى نفس المعنى عن حرب الاحباش والفرس من كتاب ( الحلل السندسية فى الاخبار التونسية ) للوزير السراج • وختم ذلك بقوله « فانظر ماذا يتأتى على الملوك اذا عرفوا فى الحروب من الحيلة ••• بالمكيدة » • أما عن كتاب ( بشائر أهل الايمان بفتوحات آل عثمان ) لحسين خوجة فقد جاء بقصة السلطان العثمانى ، مراد الاول الذى أهمل الحزم فقتله عدوه الجريح خدعة • ولنلاحظ أنه لم يشر بشىء الى وقائع الحملة الفرنسية على مصر ، رغم حداثة عهدها ، فهل كان لميول محمد على نحو فرنسا أثر فى ذلك ؟ كما أنه لم يستشهد بحوادث معاصرة له فى الجزائر •

ولكن ابن العنابى يدخل عصره حقا فى تناوله رحمة الضعفاء واجراء العدل وبذل الحقوق لمستحقيها (82) • والواقع ان زجه بهذا الموضوع « السياسى » وسط حديثه عن « الامور الحربية » قد جعله وكأنه هو المقصود بالذات من الكتاب كله ، رغم نشازه • فهو فصل معقود لتمجيد آل عثمان وتفضيلهم على غيرهم ، واظهار دورهم فى التاريخ ، ثم تحذير المعاصرين منهم من الظلم والاستبداد والانحراف عن سيرة أجدادهم • ولذلك مهد لهذه المعانى بقوله « ان قسوة القلب على الضعفاء ، والجور فى الاحكام الشرعية ، ومنع الحقوق من مستحقيها ، والايثار بها لمن لا يستحق ، من أسباب خراب الملك وزوال الدولة » • ويظهر ابن العنابى مؤرخا وناقدا سياسيا وواعظا عند تناوله لتدهور واضمحلال الدولة العباسية لقسوة حكامها وجورهم ومنعهم الحقوق من أهلها وتقديمهم لها من لا يستحقها • وكان ذلك ، فى رأيه ، فى أخريات تلك الدولة حينما منح حكامها « الاموال العظيمة للمغنين والشعراء وأهل اللعب والبطالة ، وأهملوا الرعية ، وركنوا الى اللذات واشباع الشهوات ، كما يعلم ذلك من سيرهم فى الكتب المطولة » (83) •

وهذا درس قاس لسلاطين آل عثمان أيضا ساقه المؤلف اليهم بطريقة غير مباشرة • ذلك أن عاقبة العباسيين فى اتباعهم تلك السيرة كانت زوال ملكهم بعصيان الممالك الاسلامية فى اطراف الدولة ، ثم تسلط عليهم التتار فابادوا ملكهم ومحوا اسمهم من الوجود ، فضعف شأن البلاد الاسلامية ، ولاسيما الجزء المشرقى منها • فمن انقذ الاسلام

(82) نفس المصدر ، الفصل 14 •
(83) نفس المصدر ، ص 90 •

اذن من كبوته واقاله من عثرته ؟ انهم العثمانيون طبعا ، اذ لولاهم لكانت العاقبة سوءا · فهم الذين وردت فيهم الاحاديث النبوية وتم على ايديهم النصر بفتح القسطنطينية ، وهم القائمون اليوم ( زمن المؤلف ) على النهوض بهذه الدولة · فعلى هؤلاء الاعقاب ان يكونوا خير خلف لخير سلف · هذه هي الافكار الرئيسية التي أوردها ابن العنابي في هذا الفصل الهـــام ·

وعلينا الآن أن نأتي على بعض نصوص منه · فقد قال عن أهمية الدولة العثمانية ، بعد وصفه لسقوط الدولة العباسية ، ما يلي : « ولولا ظهور الدولة العثمانية ـ أعلى الله مقامها ، ورفع بالتأييد والنصر أعلامها ـ فجدد القائمون باعبائها معالم الدين ، وأحيوا ما اندرس من شريعة سيد المرسلين، لاتسع الخرق، وعم الفساد سائر الخلق» · فالمؤلف اذن صريح في عواطفه العثمانية ، ولا غـرابة في ذلك فهو منحدر من أسرة تركمانية (84) ، خدمت العثمانيين في الجزائر زمنا طويلا · ولذلك نقل الحديث الشريف الذي يقـول : « لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الامير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش » ، مؤكدا عـلى أنـه حديث صحيح الاسناد · وقد علق عليه بقوله : « ففي هذا الحـديث الكريم منقبة عظيمة ومأثرة جسمية لآل عثمان اختصوا بها من بين سائر ملوك الاسلام » · ولكي تتم الصورة التي وضعها ابن العنابي لآل عثمان اعتبر محاولات الامويين والعباسيين (العرب) لفتح القسطنطينية مجرد مناوشات · أما الفتح الحقيقي لها فهو الذي تـم على ايـــدي آل عثمان · فالمقصود اذن من كلمة « أمير » المبشر به في الحديث هو «أبو الفتوحات محمد» ( محمد الفاتح ) وانها بعد ذلك تعم كل خلفائه سلاطين ( أمراء ) آل عثمان ·

ولا نعتقد أن ابن العنابي أتى بجديد حول هذه النقطة ، لان الموضوع قد أخذ بـه كل المؤيدين للدولة العثمانية خوفا أو طمعا أو اقتناعا ، ولكن الجديد في الموضوع هو انتماء ابن العنابي الى هذه الطائفة والاخذ برأيهم · ولعل ابن العنابي يفترق على هؤلاء في توجيهه النصح الى القائمين عندئذ على شـــؤون هذه الدولة بان يكونوا أقوياء وان

---

(84) جاء في اجازة محمد الطيب الفاسي لمصطفى بن رمضان العنابي ما يلي :
أقـــول مجيبـــا مفصحـــا بلســـاني    اجـزت الفقيـه المصطفى التركماني
من رسالة البوعبدلي الى المؤلف ·

يراعوا حرمه وحق الرعية وأن يسيروا على هدى الصالحين من سلفهم ، لان ذلك هو سر وجودهم وسر بقائهم أيضا • وهذه عبارته « فعلى القائم منهم (85) أن يعرف حق رتبة شرفه فيجرى على طريقة الاكرمين من سلفه ، فان بذلك سعادة الدنيا والآخرة (86) • ولاشك أن هذا من المؤلف موقف سليم ، فهو يظهر النواحى الايجابية لهذه الدولة ورجالها ويحذر من النواحى السلبية التى قد يكون فيها خرابها ونهايتهم كما كانت الدولة العباسية وخلفاؤها • ولذلك أيضا نصح باتباع الرحمة ، وتوفير العدل ، ومراعاة حقوق الضعفاء • ولامر ما أورد بعد ذلك مباشرة حديثه عن اجتماع الكلمة والاتفاق (87) ، مكتفيا فيه بتفسير قوله تعالى « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » ناقلا فى ذلك عن غيره ، دون أن يكون له أى أثر أو رأى •

أما الموضوع الرئيسى الثالث والاخير فقد خصصه للحديث عن « جواز تعلم العلوم الآلية من الكفرة » (88) • والعنوان ، أو اذا شئت ، الفتوى واضحة • ولكن ابن العنابى تدرج فى اصدار رأيه • فهو لم يجد آية أو حديثا صريحا عن جواز تعلم العلوم الآلية من الاروبيين ، ولذلك راح يبحث فى نصوص أخرى يمكنه بعدها أن « يقيس » عليها • فقد جاء أولا بأحاديث عن جواز تعلم اللغات من غير المسلمين ، مثل حديث تعلم السريانية الموجه لزيد بن ثابت ، لان كتبا كانت تأتى للرسول بها ، فتعلمها الصحابى فى سبعة عشر يوما ، كما تعلم العبرية فى نصف شهر • وقد استنتج ابن العنابى من ذلك جواز تعلم الكتابة أيضا من غير المسلمين ، ودل ذلك الجواز غير المشروط ، فى نظره ، على « جواز تعلم العلوم الآلية التى لها منفعة فى أمر الدين من الكفار » • ولا يتوقف الامر عند تعلم اللغات والكتابة بها من غير المسلمين بل يتعداه الى جواز تعلم كل معارفهم اذا توقف عليها أمر من أمور الدين ، لانه اذا جاز تعلم اللغة السريانية واللغة العبرية والكتابة بهما ، « فغير ذلك من معارفهم الصناعية التى لها موقع فى أمر الدين ، كالذى نحن فيه ، بالاولى » • ومن هذه المعارف أيضا الطب والحساب اللذان يعتبران من علوم

(85) يعنى بدون شك السلطان محمود الثانى •
(86) السعى المحمود ، ص 92 •
(87) نفس المصدر ، الفصل 15 •
(88) نفس المصدر ، الفصل 16 •

فلاسفة غير المسلمين ، حسب تعبير ابن العنابى • وقد اعتبر شيوخ ابن العنابى هـذين العلمين فرض كفاية على المسلمين • وهذه هى عبارته فى ذلك « وعن هذا وتحوه ( يعنى المعارف الصناعية للكفار ) عد جمع من مشائخنا وغيرهم ، الحساب والطب فى جملـة العلوم المفروضة على سبيل الكفاية ، مع انهما من علوم كفار الفلاسفة » (89) •

* * *

ونصل الآن الى القسم الثانى من الكتاب ، وهو الخاص « بالامور السياسية » • وقد عرف المؤلف السياسة بأنها مصدر ساس الرعية يسوسها سياسة ، اذا أمر فيها ونهى • فهى ، بناء على هذا التعريف ، سلطة الحكم وسلوك الحاكم • وتطلق السياسة أيضا على حسن التدبير وجودة الرأى • ونقـل عن بعضهم تعريفا آخـر للسياسة يحصرها فى القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الاحوال •

واذا كان ابن العنابى يرى ضرورة تقليد غير المسلمين فى الامور الحربية والصناعية والعلوم العملية فانه لا يرى ذلك بخصوص التشريع والعلوم السياسية ، بل صـرح بأن السياسة « العقلية » لغـير المسلمين لا يحتاجها المسلمون ، فهـو يقول ان ما عليـه « الكفرة من سياستهم العقلية فنحن فى غنى عنه » ، لان للمسلمين الكتاب والسنـة ، وفيهما من التشريعات السماوية ما يغنى عن قوانين الاروبيين الوضعية • وهذا الـرأى للمؤلف يدل على أنه كان مطلعا على الاتجاه الليبرالى العقلانى الذى بدأ ينتشر فى اروبا بعد الثورة الفرنسية • ومن الغريب اننا نجد ما عبر عنه ابن العنابى هنا شبيها بمـا عبر عنه مواطنه ومعاصره ، حمدان خوجة ، بعد أقل من عشر سنوات ، حين قال وهـو يحاجج الليبراليين الاروبيين انهم لو اطلعوا على ما لدى المسلمين من قوانين وأحكـام لغيروا موقفهم من الحضارة الاسلامية من جهة وغيروا من سياستهم الاستعمارية فى الجزائر من جهة أخرى (90) •وعلى كل حال فان رأى هذين المفكرين جدير بالدراسة والمقارنة،لان

(89) نفس المصدر ، ص 98 •

(90) أبو القاسم سعد الله ( الحركة الوطنية الجزائرية ) ، دار الآداب ، بـيروت ، 1969 ، ص 43 — 44• انظر أيضا أبو القاسم سعد الله (مساهمة بعض المفكرين الجزائريين فى الحضارة الاسلامية ) فى ( محاضرات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى ) ، طبـع وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، الجزائر 1973 ، الجزء الرابع ، ص 95 — 146 • وفى هذا البحث تحليل سريع لكتاب ابن العنابى الذى نحن بصدده ، ولآراء حمدان خوجة وغيرهما

كليهما يؤمن بضرورة التقدم والتجديد والاخذ عن اروبا نظامها العسكرى واختراعها العلمى ، ولكن ليس كذلك فى التشريع والسلوك والسياسة ·

وقد أوضح ابن العنابى بأن مبنى السياسة الشرعية ثلاثة أمور هى :

1) اللين وترك الفضاضة ، أو بعبارة أخرى تبصر الحاكم ومرونته وقدرته على خفض الجناح وكبح الغضب ·

2) المشاورة ، أو بتعبيرنا اليوم ديمقراطية الحكم وعدم الاستبداد بالرأى والتصرف .

3) عدم استعمال الولاة أو الاطارات اذا كانوا راغبين فى الولاية ( أو الوظيفة ) ·

ورغم أن الحاكم ما هو الا فرد من الامة فان المشورة ضرورية له لان رأيه الفردى لا يستطيع أن ينفذ الى كل الاغوار ولا أن يحيط بكل شىء · لذلك وجب عليه شرعا أن تكون له مجالس ( استشارية ) مع العلماء وأصحاب الرأى فى الامة · وقد أورد المؤلف آيات وأحاديث فى الامور الثلاثة السابقة · ومما جاء فى الامر الاخير أن رجلا جاء للرسول يطلب تعيينا فرد عليه الرسول « لا نستعمل على عملنا من طلبه » ، وعلق ابن العنابى على ذلك بقوله أن الولايات أمانات ، وطلب الامانة دليل على الخيانة ·

وربط المؤلف بين عدة أمور أخرى تعتبر من صميم نجاح الحكم وقوته · من ذلك أن نجاح أى حكم يتوقف على اجراء العدل بالدرجة الاولى ، لان الظلم مصدر خراب الدولة · وبين أهمية الجيش لقوة الدولة ، وكذلك وفرة المال ، وحرمة العلماء ، وانتشار العمران · وقد أعطى أهمية خاصة لمكانة العلماء والجيش فى الدولة · وحذر من مغبة التبذير والاسراف فى صرف أموال الامة وجمعها بطريقة الاكراه وأخذها ممن يعجز عن دفعها · ومما نقله عن بعضهم تأييدا لرأيه أن « الملك بناء والجند أساسه ، فاذا قوى الاساس دام البناء واذا ضعف الاساس انهار البناء · فلا سلطان الا بجند ، ولا جند الا بمال ، ولا مال الا بجباية ، ولا جباية الا بعمارة ، ولا عمارة الا بعدل · فصار العدل أساسا لسائر الاساسات » · ومن مظاهر عدل الحاكم (والمؤلف يستعمل عبارة السلطان) أن يقرب منه « حملة العلم الذين هم حفاظه ورعاته وفقهاؤه ، وهم الادلاء على الله ، والقائمون بأمر الله ، والحافظون لحدود الله ، والناصحون لعباد الله » · وعلى الحاكم كذلك أن يتفقد جيشه باستمرار ويتعهده ، لان الجيش أساس الملك وهو حامى «الدين والحريم» .

أما المال فهو « قوة السلطان وعمار المملكة » . وعلى الحاكم أن لا ياخذ من الرعية « الا ما فضل عن مصالحها ومعاشها » . وان ينفقه فيما يعود بالفائدة على الرعية كمد الطرق ورفع الجسور واقامة الثغور . وقد قارن بين السياسة المالية للصينيين والفرس والعرب ، ووجد أن اولئك يدخرون الاموال لوقت الحاجة اما هؤلاء فينفقونها فيما ينفع الرعية ويوسع عليها . لان الرعية هى الجند ، وعلى ذلك السيرة النبوية .

ان هذه الآراء للمؤلف حول سياسة الحكم ، وان كان جلها منقولا عن غيره ، فانها توضح مدى تبنيه وتحبيذه لها . والقضايا التى ذكرها فى هذا المجال ، كالعدل والجند ، ومكانة العلماء ، والضرائب ، والعمران ، والمشاورة الخ . كانت حديث الساعة عندئذ لاسيما فى مصر واسطانبول . وقد شاهد هو من استبداد الدايات فى الجزائر وارهاقهم الرعية بجباية الاموال قسرا واستعمالهم البايات ( الولاة ) الطالبين للعمل والمتآمرين من اجله مع الطائفة اليهودية ( اسرة بكرى وبوشناق ) (91) ما حرك فى نفسه هذه الخواطر وجعله يكتب بالحاح ما كتب . ولاشك ان ابن العنابى يقف ، بآرائه السابقة فى طليعة المتنورين بالنسبة لوقته .

أما الخاتمة التى جعلها « فى أمور شتى من أسباب النصر والقوة » ، فقد حصرها المؤلف فى معنى الآية الكريمة « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » . وهناك أربعة شروط تشترط فى الحكام المرضى عنهم من الله والعباد ، وهى :

1) اقامة العدل .

2) اظهار شعائر الدين .

3) نصر المظلوم والاخذ على يد الظالم وكف يد القوى عن الضعيف .

4) مراعاة الفقهاء والمساكين وملاحظة ذوى الخصاصة والمستضعفين .

---

(91) اسماعيل العربى « دور اليهود فى الدبلوماسية الجزائرية فى اواخر عهد الدايات » فى ( مجلة تاريخ وحضارة المغرب ) عدد 12 ، ديسمبر 1974 ، ص 37 — 71 . انظر أيضا اطروحة العربى الزبيرى ( التجارة الخارجية للشرق الجزائرى ) ، كلية الآداب جامعة الجزائر ، سنة 1972 .

فاذا أخلوا بشيء من هذه الشروط الاربعة « تضعضعت قواعدهم وانتقض عليهم من اطراف ممالكهم » وانتصر عليهم عدوهم واضطربت عليهم الامور وظهر عليهم باغى الفتنة وحاسد النعمة • وأنهى الخاتمة بالحديث عن التوبة وعن أمور أخرى فى سلوك المسلم مستوحاة من السيرة وسلوك الصحابة ، ومأخوذة من كلام المتقدمين والمفسرين • وأبى الا ان يختتم كتابه بالحديث عن الجند كما بدأه به فقال : « ينبغى لمن له مظلمة أو حق قبل جندى خرج غازيا ان يسامحه ويعفو عنه حتى لا يعود ضرر مظلمته على الاسلام » (92) والخاتمة ، كما يبدو ، وعظية اخلاقية أكثر منها سياسية أو عسكرية • وأفكارها موجهة بالدرجة الاولى الى الحكام والمسؤولين على الرعية بصفة عامة •

* * *

وبعد أن درسنا حياة المؤلف وأقسام ومحتوى كتابه يجدر بنا أن نقف قليلا عند منهجه وأهمية عمله • وأول ما نلاحظه هو أن تقسيم الكتاب على النحو الذى أوردناه يتبع منهجا غير سليم • فالكتاب أساسا جزآن عسكرى وسياسى ، ولكننا لاحظنا ان الجزء الاول هو الذى استأثر بحجم الكتاب ، وهو الذى قسمه المؤلف الى فصول وجعل لكل فصل عنوانا ، وبذل فى ذلك جهودا فى النقل والاستشهاد والاحتجاج والاقناع • ولو جعل المؤلف كتابه قسما واحدا مكرسا « للامور الحربية » وضم القسم الثانى الى الخاتمة لكان أكثر توفيقا وأكثر منطقية حتى مع العنوان الذى اختاره لكتابه • حقا انه قد وجد نفسه مضطرا ، عند تناول الامور العسكرية ، أن يشير الى الامور السياسية أيضا للتلازم بينهما فى حياة الدولة ؛ ولكن ملاحظتنا تنصب على المنهج لا على ادراج الفكرة فى حد ذاتها • وقد لاحظنا كذلك ان الفصل الرابع عشر يحتوى على كثير من النقط التى جاء بها فى المقصد الثانى • ونختم هذه الملاحظات بأن توزيع مادة الكتاب على الفصول لم تكن منسجمة ، فبعض الفصول قصير الى درجة الاخلال وبعضها طويل الى درجة الملل •

ويكثر ابن العنابى من النقل بطريقة جعلت شخصيته احيانا تزول أو تكاد • فهو عادة يبدأ بتعريف عنوان الفصل لغويا ثم يورد لذلك المعنى حشدا من الآيات والاحاديث

(92) السمى المحمود ، ص 119 •

والاخبار ، وكثيرا ما يبدأ الفصل بآية أو حديث أو بعبارة قال فلان ، الخ · فاذا أراد أن يبدى هو رأيه ، وقليلا ما يفعل ذلك ، يتدخل بكلمة « قلت » بعد ما يكون قد جاء بكلمة « قال » فلان · وطريقة ترجيحه لاحد الآراء طريقة فقهية مملة مثل « قلت وهو الا وجه عندى » أو « قلت وهو الاصح » الخ · وأحيانا ياتى بهذا التعبير الجدلى « فان قالوا كذا قلنا ··· » ومن أجل ذلك يصعب على الباحث ان يفصل رأي ابن العنابى من آراء غيره فى الكتاب ، رغم أنه ياتى بكلمة « انتهى » أو « انتهى منه » عند النقل · وتشيع فى الكتاب روح دينية واضحة ، رغم ان الموضوع دنيوى صريح · فمن نقوله الى طريقة العرض الى وجوه الاحتجاج الى النتائج ، كلها مشبعة بروح عالم فقيه حافظ للنصوص متمسك بالتقاليد · ولا عجب فى ذلك فالرجل من طبقة العلماء القضاة ورجال الرأى والافتاء فى شؤون الدين ، بل ولا عجب أيضا انه كان يتحدث عن الجهاد وشروط المجاهد وعن الاستعداد للحرب للدفاع عن الاسلام وأهله ، وعن اعداد الجندى المسلم للقيام بهذه المهمة · أما اسلوبه فسهل اذا ترسل ، رغم طول الجملة عنده · وقد يستعمل السجع فى بعض الاماكن كالمقدمة · أما سائر الكتاب ــ الذى يكثر فيه النقل كما لاحظنا ــ فهو بحسب النص الذى ينقله · ولعل طريقة ابن العنابى فى كتابه تجعله كتابا غير صالح للنشر كنص لانه من محفوظه أكثر من معقوله · وندنك ، فيما نعتقد ، أمر محمد على بتلخيصه ( أو بعبارة أصح بتجريده ) فلخصه تلميذ المؤلف فى حوالى نصفه ·

ومما يلفت النظر فى هذا الكتاب عدم تعرض صاحبه للقضايا المعاصرة تقريبا · فباستثناء ما جاء فى المقدمة عن دوافع التاليف وظروفه ، وما جاء فى الفصل الرابع عشر عن « القائم » بامر الدولة العثمانية ، فان المرء لا يكاد يجد فى الكتاب ما يدل على أنه من تآليف القرن التاسع عشر · لقد عرفنا الاحداث التى عاشها أو عاصرها المؤلف فى الجزائر ومصر ، وفى العالم ، وهى احداث كبيرة سياسيا وعسكريا واجتماعيا ، ومع ذلك لا نجده يشير الى واحدة منها فى الاحتجاج أو الاستشهاد · فلا الحملات الاجنبية على الجزائر فى عهده ، ولا سفرته الى المغرب فى مهمة ، ولا الحملة الفرنسية على مصر تجد لها مكانا فى كتابه المخصص لتنظيم الجنود وتقليد الاجانب فيما اخترعوه من أدوات الحرب والقتال · وقد رأى تفوق هؤلاء الاجانب واضحا فى حملة اللورد اكسموث الانكليزى

على الجزائر ، وغارة الاسطول الامريكى بقيادة ديكاتور على الاسطول الجزائرى ، فى عرض البحر ، ومقتل الريس ( الضابط ) حميدو الشهير ، ورأى تفوقهم أيضا فى حملة نابليون على مصر ، وفى موقعة نافرينو · فلماذا كان يبحث فى التاريخ البعيد عن الشواهد بينما شواهده حية معاشة امامه ؟ هل هى روح الكاتب العربى المسلم الذى يبتعد باستمرار عن الواقع هروبا منه وبحثا له عن مكان آمن فى التاريخ السحيق ؟ ·

وعلى أية حال فقد وجدناه ينقل عن جده بعض الآراء ، ويستشهد بكلام ، غير مباشر أيضا ، من حسين خوجة صاحب ( بشائر أهل الايمان ) ، والسراج صاحب ( الحلل السندسية ) ، وكلاهما قريب منه نسبيا · كذلك وجدناه يستعمل عبارة غامضة وهى : « وذلك ما لا يخفى على من جرب » بعد حديثه عن تصنيف الجند · وهى عبارة نفهم منها انه هو المجرب المقصود ، ولكنه لم يفصح عن ذلك بحادث أو حوادث من عصره · وفى حديثه عن الحساب والطب فى الفصل الاخير نقل رأى « جمع من مشائخنا » فى انهما من العلوم المفروضة كفاية رغم « أنهما من علوم كفار الفلاسفة » (93) ، حسب تعبيره · والواقع ان هذه الاشارات والنقول من حوادث العصر ورجاله تعطى ، رغم ندرتها ، للكتاب أهمية خاصة ·

ويقف المؤلف موقفا مبدئيا الى جانب الدولة العثمانية ، فارومته ، كما لاحظنا ، تعود الى آل عثمان · وهو مدين لهم بالوظائف الرسمية التى تقلدها على ايديهم ، كما تقلدها والده وجداه وغيرهم من أفراد أسرته · ومن جهة أخرى كان يعتقد ان الفضل، كل الفضل، يعود الى هذه الدولة فى انقاذ الاسلام من براثن التتار، وغارات الاوروبيين طيلة قرون · وقد عاصر هو احداثا كانت فيها هذه الدولة فى صراع ضد نفسها من ناحية وضد الخطر الخارجى من ناحية أخرى · فرأى ان الحل يكمن فى تجديد هذه الدولة وعودتها الى ما كانت عليه من القوة والرهبة ، أو يكون مصيرها مصير الدولة العباسية ومصير الامم الاخرى التى انقرضت أو تهاوت · فانتصر لتحديث الجند باعتباره اساس الدولة · وكان فى

(93) من الغريب ان يؤيد ابن العنابى ذلك . وهو المطلع على الحضارة الاسلامية والعارف بدور العرب والمسلمين فى تقدم الطب والحساب · فكيف يصبحان فى نظره من علوم كفار الفلاسفة ؟

ذلك يؤيد أيضا سياسة محمد على فى نفس الاتجاه ، رغم أنه لم يشر اليه بالاسم . ولعل فى ذلك تعريضا بما كانت عليه الانكشارية فى الجزائر من استبداد وصلف وانانية وتخلف .

والموقف من تجديد الدولة العثمانية يقودنا الى الحديث عن موقف المؤلف من قضية التجديد عامة . فقد رأيناه يقف الى جانب التيار التجديدى فى مختلف الميادين ، وليس فى الميدان العسكرى وحده . واذا اتبعنا قياسه فان كل ما يفيد المسلمين فى دنياهم ويجعلهم أعزة اقوياء يجب الاخذ به لان الشريعة الاسلامية لا تمنعه بل تفرضه ، والتهاون فيه يؤدى الى الاثم والعار . وقد رأيناه ينادى بضرورة تعلم اللغات والعلوم الآلية والصناعية ، وعلوم الطب والحساب ، والعلوم العسكرية . ولا يرى فى ذلك غضاضة او مخالفة للشريعة . والتجديد يعدى كما ان التقليد يعدى . فاذا عرفنا انه نادى بتقصير الثياب ، والنظر فى أمر العمامة والاكمام الطويلة ، واستعمال السلاح الحديث ، عرفنا انه ينادى ، ضمنيا ، بتجديد المجتمع الاسلامى أيضا ، لانه لا يستطيع ان يتصور ، وهو المفتى والمجرب ، ان يتعلم المسلمون تلك اللغات والعلوم كلها ولا يتغيرون فى انفسهم وعقولهم ومذاهبهم فى الحياة . ومن ثمة يبرز ابن العنابى مجددا ومجتهدا أيضا . فهو كرجل دين استعمل عقله بحرية ليصل الى آرائه التى طرحها فى كتابه ، ولو أنه تزمت أو تجمد أو أصر على ضرورة التمسك بالتقاليد لما توصل الى تلك الآراء . على انه تجب الملاحظة الى انه بقدر ما كان المؤلف مجددا فى الحياة العملية والعلوم المفيدة بقدر ما كان محافظا بالنسبة للقوانين التى تسير المجتمع الاسلامى ، فهو يرى ان تلك القوانين ( الكتاب والسنة الخ ) كافية لضمان حياة سعيدة لهذا المجتمع .

وفى هذا المضمار تدخل آراء ابن العنابى فى السياسة . فقد ألح على ضرورة تمسك السلطان ( ويسميه احيانا الامام واحيانا الملك ) بالتعاليم الدينية والاخلاقية . كما ألح على مبدا المشورة وعدم الاستبداد بالرأى أو بالحكم . وبين أن صلاح السلطان يظهر فى تقريب العلماء اليه ، وهو لا يعنى العلماء على الاطلاق ، ولكنه يعنى خاصة أولئك العلماء الذين تميزوا بالرأى والاجتهاد والاطلاع ومعرفة الدين ، ولذلك وصفهم بتلك الاوصاف التى اتينا عليها . فمجالس السلطان هى التى تنوره وتبصره بأفضل الطرق

لنجاح جماعة المسلمين • اما الاستبداد والظلم والجور والانحراف عن التعاليم الدينية فقد قال انها تؤدى الى خراب الحكم وسقوط الدولة • وقد جعل العدل وقوة الجيش وصرف المال فيما يفيد الناس عامة اساسا للحكم الصالح • بالاضافة الى انه طالب بمزج الاهداف الدنيوية والدينية عند القيام بأى عمل فى صالح المجتمع ، ومن ثمة ألح على ضرورة الانتصار لله وبالله ، وضرورة التوبة من المعاصى • وهكذا تصبح الاخلاق والسياسة والدين امورا متلازمة فى نظر المؤلف ، وهى بدون شك كذلك فى نظر الدين الاسلامى •

ومن حقنا فى النهاية ان نتساءل : لو أن حسين باشا أخذ بالنظام الذى دعا اليه ابن العنابى ، فهل كان يواجه نفس المصير الذى لقيه على أيدى الفرنسيين ؟ وهل كانت الحملة الفرنسية تنجح النجاح الذى حققته سنة 1830 ؟ ان الوثائق تتحدث عن أن ابن العنابى قد تولى الافتاء فى بداية عهد حسين باشا وفى أخريات عهده أيضا • ونعرف من دراستنا للعهد العثمانى فى الجزائر ان مقام المفتى الحنفى كان بمثابة شيخ الاسلام فى اسطانبول ، ومعنى هذا أن نفوذه كان عظيما وآراءه كانت محل ثقة الجميع • ولكننا نعرف من جهة أخرى ان مكانة العلماء ورجال الدين قد ضعفت لدى الدايات فى العهد الاخير من حكمهم، واصبح هؤلاء يتصرفون بأمرهم ولا يعودون الى العلماء الا فى الاحتفالات والمظاهر الشكلية • ولعل جرأة ابن العنابى اوائل الاحتلال الفرنسى لبلاده واستعداده لتجنيد الجند وتنظيم البلاد ، حسبما تزعم المصادر الفرنسية ، ينسجم مع آرائه فى الكتاب أكثر مما ينسجم موقفه ، كمفتى ، زمن حسين باشا •

ومهما وجه الى كتاب ابن العنابى من نقد فانه يظل حلقة هامة فى التراث الفكرى الجزائرى وفى تاريخ الفكر التقدمى لدى العرب والمسلمين ، فهو من أوائل الكتب التى طرحت مفهوم التجديد على مستوى الدولة الاسلامية ، ونادى صاحبه بعدم الانغلاق امام الحضارات المعاصرة ، ودعا الى تحديث الجيش ، واتباع العدل ، والشورى ، وتوفير المال ، والتمسك بالاخلاق الكريمة ، باعتبار كل ذلك أساسا لقوة وكرامة الامة الاسلامية •

ومن غريب الصدف ان قضية التجديد التى طرحها ابن العنابى منذ قرن ونصف ما زالت لم تجد حلها الى اليوم ، ولعل فيما أورده من براهين دينية وتاريخية جوابا مفحما للذين ما زالوا منا غير مقتنعين بهذه القضية •

ابن عكنون (الجزائر) 7 يونيو (جوان) 1975 •

**أبو القاسم سعد الله**
معهد العلوم الاجتماعية،جامعة الجزائر

أضــواء على

# ثــورة بوعـمَامـة 1881

عبد الحميد زوزو
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

**من المعروف عن ثورة بوعمامة أنها أطــول الثورات الجزائرية التى اندلعت فى وجه الغزو الفرنسى ، ذلك انها دامت ثمانية عشر سنة ، من افريل 1881 الى أكتوبــر 1899 ، السنة التى حصل فيها بوعمامة على «الامان» (1) • ومع ذلك نجدها أقل حظا من حيث عناية الدارســين واهتمام الباحثين بها • وفضلا عن ورود أخبارها بشكل لا يتناسب مع طولها الزمنى فى الكتب المدرسية ؛ فــان الابحاث المختصة هى الاخــرى لا تولى لاحداثها نفس العناية التى توليها لثورتى المقرانى والامير عبد القادر مثلا.**

لكن ، بالرغم من قلة المراجع الاجنبية عن ثورة بوعمامة وانعدامها بالعربية ، فــان الوثائق المتوفرة تعكس مدى الانزعاج والقلق اللذين سببتهما للفرنسيين، عسكريين منهم

(1) BEZY (le citoyen) : *l'Insurrection du Sud Oranais,* réponse à SAHRAOUI, notes recueillies et publiées par le citoyen BEZY. Oran, Collet (1884).

ومدنيين على حد سواء ، كما تكشف عن حقيقة المرحلة الاولى من هذه الثورة الطويلة التى كانت فعلا فى صالح بوعمامة كما سنرى ٠

حقا ، لقد دامت ثورة بوعمامة طويلا ، بيد أن أهم فترة فيها هى الواقعة بين 22 افريل 1881 و 2 افريل 1882 ٠ فخلالها جرت موقعة « مولاق » (2) MOULAG الشهيرة بين الجيش الفرنسى والثوار ، وخلالها أيضا سار بوعمامة واتباعه مسيرتهم الطويلة نحو التل.

وكلا الحادثين ساهما فى تدعيم نفوذ بوعمامة لدى القبائل الصحراوية ، فى حين أثارا دهشة الرأى العام الفرنسى ومخاوفه فى كل من فرنسا والجزائر ٠ (3)

وفى هذا المقال ، سنحاول الكشف عن حقيقة هذه المرحلة من الثورة ، وذلك بمقارنة ما كتبه الفرنسيون حول الموضوع ببعضه ، ثم مقارنة هذا الاخير بالتقارير العسكرية الموجودة بالارشيف الحربى الفرنسى ٠ (4)

وعندها يتبين للباحث أن الكتاب عملوا عن قصد على طمس انتصارات بوعمامة والتقليل من أهميتها ، متبنين فى ذلك اسلوب السلطة فى اخفاء الحقيقة ، مضفين على الاعمال الباهتة لعسكرييهم مزيدا من البطولة والانتصار ٠

يعود نشاط بوعمامة بالزاوية التى أسستها فى مغرار التحتانى (5) الى سنة 1876 (6) ٠ وقد جلب نشاطه هناك انتباه الرقابة العسكرية ، ولا سيما خلال سنة 1880 ٠ فقد كانت بعض التقارير العسكرية تتحدث عن شعبيته فى أوساط القبائل الصحراوية ، وعن التفافها المتزايد حول زاويته ، وخاصة قبائل رزيانة ، وحميان ، وترافى، (7) فى حين تتحدث تقارير أخرى عن الهدايا «الزيارة» التى كانت قبائل بنى غيل،

(2) نسبة الى المكان الذى جرت فيه المعركة ، وهو يقع بين عين تازينة وقصر شلالة ، بنحو عشر كيلومترات شمال شرق قصر شلالة ٠

(3) E. GRAULLE, ancien chef du bureau Arabe, *Insurrection de BOUAMAMA,* (avril 1881) p. 14.

(4) A.G. وسأرمز اليها فى هذا البحث بـ Archives de guerre. H 376

(5) بين عين الصفراء وجنين بورزق ٠

(6) Graulle - p. 7

(7) A. G. H 376 ٠ تقارير بتاريخ 9 و 11 افريل 1880 و 12 جوان 1880 ٠

وأولاد جرير ودوامنية تحملها اليه ، وترى فى وعود بوعمامة للقبائل الزائرة له « بتحريرها من الاستعمار » خطرا على الوجود الفرنسى · (8)

ويبدو من التقارير المتوفرة ان اقبال الناس على تأييد بوعمامة وتقديم عروض الولاء له لم يكن هكذا تلقائيا ، وانما كان وليد خطة مرسومة ، ذلك أن بوعمامة كان يدعو الى الخروج عن سلطة فرنسا (9) بالتنقل بين القبائل أو مراسلتها · كما كان يبعث برسله « مقدمين » الى البعض الآخر فى مهمة تعبئة والتبشير « بقرب فرحة المسلمين » ، والدعوة الى « تهيئة السلاح ، والتزود بالبارود والذخائر انتظارا ليوم الفرحة » · (10)

أما السلطة العسكرية من جهتها فقد كانت على اطلاع بتحركات بوعمامة ونواياه عن طريق عيونها من الاهالى أنفسهم ، لكنها لم تعتقله لتقدير الصحراويين له وتقديسه ، وبدلا من ذلك منعتهم من زيارة زاويته وتأدية القرابين · (11)

اندلعت شرارة الثورة بمقتل ضابط فرنسى برتبة ملازم أول ، وأربعة من حراسه حينما حاولوا اعتقال الطيب الجرمانى أحد أقرباء بوعمامة ومقدميه بتاريخ 22 افريل 1881 ، لكن اللقاء الحاسم · بين بوعمامة والجيش الفرنسى كان فى موقعة « مولاق » التى استعد لها الطرفان ، وذلك بتاريخ 19 ماى 1881 · (12)

---

(8) A. G. H 376 تقرير من ولاية وهران الى الوالى العام بتاريخ 9 افريل 1881 · يبين التقرير القبائل التى تحدث اليها بوعمامة عن تحريرها من الاستعمار الفرنسى فكانت : حميان ، وترافي ، وأولاد زياد ، والاغواط الحرار ·

(9) نفس المصدر ، تقرير بتاريخ 22 أفريل 1881 · بناء على هذا التقرير يكون بوعمامة قد زار قبيلتى أولاد التومى وأولاد أحمد · أما القبيلة التى راسلها فهى جنابعة ·

(10) نفس المصدر · تقرير بتاريخ 7 أفريل 1881 و 22 افريل 1881 · كان «المقدمون» الى القبائل كالتالى :
الطيب بن الجرمانى الى قبائل الاحرار الشراقة ·
مرزوق السدورى الى قبائل ترافى · بلقاسم ولد لزغزان الى أولاد زياد ·
العربى ولد الطيب أحمد الى قبائل رزيانة · انظر BEZY ، ص 17 ــ 18 ·

(11) ــ Graulle p. 13 · كان الوالى العام حينئذ قريفى البير Grévy Albert يعارض فكرة اعتقال بوعمامة ، وحجته أن عهد الثورات قد انتهى ·

(12) يرى Graulle ص 14 ، بأن بوعمامة كان يفضل نهاية شهر جوان لاشغال الثورة · أى حتى يمكن أهل التل من اتمام موسم الحصاد ، لكن ضغط مؤيديه جعله يعجل بها · بينما يتبين للباحث أن تدخل السلطة باعتقال دعاته هو السبب المباشر ·

نالت موقعة « مولاق » حظا وافرا من اهتمام الصحافة عندئذ ، كما حظى القـــادة العسكريون المشاركون فيها بتنويه رسمى ، ولا سيما فى أوساط الجيش • وصـورت الموقعة على أنها انتصار عسكرى هائل على الثوار فى الجنوب الغربى ، بينما الواقع خلاف ذلك • فموقعة «مولاق» كانت نصرا لبوعمامة لم يحسن استغلاله كاملا ، وهزيمة للجيش الفرنسى كانت له درسا قاسيا استفاد منه •

ولسنا فى حاجة الى القول بأن تغطية حقيقة موقعة « مولاق » كانت بهدف رفـــع معنويات الجيش والتخفيف من روع المعمرين •

أكمل الجيش الفرنسى استعداده فى أواخر افريل 1881 لملاقاة بوعمامة بالتنظيـم العسكرى التالى :

1 ـ ثلاثة فيالق من المشاة ، يتكون الاول من الزواف والثانى من اللفيف الاجنبى ، والثالث يكونه الرماة • وكان الكولونيل سوينه SWINEY يتولى قيادتها •

2 ـ أربع سرايا من قناصة جيش افريقيا الرابع ، يقودها الكولونيـل اينوسنتى INNOCENTI

3 ـ فرقة مدفعية •

4 ـ فرق متنوعة مساعدة •

5 ـ ثلاث فرق من «القوم» قوم سعيدة ، وفرندة ، وتيارت ، وكان يقود الاوليين الآغا قدور ولد عدة ، ويقود الثالثة الآغا الحاج قدور صحراوى •

6 ـ ألفان وخمسمائة جمل محملة بالمؤن والذخيرة يحرسها ستمائة أهلى •

ويخضع هذا التنظيم العسكرى لقيادة الجنرال كولينيون دانسى Collignon d'Ancy لكنه تخلى عن القيادة العامة للكولونيل اينوسنتى لمرض أصابه بمدينة البيض Géryville

أما بوعمامة فقد كان تحت قيادته ألفان وثلاثمائة رجل بين فارس وراجل تتوزعهـم القبائل بالشكل التالى : (14)

(13) Graulle p. 42

(14) Marche de BOUAMAMA : أنظر A. G. H 376

| | |
|---|---|
| من قبائل ترافى | 700 بين فارس وراجل · |
| أولاد زيــاد | 180 « « |
| الحـــرار | 160 « « |
| أولاد سيدى الشيخ | 250 « « |
| مقهـــار | 100 « « |
| أولاد عمــور | 170 « « |
| أولاد سيدى التاج | 50 « « |
| القصــور | 500 من المشاة |
| من قبائل أخرى | 190 بين فارس وراجل |

فالتفوق العددى ، اذن ، كان الى جانب الفرنسيين فضلا عن تفوقهم المادى فقد كان الجيش الفرنسى ضعف جيش الثوار أو يكاد ، بحيث كان عدد « القوم » الاهالى وحـده يقارب 1200 رجل · (15)

لكن عند اللقاء ، اندهش الفرنسيون لاقدام الثوار وتحديهم للمدفعية · وكان من عنف الهجوم وشدته أن وقع اهتزاز فى مقدمة صفوف العدو ، استغله الثـــوار فى تفكيك تنظيمه العسكرى ، وزرع الاضطراب والبلبلة فى صفوفه ، مما شـــل فعـــل المدفعية ، ومكن الثوار من انتزاع النصر رغم تفوق العدو عددا وعدة ·

ومع ذلك فالفرنسيون لا يقرون بالهزيمة ، بل ويزعمون بأن التفوق العددى للثوار وهروب « القوم » عند احتدام المعركة هما الحائل دون احرازهم للنصر النهائى · (16)

(15) Graulle p. 43

(16) تتضارب الروايات حول عدد جيش بوعمامة ، فالرسمية منها تقدره بخمسة آلاف رجل ، أما جرول فيقدره بحوالى 2700 ، بينما نجد الوثائق العسكرية تشير الى 2300 · وهذا العدد الاخير هو المعتمد عندنا ، وهو لا يبعد كثيرا عما ذكره جرول أنظر : Graulle p. 43

والواقع ان انهزام الجيش الفرنسى مرده الى جهله بالاسلوب الجديد ، أسلوب الكر والفر السريعين ، ثم الى ما لم يكن فى حسبان القيادة : اقدام الثوار الذى لم يتمكن العدو نفسه من اخفائه (17) ، وأيضا الى نقص الانضباط فى صفوف الجيش الفرنسى (18)

ولعل حصيلة المعركة ، ثم أثرها المباشر على الجانبين هما الكفيلان بتحديد الجانب المنتصر من المنهزم ·

فالروايات الرسمية حول ضحايا الطرفين فى المعركة تتضارب ، فقد قدرها الكولونيل اينوسنتى فى تقريره الى وزير الحربية الفرنسى بسبعة وثلاثين قتيلا وستة عشر جريحا من بينهم ضابط وأربعة من المفقودين من جانبه فى حين قدر ضحايا بوعمامة بما يقارب ثلاثمائة · (19)

وفى تقرير عن الولاية العامة ، تجد ضحايا « مولاق » بهذا الشكل : ثمانون عن الجانب الفرنسى من بينهم أربعة وثلاثون قتيلا وستة وعشرون مفقودا ، وأربعمائة من جانب الثوار بدون تفصيل · (20)

أما الجرحى الفرنسيون فى المعركة فقد صرحوا بأن الرقم الحقيقى للضحايا يفوق كثيرا الارقام الرسمية (21) · وفى رسالة لجندى شارك فى المعركة ، بعث بها الى والديه بالجزائر أكد فيها بأن عدد القتلى الفرنسيين بلغ ثمانين ، وأن عدد جرحاهم بلغ مائة وعشرة · (22)

ومهما تضاربت الارقام المذكورة فهى كلها تقريبية (23) ، لكن المؤكد هو أن السلطات الرسمية قد أخفت عن قصد الحقيقة التى أسفرت عنها معركة « مولاق » لاسباب منها :

(17) A.G. H 376. Rapport sur la situation en Algérie jusqu'au 10 juin 1881, p. 5 et ordre Général du 24 mai 1881, voir également Dépêche Télégraphique du 20 mai 1881.

(18) Graulle p. 44

(19) *Dépêche télégraphique* du 20 Mai 1881.

(20) *Rapport sur la situation en Algérie jusqu'au 10 Juin 1881,* p. 5 A. G. H 376

(21) *AKHBAR, Journal de l'Algérie,* (6, 7, 8 Juin 1881) n° 7753.

(22) نفس المصدر ( 9 جوان 1881 ) رقم 7754 ·

(23) ذكر جرول Graulle فى ص 48 ، عدد الضحايا في «مولاق» هكذا : من الجانب الفرنسى 60 قتيلا و 22 جريحا · ومن جانب الثوار : مائتان · وهى أرقام مقبولة لانها جاءت بعد مرور الزوبعة ·

أولا : اضعاف صدى انتصار بوعمامة ، والتشكيك فيما كان قد أذيع بين القبائل من أن « بوعمامة قد أباد الجيش الفرنسى » (24) حتى لا تنتشر عدوى الثورة بين الصحراويين .

ثانيا : التقليل من أهمية ثورة بوعمامة فى نظر السكان الاوروبيين ، تهدئة لفزعهم ، وتخفيفا من غضبهم على العسكريين المتهمين « بالغفلة وقلة اليقظة » (25) .

ثالثا : رفع معنويات الجيش الفرنسى عن طريق الاشادة بانتصاره فى موقعة «مولاق» والتنويه بكل من الكولونيل اينوسنتى والجنرال سريز CEREZ على لسان وزير الحربية ورئيس الجمهورية ، وذلك فى « أمر عام » صادر عن قيادة الاركان العامة . (26)

أما الاثر المباشر للمعركة فقد كان سيئا بالنسبة للكولونيل اينوسنتى ، جعله يتجه نحو خريذر KREIDER فى الشمال (27) عوض العودة الى البيض « جيرفيل » تجنبا للقاء آخر مع بوعمامة قد يقضى على جيشه . ولو كان الكولونيل اينوسنتى قد انتصر حقا فى «مولاق» لما تباطأ فى اللحاق ببوعمامة الذى كان معسكرا بمقربة منه (28) . ثم ان اختفاء الكولونيل اينوسنتى بعد ذلك وحلول الجنرال ديتريه DETRIE محله قد يكون من أثر الصدمة التى منى بها فى «مولاق » .

وفى المقابل كان أثر المعركة مشجعا لبوعمامة جعله يتجه الى مدينة الابيوض سيدى الشيخ لاعداد مسيرته الطويلة التى سنتعرض لها بعد قليل .

وهكذا يتبين أن السلطات العسكرية والمدنية قد عملت على تحويل الهزيمة الى انتصار ، وباتت موقعة « مولاق » لفترة طويلة ، بفعل التضليل وتغطية الحقيقة من نصيب الجيش الفرنسى وأمجاده .

---

(24) وقد أذاع هذا الخبر « القوم » المسرحون بعد معركة « مولاق » . انظر نفس المصدر ص 49 .

(25) نفس المصدر ص 15 .

(26) Ordre général du 24 Mai 1881 A. G. H 376.

(27) انظر الخريطة الاولى ص 8 .

(28) يذكر BEZY ص ، 46 بأن بوعمامة في ليلة 20 ماى كان على بعد اثنى عشر كيلومترا فقط من المعسكر الفرنسى . وفى ليلة 21 ماى دب الخوف فى المعسكر الفرنسى بسبب اقتراب رجال بوعمامة منه .



البحر الأبيض المتوسط
نهر الشلف
وهران
المحمدية (بيريقو)
تيارت
غليزان
بلعباس
تلمسان
مغنية
وجدة
سبدو
رأس الماء
العريشة
عين تانغ
الضاية
الجعافرة
سعيدة
فرندة
تاخمارت
سوقر
مرحوم
سيدي خويلفة
بريزينة
البيض (جريفيل)
خنق العزيز
أفلو
قبائل الأغواط
الأغواط
طويالة
ستيتن
الشط الغربي
عين بن خليل
أوقلات النيكة
مشرية
الغاسول
مولاق
الأربعات
متلالة
بوسمغون
عين العجراء
الأبيوض سيدي الشيخ
حجاز الفوقاني
حجاز التحتاني
خنق زوبية
فقيق
الأعوج التحتاني
وادي زوزفانة
فندي
المغرب الأقصى
المصطلحات :
السكة الحديدية .
الخط الفاصل بين التل والصحراء .
المكان الذي جرت فيه معركة مولاق

أما الحدث الثانى فى هذه المرحلة من الثورة فهو مسيرة بوعمامة نحو التل اثر موقعه « مولاق » • وتمثل المسيرة التى استغرقت ثلاثة وعشرين يوما ( من 28 مــاى الى 21 جوان 1881 ) انتصارا ثانيا لبوعمامة على الجيش الفرنسى • ذلك أن المتتبع لها ( انظـر الخريطة التالية ) يندهش لنجاحها ، ويلاحظ بوضوح عجز الجيش الفرنسى عن اللحـاق ببوعمامة والتصدى له فى معركة فاصلة ، بالرغم من حالة الاستنفار القصوى للجيش الفرنسى طيلة هذه المسيرة •

انتظم الجيش بقيادة الجنرال سريز قائد الناحية الوهرانية فى طوابير كثيرة ، هدفها تطويق بوعمامة ، والحيلولة ، بجميع الوسائل ، دون تقدمه نحو التــل • وقــد انيطت بكل طابور مهمة معينة ، فكلف طابور الكولونيل برينتيير BRUNETIERE المتمركز فى قرية مدريسة جنوب مدينة فرندة بمنع بوعمامة من التقدم الى اقليمى فرندة وتيارت ، وفى نفس الوقت كلف طابور آخر يقوده الجنرال ديتريه DETRIE بالاتجاه شرقا الى خنق السوق لاعتراض طريقه • أما الكولونيل مالاريه MALLARET فقد تكلف بحراسـة ممر كريدر الاستراتيجى والنواحى التى يتحكم فيها (29) ، هذا فى الوقت الذى كـان طابور جانين JANNIN يقوم بمراقبة المنطقة الممتدة بين قـــورم والعريشة (30) فى الغــــرب •

وكانت هناك طوابير ثانوية كلفت بنفس المهام ، فقد كان طابور الرائد دى فيلهـول FILHOL متمركزا فى عين سوان ، وعلى استعداد للسير الى قريـــة سفيسفا • وكان طابور الرائد لافون LAFON بقرية عين عطاب على أهبة الاتجاه الى دبروس • أما الرائـد سهير SEHURR فقد كان على رأس طابوره بسعيدة ينتظر اشارة السير نحو قريـة مصبـــــاح •

وباختصار فقد كان الجيش المؤلف للطوابير يفوق كثيرا جيش بوعمامة ، بحيث كـان طابور الكولونيل مالاريه وحده يساوى جيش بوعمامة عددا (31) • ومع ذلك تمكن هذا

(29) Croquis de la Marche de BOUAMAMA. A. G. H 376.
(30) BEZY, p. 53

الاخير من اجتياز الحد الفاصل بين التل والصحراء ، بالرغم من التعاليم العسكرية الصارمة بمنعه من الوصول الى التل · (32)

ويصف العسكريون الفرنسيون فى تقاريرهم اختراق بوعمامة للحد المذكور ، واقتحام صفوفه للجيش الفرنسى « بالعملية الجريئة » (33) ·

وفعلا ، يلاحظ الباحث حيرة الجيش الفرنسى أمام نجاح المسيرة ، كما يلاحظ من خلال الخريطة سير الطوابير الفرنسية ضمن حلقة مفرغة نتيجة تدويخ بوعمامة لها · (34)

ويرجع نجاح بوعمامة فى مسيرته هذه ، فى نظرنا ، الى الاسباب التالية :

1 ـ سرعة تنقله التى حيرت القادة العسكريين (35) ، والتى نسج حولها العامة قصصا مستوحاة من القوة الغيبية ، العاملة ، فى نظرهم ، على نقل بوعمامة بين أماكن متباعدة فى وقت قصير · (36)

2 ـ معرفته بالمسالك الصحراوية وبطرق السير فيها ·

3 ـ علمه بتحركات العدو وبمضارب القبائل الصحراوية ، عن طريق عيونه العارفين بطبيعة البلاد ·

---

(31) كان طابورا الكولونيل مالاريه ، والجنرال ديتريه يتكونان بالشكل التالى :

| | |
|---|---|
| طابور ديتريه : | طابور مالاريه : |
| فليقان 1200 | قوم ماطر 800 |
| فصيلتان 250 | فصيلتان 300 |
| فرقة مدفعية 40 | فيلقان 1100 |
| المجموع | فرقة مدفعية 50 |
| 1500 | 2250 |

وللمزيد من الاطلاع ، انظر Marche de BOUAMAMA A. G. H 376

(32) نفس المصدر Télégramme du 10 Juin 1881

(33) نفس المصدر Télégramme du 13 Juin 1881

(34) Guy de Maupassant, *Au Soleil*, Louis Conars, libraire-éditeur, Paris 1902, p. 35

(35) Télégramme du 10 Juin 1881. A. G. H 376

(36) *Akhbar de l'Algérie* (Samedi 18 Juin 1881), n° 7762. ، كانت سرعة بوعمامة أثناء مسيرته التى استغرقت 23 يوما بمعدل 31 كيلومترا فى اليوم . بينما كان معدل سرعة الطوابير الفرنسية 26 كيلومترا فقط انظر Marche de BOUAMAMA. A. G. H 376.

4 ـ اعتماده اسلوب التضليل بافشائه الاشاعة الكاذبة • (37)

5 ـ اخفاؤه لرأس قافلته على العدو بتفريعها الى فروع ، يتعذر على العدو معه معرفة مكان القيادة منها • (38)

وخلال المسيرة التى استغرقت ثـــلاثة وعشرين يوما ، والتى قطـــع فيها بوعمامة سبعمائة وثلاثين كيلومترا ، قام الثوار بتنفيذ عراقيل " Sabotages " (39) ، والاستيلاء على المواشى والحبوب التى للقبائل الموالية للسلطة ، ومهاجمة مـراكز الشركة الفرنسية للحلفاء التى كان أكثر ضحاياها من العمال الاسبان • (40)

وتنتهى مسيرة بوعمامة بوصوله الى بوسمغون فى الجنوب الغربى بتاريخ 21 جوان 1881 ، (41) ولم تكن «مثقله بالغنائم» ، (42) على حد تعبير التقارير العسكرية فحسب ، بل كانت أيضا ضخمة بشريا ، لان بعض القبائل فضل الثورة ومواكبة المسيرة على البقاء تحت سلطة فرنسا • (43)

أما جماعة الكولون والقبائل الموالية للسلطة فان صدى المسيرة قد ترك فى أوساطها جوا من الشعور بالخطر وانعدام الامن ، جعلها تفر الى ما وراء الخط الفاصل بين التـــل والصحراء • (44)

---

(37) Graulle, p. 92.

(38) يلاحظ فى الخريطة تفرع القافلة الى ثلاث اتجاهات بقرب تيرسين ، الاول نحـــو سفيد ومحروم والثانى نحو الهدمة وسيدى خليفة • أما الثالث فنحو عيون البرانس وعين الحجـــار •

(39) BEZY, p. 52. تتمثل هذه العراقيل فى قطع خطوط التلغراف بين فرندة والبيض فى 28 ماى ، وفى الاول والثالث من شهر جوان •

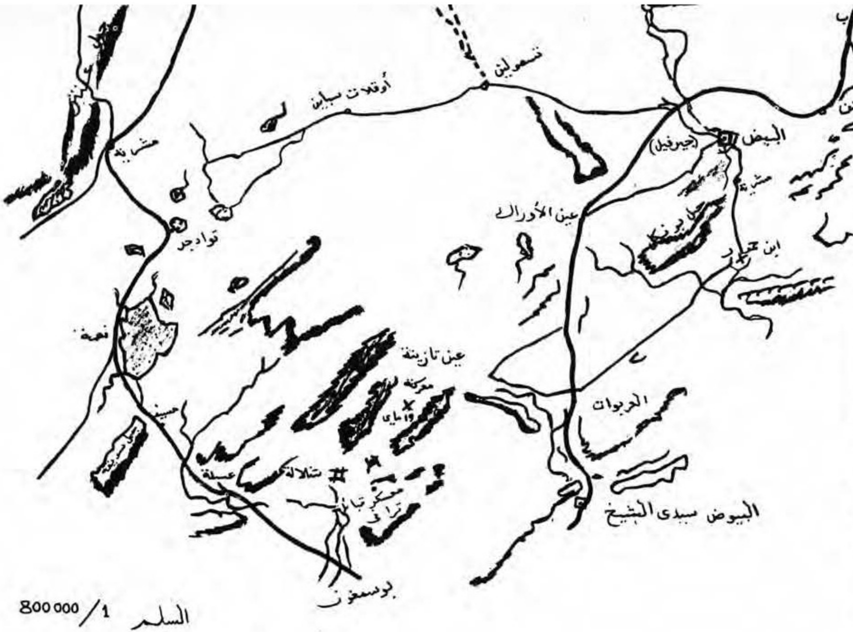
(40) Marche de BOUAMAMA. A. G. H 376. قتل من الاسبان أثناء الهجوم 180 شخصـــا وأسر منهم خمسون •

(41) نفس المصدر •

(42) نفس المصدر . 13 Juin 1881

(43) منها قبائل الاغواط "Les Laghouat du KSEL" التى انضمت اليه عند سيدى ناصر ، وبعض قبائل الاحرار .Marche de BOUAMAMA, télégramme du 13 Juin 1881 A. G. H 376

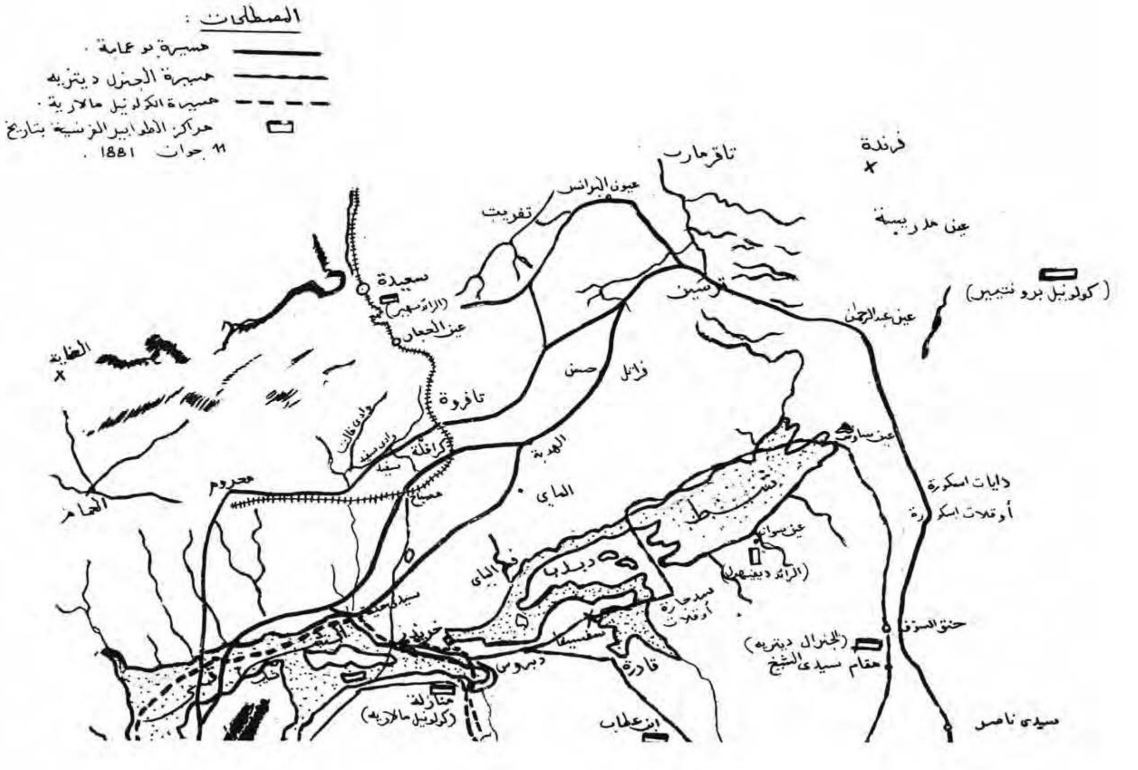
(44) كانت القبائل التى هاجمها بوعمامة هى الحساسنة وبعض قبائل الاغـــواط • أما الكولون فقد غادروا مزارعهم ، فى الوقت الذى فضلت قبائل أخرى النزوح الى المغرب الاقصى على البقاء فى جو من انعدام الامن •




| | |
|---|---|
| 5/28 | البيوض سيدي الشيخ |
| 29 | الجربوات |
| 30 | عين الأوراك . |
| 31 | أمام البيض (جرفيل) |
| 6/1 | ستيتن |
| 2 | عين الرشاب |
| 3 | سيدي الناصر |
| 4 | خنق السوق |
| 5 | اسكورة |
| 6 | سيدي عبد الرحمن |
| 7 | تيرسين وبوعمار |
| 8-9 | عيون البرانس وزاتل حسن . |
| 10-11-12 | الهدبة، كافلة الماي، تاقزوة . |
| 13 | سفيد ، سيدي خليفة ومحروم . |
| 14 | شايب |
| 15 | عين فيكاربن |
| 16 | حشرية |
| 17 | توادجر |
| 18-19 | النعجة |
| 20 | عسلة وتيوت |
| 21 | بوسمغون |

السلم 1/ 800000

المصدر : H.376 . Archives de Guerre .


المصطلحات :
مسيرة بو عمامة .
مسيرة الجنرال ديتريه
مسيرة الكولونيل مالاريه .
مراكز الطوابير الفرنسية بتاريخ
٢٩ جوان 1881 .
فرندة
تاقرمارت
عيون البرانس
تفريت
عين هلربسة
سعيدة
(الرائد سعيبر)
عين الحجار
ترسين
(كولونيل برو نتيير)
عين عبد الرحمان
الطاية
تافروة
حسن
وائل
عين ساوس
كرافلة
وادي سيد
الهدية
دايات اسكورة
أوقلات اسكورة
المحروم
مصباح
الماي
الحمام
عين سوان
(الرائد ديتيهرل)
الماي
ديلبا
سيدي خريرة
أوقلات
حنق السوق
(الجنرال ديتريه)
مقام سيدي الشيخ
خريذر
دبروس
قادرة
منازلة
(كولونيل مالاريه)
ابن عطاب
سيدي ناصر

والواقع أن رجوع بوعمامة الى الجنوب بعد اجتيازه الموانع والوصول الى قرية ترسين فى الشمال لا يبرره ، فى نظرنا ، حرسه على الغنائم التى غنمها كما يذهب الى ذلك بعض الكتاب الفرنسيين فى تحليلهم ، (45) اذ لم يكن بوعمامة يشكو عوزا ماديا • واذن ما سبب رجوع بوعمامة الى الجنوب قبل استغلال انتصاراته فى تعميم الثورة ونشرها على نطاق واسع ؟

فهل رأى الكفاية فيما اظهره من سطوة ونفوذ ، أم أن السبب فيما رآه من تزايد فى الجيش الفرنسى ، وفى عداء بعض التليين له •

ان انعدام المراجع العربية ، لا يساعد على الاجابة بشكل جازم • لكن نفترض أن تكون من جملة الاسباب •

1 ـ شدة مقاومة « القوم » لثورته بقيادة آغا فرندة الحاج صحراوى عند وصوله الى المناطق التلية •

2 ـ رفض بعض القبائل التلية لزعامة بوعمامة والتشكيك فى أمره •

3 ـ منافسة بعض الشيوخ له وشنهم حملات عليه للحط من قيمته وقيمة ثورته(46)

ولعل هذه المنافسة تندرج ضمن النفوذ الروحى للطرق الدينية ، فبوعمامة ينتمى الى الطريقة الشيخية (47) ، بينما ينتمى سكان التل الى طرق أخرى كالشاذلية والقادرية (48) •

واذا كان تراجع بوعمامة نحو الجنوب الغربى قد تم لسبب أو لآخر ، فلماذا عاد من جديد الى الشمال فى مطلع شهر جويلية 1881 • يبدو أن عودته كانت بقصد اخضاع

(45) Graulle p. 69.

(46) هناك مخطوط بعنوان القول الاوسط فى اخبار من حل بالمغرب الاوسط للحاج أحمد بن عبد الرحمن الشقرانى الراشدى ، يتحامل فيه صاحبه على بوعمامة •

(47) تفيد بعض التقارير بانتماء بوعمامة الى الطريقة السنوسية : انظر :
Septembre 1881 A. G. H 376

انظر أيضا
Wachi (colonel) *l'Insurrection de BOUAMAMA* (1881-1882) dans *Revue Tunisienne* (1901), p.354

(48) لاخذ نظرة عن الزوايا فى القطر الجزائرى انظر :
Auguste Bernard et R. de Flotte de Roquevaire, *Atlas d'Algérie et de Tunisie*. Service Cartographique du gouvernement général de l'Algérie 1925.

قبائل الحرار الشراقة ، القاطنة بمنطقة تيارت ، والتى قاومته بشدة ، وكذلك لاخضاع كل من « قوم » فرندة و « قوم » آغا ادريس · (49)

وعلى أى حال فقد عاد بوعمامة الى الجنوب الغربى من جديد فى حدود 14 جويلية 1881 · ومنذ هذا التاريخ كانت التقارير تفيد بوجوده بمدينة فقيق حينا ، (50) وببلبالة حينا آخر (51) ، وتبقى الاخبار ترد من هناك عن استعداداته للثورة من جديد ، وعن بعض مناوشاته للجيش الفرنسىالملاحق له الى أن تنقطع عنا أخباره فىحدود أفريل 1882 · (52)

وبينما كانت الاخبار عن بوعمامة تقل مع خريف 1881 ، فاذا بأخبار ثورة سى سليمان وسى قدور بن حمزة (53) ، وكلاهما من أولاد سيدى الشيخ، تجوب صحراء جنوب الغرب الجزائرى ، وبالرغم من أن التقارير العسكرية كانت تشير الى التنسيق بين بوعمامة من جهة ، وسى سليمان وسى قدور من جهة أخرى لضمان استمرار المقاومة وتدعيمها (54) فان التنسيق الفعلى بينهم لم يتم فى هذه المرحلة التى درسناها ·

---

(49) Télégramme du 10 Juin 1881. A. G. H 376.

(50) نفس المصدر · تقرير من قائد تيوت TIOUT الى الجنرال كولونية ، وتقرير آخر من قائد سفيسفا الى نفس الجنرال ·

(51) نفس المصدر
Note de service du Général DELEBECQUE du 5 Décembre 1881 et dépêche télégraphique du 9 - 12 - 1881.

(52) Graulle p. 118-119.

(53) Télégramme du 17-11-1881 et dépêche télégraphique du 9-12-1881 A. G. H 376.
سى سليمان هو رئيس قبائل أولاد سيدى الشيخ الغرابة ، حارب الفرنسيين سنة 1864 ، لكنه سلم نفسه اليهم سنة 1869 · وقد أعطى لقب آغا على قبائل حميان حتى سنة 1873 ، عندما أقيل من منصبه ، وحبس بعين تموشنت ، وتمكن فى الاخير من الهروب الى المغرب الاقصى · وفى 17 نوفمبر 1881 شن هجوما بجيش قوامه ثلاثمائة فارس على قبائل حميان الشمافة ، وعكرمة ، وأولاد منصورة ، وهى قبائل كانت موالية لفرنسا ، والحق بها خسائر جسيمة فى الارواح والاموال ، ويبدو أنه قتل فى مطلع سنة 1883 ·
أما سى قدور بن حمزة فهو رئيس قبائل أولاد سيدى الشيخ الشراقة ، ومعه عقدت فرنسا الصلح سنة 1883 · انظر
Etat des pertes éprouvées par les tribus razziées. A. G. H 376 par Si Slimane. Voir également télégramme du 17-11-1881.

(54) نفس المصدر
Correspondance du 4 Décembre 1881 du Général Delbercque au Colonel Commandant de Méchéria et note de service du 5 Décembre 1881.

وتعتبر المرحلة المدروسة من الثورة ، فى نظرنا ، من أهم مراحلها · ولئن تعـــذر علينا تقييم الثورة كاملة الآن ، فان مرحلتها الاولى كانت ، بالتأكيد ، فى صالح بوعمامة على الصعيدين ، الشعبى والعسكرى · فعلى الصعيد الاول تمكن بوعمامة من كسب ثقة بعض القبائل ، وجرها الى العصيان والثورة · وعلى الصعيد الثانى ، كنا قـد أشرنا الى مسيرته التى دوخ بها القادة العسكريين ، حتى أن البعض منهم كان يتجنب مجابهتـــه وتعرض سبيله · (55)

اما الفتور الذى أصاب الثورة بعد سنة من اندلاعها فيرجع الى عوامل منها : حصــر السلطة الفرنسية للثورة داخل نطاق الصحراء ، وعزل القبائل الصحراوية نفسها عـن الثورة بالضغط عليها ونهب أموالها (56) ، ومنها التوقيع بين القبائل بقصد تفريـق كلمتها ، والعمل أيضا على كسب بعضها بالمال والجاه · ولا حاجة الى ذكر الدور الذى لعبه القياد عامة ، والآغا صحراوى والباشاغا السيد أحمد ولد القاضى خاصة فى اضعاف ثورة بوعمامة (57) ، أما العامل القوى الذى أضعف الثورة فيتمثل فى الشقاق الذى أحدثته السلطة بين قبائل أولاد سيدى الشيخ نفسها ، وذلك فى الوقت الذى كان شيوخها فى محاولة تنسيق ثورى كما سبق أن أشرنا (58) ، واخيرا ، كانت المراكز الفرنسية التى اقيمت فى عين الصفراء وفى غيرها ، وكذلك الخط الحديدى الواصل الى كولون بشـــار عاملا من عوامل عزل الثورة نحو اقصى الجنوب الغربى ·

وكان من نتائج هذه المرحلة من الثورة :

---

(55) Graulle p. 60. · كان الكولونيل مالاريه Mallaret هو الذى تجنب لقاء بوعمامة · وقد احيل الكولونيل المذكور على التقاعد فورا ·

(56) Télégramme du 10 juin 1881 du Commandant supérieur de Tiaret au Bach Agha de Frenda A. G. 376.
انظر أيضا BEZY ص 54 ·

(57) A. G. 376. انظر رسالة من قائد تيوت الى الجنرال كولونية ، ورسالة أخـرى من قائد سفيسفا الى نفس الجنـــرال · انظر نمـــاذج من مراسلات القياد الى العسكريين الفرنسيين فى آخر المقال ·

(58) نفس المصدر .Dépêche télégraphique du 15-12-1881 et télégramme du 5-11-1881

1 ـ استمرار الحكم العسكرى فى الصحراء وتدعيمه ·

2 ـ شعور الولاة العاميين بضرورة مراجعة اتفاق 18 مارس 1845 بشأن الحدود الجزائرية المغربية وتحديد معالمها بشكل واضح ·

3 ـ القضاء على خرافة كون عهد الثورات فى الجزائر قد انتهى بفشل ثورة المقرانى سنة 1871 ·

وعلى أى حال فان انتهاء المرحلة الاولى من ثورة بوعمامة لم يتم عن طريق نصر عسكرى فرنسى كما كان الحال بالنسبة للثورات الجزائرية السابقة وانما كان عن طريق منح الامتيازات لذوى النفوذ فى الصحراء الوهرانية مقابل الولاء، كان ذلك فى ماى 1883 · (59)

أما بوعمامة قائد الثورة ، فقد كان فى هذه الفترة بمدينة دلدول ، ويبدو أنه قد اعتزل المقاومة الى حين · وستكون شخصيته ، وأسباب ثورته موضوعا لمقال ثان ان شاء الله ·

---

(59) كانت هناك محاولات سابقة للوصول الى الاتفاق مع قبائل أولاد سيدى الشيخ · أما الاتفاق الاخير الذى تم بتاريخ 8 ماى 1883 · فقد كان على أساس ما يلى :
1 ـ تتكلف الحكومة الفرنسية باعادة بناء قبة البيوض أولاد سيدى الشيخ ، التى هدمها الكولونيل نيقريية NEGRIER
2 ـ وتتكلف الحكومة أيضا بدفع مرتب شهرى مبلغه 60.000 ف الى سى قدور والى أفراد عائلته أولاد سيدى حمزة ، كتعويض على الحجر المضروب على ممتلكاتهم خلال ثورة 1864 ·

Le Caïd de Sfissifa au Général Colonieu

---

J'ai reçu votre lettre & j'ai été heureux de la lire. Si Bou amama est passé de l'Est à l'ouest; pendant sa marche il a campé à Tiout; ses gens meurent de faim, ils n'ont pas d'orge et c'est par force qu'ils se sont réfugiés au Maroc.

El hadj ali ould taleb ben Cheikh, Khalifa des Derraga (parent du Caïd Cheikh Ould Bou tekhil) & un homme des Harrars qui avec leur famille ~~n'avaient~~ ont pas voulu suivre Si Bou-amama sont restés à Ain-Sfissifa. Prévenu de ce fait par un cavalier Si Bou amama est revenu sur ses pas à deux reprises différentes et en augmentant chaque fois son goum pour emmener de force El hadj ali & son compagnon. Ces deux indigènes m'ont laissé des lettres et m'ont donné toutes les nouvelles que je vous rapporte. ils me disent la vérité. El hadj ali a suivi Si Bou-amama au Maroc pendant deux étapes, mais alors il s'est sauvé seul et est revenu à Sfissifa. A la nouvelle de cette fuite Si Bou amama a fait arrêter la famille d'El hadj ali & de son compagnon des Harrars et a voulu leur prendre tout ce qui leur appartenait. Ceux-ci ont donné 4.000 f à Bou amama pour qu'il les laisse en paix mais ils n'en ont pas moins été obligés de repartir de force avec lui. Actuellement El hadj ali est revenu à Sfissifa (le sens est très obscur)

Cet indigène m'a dit qu'avec 300 chevaux on pourrait enlever Si Bou amama; celui-ci et ses gens campent depuis Feratis (près Galoul) jusqu'à Tigri. Les Laghouat étaient à Figuig, ils se sont battus avec les Ahmour; il y a eu de chaque côté 2 morts et des troupeaux razzés. Les Laghouat ont demandé aux Doui-menia & aux Oulad Djerir, d'envoyer un miad à Figuig pour qu'ils puissent s'entendre avec eux

Ils leur ont également demandé de les laisser passer pour aller rejoindre Sid Kaddour ben Hamza; les Douil menir & les Oulad Djerir ont refusé en invoquant les ordres du Sultan. Après ce refus, les Laghouat se sont rendus à Souf Kteur, auprès de Si Bou-Amama. Tous ces gens meurent de faim ils demandent à acheter l'orge à 5.f le kharrouba et ne peuvent en trouver; ils cherchent à vendre un cheval pour 5.f un mouton pour 0.f 50 un bœuf ou un âne pour 1.f Ils ne peuvent trouver d'acheteurs. Tous se repentent d'avoir quitté leur pays; ils disent que leur malheur vient de Si Bou-Amama qui les a indignement trompés; aussi ils veulent l'abandonner. Le Marabout a fait transporter tous ses effets à Figuig. Tous les Arabes sont prêts à revenir entre vos mains. Gardez bien le poste Géryville car c'est votre poste avancé. Beaucoup de gens veulent la paix; pour moi je suis avec vous et je vous donnerai toutes les nouvelles qui me parviendront.

الحمد لله وحده

الى سعادة المعظم الارفع الهمة الانفع الرئيس الكرونيل

دام العسكرية السلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد يا نعم السيد وقد اتانا

امرك على سبيبة ان نبعث بعدد الخيام الذي ابعد والا تلزمنا العقوبة فتراه من يوم اتانا امرك

واناوا فعدنا فيه على ساق الجد من غير تراخ وهذا الامر كثير عرشي كله مدروس

من متاعه وغدا ان شاء الله يبيتنا نبعث بهم جميع ما خصه نكمله في هذه

الليلة ولا تحسب ذالك منا تفريط او تراخ لان العرش كثير كما لا يخفاك

والسلام من قايد الغرابة الطالب المكوني [illegible] عمر الله وتاريخه ٦ من المحرم عام ١٣٢٨

Le Caïd des Akerma rend compte qu'il ne pourra remettre les états des pertes subies par suite de l'incursion de Si Slimane que demain matin.

# المقاومة فى الجزائر
# 1848 _ 1830

د. محمد العربى الزبيرى
كليـة الآداب _ جامعة الجزائر

## _ 2 _



**يكاد جميع المؤرخين يحصرون حركة الكفاح المسلـح بالجزائر ، اثناء الفترة ما بين 1830 و 1848 ، فى مقاومة الامـير عبد القادر للفرنسيين ، وذلك عـلى الرغم من ان الامير لم يدخل المعركة ، كقائد ، الا بعد عامين من نزول القوات الفرنسية على شواطىء سيدى فرج .**

**ويتعمد نفس هؤلاء المؤرخين غض النظر عن كل مـا قام به أحمد باى فى مجال الدفاع عن سيادة البـلاد ، وذلك على الرغم من ان مقاومته ظلت مستمرة من قبل يوم النزول الى ما بعد استسلام الامـير عبد القادر بحـوالى سنة كاملة .**

واذا كان هؤلاء المؤرخون يقصدون التقليل مـن روح المقاومة لـدى سكان الجزائر ، وابعاد أحمد باى عن التاريخ البطولى الذى سجلته بلادنا ، فان موقفنا ، نحن ابناء المغرب

العربى بصفة عامة وابناء الجزائر بصفة خاصة ، ينبغى ان يكون مخالفا لذلك ومسايرا للحقيقة ·

وفيما يلى ، سوف أحاول ان اتعرض بنوع من الايجاز الى مقاومة الرجلين · لا أريد مقارنة بينهما لان هذا ليس هو هدفى الاسمى ـ ومن الممكن اننى اتناول ذلك على حدة فيما بعد ـ وانما لاضع بين ايدى القراء وثيقة حاوية بقدر الامكان لمعلومات اجمالية عن نشاط كل منهما ومجهوداته فى سبيل الدفاع عن الارض المغتصبة ·

**أ ـ مقـــاومة أحمـد بـــاى :**

لقد كان أحمد باى كرغليا ، اى من اب عثمانى نازح وأم جزائرية · وكباحثين فان المنطق يحتم علينا أن نؤكد بأنه كان جزائريا قبل كل شىء : ولد فى الجزائر من أب ولـــد فى الجزائر ؛ بالاضافة الى انه ذلك الرجل الذى وهب حياته لهذا الوطن ولا يعرف وطنـــا ســـواه ·

واذا سلمنا للمؤرخين الغربيين الذين ذكرناهم أعلاه بان أحمد لم يكن جزائريا ، فماذا نقول عن أباطرة روما العرب والافارقة وخاصة منهم فيليبيوس أرابيكوس ذى الاصـــــل العربى كما يدل على ذلك اسمه والذى قدر له أن يحتفل باالذكرى الالف لتأسيس رومـا ؟ وعن بونبرت الذى جاء الى فرنسا من جزيرة كورسكة ؟ وعن الامراء والملوك الغرنسيـــين الذين ينحدرون من سلالة بريطانية ؟

واذا أردنا ، نحن كجزائريين ، أن نجرد أحمد من الجنسية الجزائرية ، يجب قبل ذلك أن نطرح على أنفسنا السؤال التالى : لماذا أعطيت الجنسية الجزائرية لكل من طلبها فمـــن انخرط من الاجانب فى صفوف جيش أو جبهة التحرير الوطنى أثناء ثورة نوفمبر 1954 ؟ هذا بالاضافة الى انه لا مجال للمقارنة بين أحمد وهؤلاء ، لان الباى لم تكن له لغة أخرى ، ولا تقاليد ولا عادات ولا أخلاق غير لغة الجزائريين وتقاليدهم وعاداتهم وأخلاقهم ، بالاضافة الى أن مفهوم القومية فى الجزائر لم يكن قد تبلور فى ذلك الحين ؛ وانما كان هنـاك فقـط الانتماء الى الدولة العثمانية المترامية الاطراف ، كما ان المفاهيم السياسية والايديولوجية لم تكن منتشرة فتمكننا من تفسير مواقف الحاج أحمد ·

أما عن حياته ، فان السيد أحمد بوضربة ، عندما قدم مذكراته الى اللجنة الافريقية سنة 1833 ، يذكر بان الباى كان يبلغ من العمر فى ذلك الوقت 47 سنة ؛ الامر الذى يجعلنا نحدد تاريخ ازدياده بعام 1786 ، وقد كان يسمى باسم أمه ، فيقال الحاج أحمد ابن الحاجة رقية. وهى من أسرة ابن قانه المعروفة فى الصحراء. وأبوه هو محمد الشريف خليفة حسن باى الذى تولى الحكم بعد صالح باى المتوفى سنة 1792 ؛ وأما جده فهـــو الباى امحمد القلى الذى حكم قسنطينة مدة ست عشرة سنة ابتداها عام 1755 ، والذى يقول عن الحاج امحمد المبارك في «تاريخ حاضرة قسنطينة». انه رجل عاقل صالح عالـم بتسيير شؤون البلاد .

وقد نشأ أحمد فى بيت أخواله ، فشب على حياة البداوة ، وتعلم الفروسية ، وتدرب على القتال ، فكان رجلا حاسما وشجاعا لا يعرف التردد عندما يجب الفصل فى القضايا . وان هذه الصفات الخليقة بكل مسؤول هى التى جعلت الايالة تعينه ، وهو لم يتجاوز الثلاثين خليفة لباى قسنطينة التى هى أكبر المقاطعات فى الجزائر واهمها فى جميـــع النـواحى .

ولقد اظهر احمد ، أثناء ممارسته هذه المسؤولية الجبارة ، مهارة كبيرة وخبرة واسعة فى اكتساب ثقة الاهالى وضمان تعاونهم معه ، بحيث انه ، عندما وقع الخلاف بينه وبين رئيسه ، وأمر هذا الاخـير بحبسه ، وجدناه يحظى بمساعدة أعيان المـدينة والبايلك بصفة عامة لمغادرة المكان والتوجه الى العاصمة بسلام .

وفى منفاه ، ظل الباى متمسكا بسيرته الأولى ، فكان يبرهن على شجاعته ، وتفانيه كل ما دعى للمساهمة فى عمل من الاعمال . وفى البليدة استطاع ان يثير اعجاب يحيى آغا باستقامته واخلاصه ؛ وانقلب هذا الاعجاب محبـة بعد تجارب طويلة ، وخاصـة بعد الدور الذى لعبه احمد اثناء الزلزال الذى اصاب البليدة سنة 1825 . ولذلك رأينا الآغا ، صاحب النفوذ والسلطان فى ذلك الحين يتدخل لدى الداى ، ويحصل للحـاج على العفو فى مرحلة أولى ، ثم على البايلك فى مرحلة ثانية سنة 1826 .

هكذا ، حصل احمد على هذا المنصب باستحقاق . وبمجـــرد ما تسلـم مسؤوليته الجديدة شرع فى تنظيم الامور والقضاء على الفوضى . وتبين من خلال هذه الاعمال أنـــه

قائد مقتدر له من الدهاء العسكرى والسياسى ما لم يتوفر لسابقيه • ولذلك تمكن من البقاء اثنتين وعشرين سنة على الرغم من المشاكل والمحن ، ومن المجهودات والتضحيات التى بذلتها فرنسا للقضاء عليه •

لقد شارك احمد باى فى اشغال المجلس العسكرى الذى كلفه الداى بدارسة الوضع وتحديد الخطة التى يتحتم على الجزائر اتباعها لصد العدوان الفرنسى • ولم يكن موافقا على آراء رئيس المجلس الذى هو فى نفس الوقت صهر الداى ولكنه كان مضطرا ، بعد ان أبدى رأيه بصراحة وتاكد من اصرار قائد القوات وتماديه فى خطته ، على قبول القرار المجمع عليه • ولم يكن فى امكانه ان يفعل غير ذلك خاصة وانه قادم من منطقة بعيدة وليس له ما يكفى من الجنود والعتاد ما يسمح له ، لو تمرد ، بتكوين جيش مستقل (39) •

وهكذا دخل المعركة وهو متيقن من انتصار القوات الفرنسية • ولما سلمت مفاتيح العاصمة الى المارشال دو بورمون ، جمع الباى حوله جميع الهاربين ثم توجه الى قسنطينة. وفى أثناء الطريق اتصل برسالة من قائد الحملة الفرنسية يعرض عليه فيها الاستسلام مع الاحتفاظ بمنصبه • ولكنه رفض •

ومن الصعب جدا ان نفسر هذا الرفض فى وقت كان فيه بومزراق باى التيطرى يسعى ليحظى بثقة الفرنسيين ، وباى وهران يقف من الغزو موقف اللامبالاة •

( ولئن كان أحمد ينسب موقفه الرافض هذا الى ضرورة استشارة أهالى البايلك أو سكان مدينة قسنطينة على الاقل مدعيا انه لا يريد ان يسلك مسلكا قد يخالف رأيهم ، فاننا نرجح ، فيما يخصنا ، ان يكون هذا الموقف ناتجا عن الرغبة فى الاستقلال عن أية سلطة مركزية •

لقد كان يريد ان يجعل من بايلك الشرق باشوية تابعة للدولة العثمانية مباشرة • ومن الجدير بالذكر ان هذه الارادة تجسدت على اثر الخلاف الذى وقع بينه وبين باى التيطرى وبعد اعتزام الجنرال كلوزيل استبداله بباى آخر فاعلنا أحمد عن تكوين الباشوية وتعيين احد اعوانه المقربين ـ على بن عيسى ـ خزناجيا وأمينا للسكة التى أمر بضربها وفقا لما جرت بها العادة فى ايالة الجزائر •

(39) يذكر الباى فى مذكراته انه لم يصطحب معه سوى 400 فارس ومدفع واحد •

أما باى التيطرى ، فانه لما لم يتمكن من كسب ثقة الفرنسيين ثار عليهم ثانية وطلب من أحمد ان يعلن الولاء له بصفته اقدم منه واقرب الى العاصمة . وعندما رفض بـاى قسنطينة الاستجابة « لهذا الذى لا يعرف ماذا يريد » اعلن بومزراق عن عزله وعين مكانه ابراهيم باى الذى كان حسن قد عزله لعجزه ولعدم حيازته على شروط الحكم .

وأما الجنرال كلوزيل ، فانه ارسل الى احمد يطلب منه ان يستسلم الى فرنسة التى تتركه بايا مقابل ما كان يقدمه لرئيس الايالة من اتاوات وخدمات . ولما لم يقبل ، أمر كلوزيل بعزله وراح يتفاوض مع باى تونس لابرام معاهدة ترمى الى الحاق الشرق الجزائرى ببايلك تونس .

وامام هذه الضغوط المختلفة المصادر ، وامام كل هذه الصعوبات اختار الباى الاعتماد على النفس والاعلان عن ارتباطه بالباب العالى ؛ أولا ليلبى رغبة الاهالى الذين ما زالوا يولون بالغ الاهتمام بالخلافة الاسلامية ، ويعتقدون ان السلطان العثمانى هو صاحبها الشرعى ، وثانيا انه كان متأكدا من ان الاستانة لا يمكن ان تراقبه فى تصرفاته ، ومن ثمة يكون مستقلا فى حكمه لا يحاسبه أحد .

وفى قسنطينة ساعد غياب الباى على تدبير مؤامرة تزعمها بعض القادة العسكريين الذين ارادوا استعمال حامية الشتاء (40) لتنصيب القائد سليمان على رأس بايلك الشرق الجزائرى .

وكان من الممكن ان تكون سنة 1830 هى نهاية عهد الحاج أحمد باى ، ولكن الباشحمبا على بن عيسى (41) استطاع ان تجد السكان فالقوا القبض على رؤوس المؤامرة واعدموهم امام باب المدينة .

---

(40) تتكون هذه الحامية من مائة خيمة ، وتأوى الخيمة الواحدة ثلاثين جنديا . ويقود الحامية ضابطا برتبة آغا ، أما الخيمة فيشرف على تسييرها ضابط برتبة بولكباش .

(41) يزعم ابن قانة فى كتابه ( ص : 38 ) ان الفضل يعود اليه فى التغلب على المتمردين . فى حين يقول العنترى ( ص : 55 ) ان الشيخ لفغون هو الذى تزعم الحركة المساندة للباى . أما الحاج احمد فينسب ذلك فى مذكراته ( ص : 19 ) الى ابن عيسى .

وهكذا حقق أحمد باى انتصارين فى آن واحد • الانتصار الاول يتمثل ، طبعا ، فى القضاء على تلك المعارضة الخطيرة قضاء لم يعد بعده أى خوف واما الانتصار الثانى فيتمثل فى كون الباى استرجع سلطته على اساس متين وقاعدة شعبية ستمكنه من تنظيم نفسه كما ينبغى والاستعداد ، مرتاح البال ، لمقاومة الغزو الفرنسي •

وأول هزيمة منيت بها قوات الحاج أحمد هى احتلال عنابة النهائى الذى وقع بعد استسلام الداى بعامين•ولقد كان الفرنسيون قد استقروا فى هذه المدينة قبل ذلك ولكنهم اجبروا على الخروج فى حينهم • ولكن الجيوش الفرنسية بقيادة الضابط دارمندى فى هذه المرة ، عرفت كيف تستغل ظروفا خاصة تسبب فى خلقها الصراع الدموى بين ابراهيم باى الآنف الذكر وعلى بن عيسى الذى كلفه الباى باسترجاع المدينة مهما كانت التكاليف •

وتمركز دارمندى فى عنابة بكيفية محكمة ثم نصب يوسف المملوك قائدا لفرسان المدينة • بعد ذلك بدأ الفرنسيون يستعدون للتوسع والتقدم نحو عاصمة الشرق الجزائرية • وتفطن احمد باى لذلك ، فأمر ابن عيسى بمحاصرة عنابة وتضيق الخناق على جيش الاحتلال، لارغامه على الجلاء لان ذلك لم يعد ممكنا بعد تشييد الحصون وتزويدها بأحدث الاسلحة واثقلها ، ولكن لعرقلة عمليات الزحف الى ان تصل الامدادات من القطنطينية ؛ وكان الباى ما زال يعتقد بان الباب العالى قادر على نجدته التى هى فى الحقيقة حماية لقطعة من ممتلكات الدولة العثمانية •

واستمرت المعارك بين الطرفين حامية ، باهضة التكاليف ، اذ يذكر الدوق دوروفيكو بأن الحرب التى كانت تشنها قوات الباى على الفرنسيين قد كلفت فرنسا حوالى ثلاثة ملايين من الفرنكات فى ظرف عام واحد • (42)

ولقد كان من الممكن ان يحدث سلم بين الجانبين فى سنة 1833 لولا ذلك الحذر الشديد الذى كان يتسم به الباى • وبالفعل ، فان دوروفيكو قد عرض على احمد

(42) مذكرات احمد باى ، ص : 33 •

وبواسطة حمدان خوجة ، نوعا من الاستقلال مقابل السماح لفرنسا بتنصيب حاميتين احداهما فى قصبة عنابة والثانية فى قصبة قسنطينة ، بالاضافة الى ان ميناء عنابة يكون تابعا للفرنسيين • ولكن احمد رفض رفضا باتا ، وذلك ، فى نظرنا ، يرجع الى سببين رئيسيين : يتمثل الاول فى كون الباى لم يكن يثق بوعود فرنسا بعد ان رأى اخلالها بالعهود المضروبة قبل استسلام مدينة الجزائر ؛ ويكمن الثانى فى تواجد رسول الباب العالى بقسنطينة اثناء المفاوضات • ويقول أحمد ان هذا الرسول ابلغه بان السلطان محمود يأمر بعدم قبول أى حل دون الرجوع اليه بصفته العاهل الشرعى الذى يمثل الخلافة الاسلامية • (43)

وحينما تأكد الفرنسيون ان الباى لم يستسلم بسهولة وانه يرفض ، كليا ، جميع الشروط التى عرضوها عليه ، قرروا تنظيم حملة عسكرية يكون الهدف منها فك الحصار الذى تضربه قوات الخليفة ابن عيسى على عنابة من جهة واحتلال مدينة قسنطينة والقضاء على أحمد باى عن طريق العنف من جهة أخرى •

وتواردت على عاصمة الشرق الجزائرى اخبار الاستعدادات ، لان اهالى عنابة كانوا على اتصال دائم بالقيادة الشرعية فى قسنطينة • ويقول الباى انه عندما علم بموعد الحملة استدعى خليفته وكلفه بالدفاع عن المدينة التى كانت « مجهزة كما ينبغى بالاسلحة والعتاد الحربى » (44) ثم أمر بتجنيد حوالى ستة آلاف مقاتل وخرج معهم بنفسه الى وادى الكلاب الذى يسمى حاليا وادى الاحد للقاء القوات الاستعمارية •

لقد سلك أحمد باى طريقة حربية ممتازة • انه لم يكن يخشى على سقوط عاصمته التى تركها تحت قيادة من يثق بهم وبكفاءتهم القتالية • وكان يعرف ان مجابهة القوات الفرنسية مباشرة يؤدى حتما الى الهزيمة ؛ وعليه ترك العدو يتقدم دون مقاومة الى ان صار بينه وبين المدينة كقطعة الحديد بين المطرقة والسندان •

(44) مذكرات احمد باى ، ص : 46 •
(45) نفس المصدر ، ص : 53 •

وجاء هذا السلوك الذكى بنتائج ايجابية ، اذ حقق له من النصر ما لم يكن يتوقعه • فانهزم الجيش الفرنسى هزيمة نكراء ، وانسحب مخذولا وقوات الباى تطارده الى ان دخل ثكناته •

وهنا تجدر الاشارة الى ان احمد اخطأ فى تقديره لما بعد المعركة • وسيكلفه هذا الخطأ سقوط عاصمته فيما بعد • ذلك انه ، بدلا من ملاحقة الجيوش الفرسية والاثخان فيها ، والدخول وراءها الى مختلف الثكنات والمراكز حتى يسترجع ميناء عنابة ويستحوذ فيه على كامل معدات العدو ، ثم يدعم الحصون ويسلحها استعدادا لصد أى نزول آخر فانه فضل الكف عن الملاحقة ليشعر الفرنسيين بانه يميل الى المهادنة والسلم ، ولا يريد شرا بالقوات الفرنسية • ويعزى الباى هذا الموقف ، فى مذكراته ، (45) الى خوفه من الثأر • ان هو اباد الجيش الفرنسى ، والى أمله فى ان يوفد له الفرنسيون ، فى خضم هذه الاحداث ، من يفاوضه ويعمل معه على ارساء سلم دائمة مبنية على اسس متينة • ولكن الفرنسيين لم يكونوا يفكرون فى هذا كله ، وانما كان همهم الوحيد تضميد الجراح وتدعيم المواقع لصد الهجومات المحتملة • لاجل ذلك عاد أحمد خائبا ، رغم النصر، الى مدينته يرمم اسوارها وحصونها التى تأثرت من جراء هجومات العدو •

وهناك خطأ آخر ارتكبه الباى ويتمثل فى اعتماده كثيرا على الدولة العثمانية ، وثقته العمياء فى قدرتها على تخليص الايالة من الاستعمار الفرنسى • ولقد كان السلطان محمود يغذى تلك الثقة برسالة يكتبها من حين لآخر يضمنها كثيرا من الوعود والتعابير المهنئة والمشجعة •

وحتى عندما أراد الباب العالى أن يوفى ببعض هذه الوعود حينما ارسل الى تونس أربع بواخر مشحونة بالجنود ، وعلى متنها اثنا عشر مدفعا ومائة وخمسين من المختصين فى الاسلحة الثقلية ، فان باى تونس قد عارض ورفض السماح بانزال تلك القوات لكى لا يعرض السكان الى سخط الفرنسيين • (45)

ولما رأى الفرنسيون استماتة أحمد باى فى القتال ، وتأكدوا من تصميمه على مواصلة المعركة من أجل الحفاظ على سلطته ، وبعد فشلهم فى الدخول الى مدينة قسنطينة

---

(45) مذكرات احمد باى ، ص : 62 •

فى زعمار بالقرب من مدينة قالمة • وبالاضافة الى ذلك تدفع سلطات الشرق الجزائرى الفرنسية باقامة معسكرين احدهما فى قصبة قسنطينة نفسها وثانيهما فى المكان المسمى لفرنسا غرامة حرب قدرها مليونان من الفرنكات ، وتترك لجميع القبائل حرية الانضمام الى فرنســـا •

ولقد كان الشرط الاخير هو أقسى ما جاء فى المعاهدة لانه يقضى بالتدريج على سلطة الباى اذ يسمح للقبائل أن تنفض من حوله والالتحاق بالمعسكرات الفرنسية كلما أرادت الفرار من أداء الواجب • لاجل ذلك ، فان أعيان المقاطعة الذين جمعهم أحمــد للنظر فى العرض الفرنسى قــد أجابوا بالرفض ، وأشعروا قائد الجيوش الفرنسية بأن الحـــل الوحيد المتبقى انما هو ما تسفر عنه المعركة بين الطرفين • (46)

ويرى السيد دامرمون ان رفض أحمد باى انما كان بسبب المفاوضات التى كانت تجرى آنئذ بينه وبين الامير عبد القادر حول امكانية توحيد صفوف المقاومة • ومن الممكن أن يكون هذا الرأى صحيحا لان الفترة هى تلك التى انعقد فيها ما يسمى بمؤتمر بوخرشفة •

ومهما كان الامر ، فإن فشل المفاوضات بين القيادة الفرنسية فى الجزائر وأحمد باى قد جعل هذا الاخير يستدعى جميع قواته على الفور ويأمر قادته بضرب الحصار عـــلى المستعمرين ثم يركز هجوماته على مجاز عمار الذى يعتبر فى ذلك الوقت أهم تجمـــع فرنسى • ودامت هذه الهجومات عدة أيام لكنها لم تسفر عن نتيجة ايجابية نظرا لتفـوق العتاد الحربى عند الفرنسيين وعدم تمكن أفراد الجيش الجزائرى من السيطرة على فنيات الاسلحة الحديثة وبصفة خاصة على المدفعية التى كان لها الوزن الثقيل فى المعركة •

وشجعت هزيمة أحمد باى ، أثناء هذه المعارك المتتالية ، قيادة الجيش الفرنسى على الانتقال من الدفاع الى الهجوم ؛ وتواصل ذلك الى أن ضرب الحصـــار ثانية على مدينـــة قسنطينة التى كان يحرسها الخليفة على بن عيسى وقائد الدار محمد البجاوى على رأس جيش يضم حوالى خمسة آلاف جندى •

(46) نفس المصدر ، ص : 66 •

لقد كان أحمد متأكدا من أن عاصمته منيعة لا يمكن أن تسقط بين أيدى المهاجمين . ذلك انه استطاع بعد الحصار الاول واندحار القوات الفرنسية أن يدعم الاسوار ويخللها بمدافع كثيرة أعدها وضبط رميها جماعة من الاخصائيين على رأسهم الفنى الالمـانى شلوتسه الذى كان يعيش فى بلاط الباى .

ويذكر السيد شلوتسه هذا الحصار فى مذاكرته (47) فيعترف بان الخطة التى رسمها الباى هى خطة عسكرية من الطراز الاول ؛ وان الجيوش الفرنسية ما كانت تستطيـع الصمود أمام نيران المدافع الجزائرية لولا أن هناك خيانة دبرها هو نفسـه « خدمـة للمسيحية ، ولنفسه كى يتحرر من العبودية » . (48)

وتتمثل هذه الخيانة فى أن رمى المدافع كلها ضبط ، فى اللحظات الاخيرة ، عاليـا بحيث تمر القنابل فوق الرؤوس ، ولا يمكن تصويبها الى أهداف معينة . ويقول شلوتسه بأن نيران المدافع الجزائرية كانت ، عندما نشبت المعركة ، حامية ولكنها غير صالحـة الا لتسخين الفضاء .

وعلى الرغم من استماتة السكان فى الدفاع عن مدينتهم ، فان الجيوش الفرنسية قـد تمكنت من ثلم الحائط وتسلق الاسوار ؛ ثم اسرعت الافواج الاولى من المتسربين ففتحت الباب على مصراعيه ... وسقطت المدينة .

وكان سقوط قسنطينة ضربة قاسية بالنسبة لمستقبل الشرق الجزائرى بصفة عامة ومصرا لمآسى كثيرة تعرض لها الباى طيلة عشر سنوات أو أزيد . لقد كان احمد يعتمد اكثر ما يعتمد على أسرتى ابيه قانة والمقرانى لما كانت بينه وبينهما من اواصر القرابـة المتينة . وكانت الاسرتان تتبعانه وتؤيدانه مطلق التأييد عندما كان واقفا على رجليه ؛ أما الآن وقد زلزلت القاعدة ، فان كل أسرة اصبحت تريد جره فى ركابها لتحقق بـه مآربها فى منطقة نفوذها . وكان احمد مدركا لكل هذه المناورات ، ولكنه لم يكـن فى وسعه الاستغناء عنهما خاصة وان السلطان لم يف بوعده ، ولم يرسل له الامدادات التى

(47) مذكرات سلوتشة ، كتبها بالالمانية ونقلها الى العربية وعلق عليهـا الدكتـور أبو العيد دودو ، وهى الآن تحت الطبع .
(48) نفس المصدر .

تمكنه من مواصلة المقاومة بفعالية وبكيفية منتظمة · ولقد سبق أن تحدثنا عن المحاولة الاولى وعن تصدى باى تونس لها ·

وعلى الرغم من هذه الظروف القاسية ، فان الباى لم يستسلم ، ولم يضيع وقته فى البكاء والنواح على ما ضاع ؛ بل انه سارع الى جمع قادته العسكريين الى جانب ما تبقى من أعيان المدينة ثم عرض عليهم خطة تقضى بعزل الغزاة عن قاعدتهم الاساسية وسد طرق الامدادات مهما كان نوعها · وبذلك يضطر الفرنسيون الى الاستسلام وتسترجع قسنطينة بالقوة كما أخذت ·

وكان من الممكن ان يتحقق هذا المشروع ، خاصة اذا علمنا ان التقارير التى وصلت الى وزير الحربية الفرنسى بتاريخ 28 أكتوبر 1837 تؤكد بان « زاد الجيش قد نفذ عندما هجمنا » ولو ان الهجوم ، الذى زعزعه انفجار لغم ، لم ينجح ، واستطاع العدو ان يرجع الجيوش الى مكان المدافع الصامتة ، وهو ما كاد ان يقع ، لهلك الاجناد كلهم » (49) · غير ان عاملا جديدا تدخل فى الموضوع فحال دون تحقيق ارادة الباى · هذا العامل هو خوف شيخ العرب ابن قانة علىمنطقة الصحراء الشرقية التى كان منافسه فرحات بن سعيد(50) يعمل على ضمها الى منطقة نفوذ الامير عبد القادر ·

أما أحمد ، فان لم يكن يبالى بمصير الصحراء ما دامت بعيدة عن الاستعمار · ولم يكن يهمه سوى ان يسترجع ما أخذ منه عنوة واصبح فى قبضة الاجنبى · وأما بوعزيز فكان همه الوحيد هو ان يقضى على خصمه التقليدى · لان عائلة ابن قانة وبوعكاز لم تتوقفا منذ زمن بعيد جدا عن التناحر والتطاحن على منصب قيادة العرب الذى كان ينتقل من واحدة لاخرى وفقا لما ترتضيه القبائل الصحراوية التى تقدم معونتها لمن تريد له الغلبة ·

وتغلبت العاطفة على الباى ، فتبع اخواله الى الصحراء لمقاتلة فرحات بن سعيد ، تاركا للقوات الفرنسية فرصة التمركز فى عاصمة الشرق الجزائرى ، وربط المركز

---

(49) المحفوظات الوطنية بباريس . ف 80 ، 1672 ·
(50) المحفوظات الوطنية بباريس . ف 80 ، 1672 ·

الجديد بالقاعدة الاساسية ؛ عنابة ، ويقول الباى فى مذكراته : « لقد اتبعت بوعزيز ، وكان ذلك هو مصابى الاعظم ··· واذا حكم القدر على شخص بالهلاك عمى بصره وبصيرته » · (51)

واراد المارشال فالى ، الذى شغل منصب الولاية فى الجزائر من سنة 1837 الى سنة 1840،ان يضع حدا نهائيا للمقاومة فى شرقى البلاد حتى يتسنى للقوات الفرنسية ان تتفرغ لمحاربة الامير عبد القادر الذى الهته معاهدة الطافنة عن الاهتمام جديا بامكانية توحيد الكفاح المسلح فى كامل انحاء البلاد · لقد ارسل فالى ، بعد أيام فقط من سقوط قسنطينة ، عددا من الرسل ، يحاولون حمل الباى على الاستسلام مقابل نقله الى فرنسا والحفاظ على أسرته واملاكه (52) · غير ان هؤلاء الرسل لم يتوصلوا الى نتيجة لان الباى كان ما يزال يعتقد بان السلطان سيوفى بعهده ويمده بالنجدات التى تمكنه من استرجاع المسلوب · وأخيرا لجأ فالى الى نفس الحيلة التى تمت بها مخادعة الامير عبد القادر ، فصاغ مشروع اتفاقية ثم ارسلها الى الباى طالبا منه ان يقبلها كعرض يهدف الى انهاء الحرب ·

تنص هذه الاتفاقية على ان الباى يعترف بسيادة فرنسا ، وبالمقابل يحصل على لقب الباشا ويسمح له بالتصرف فى مقاطعته السابقة دون الموانىء · والى جانب الاعتراف بالسيادة يرفع الباشا الجديد غرامة سنوية قدرها مائة ألف فرنك ويتعهد باحترام عدد من الشروط تضمنتها مواد الاتفاقية · (53)

ولقد كان من الممكن ان يصادق احمد على هذه الاتفاقية لو خلت من مادتها الثانية عشرة · وتقول هذه المادة : « لا قيمة لهذه الاتفاقية الا بعد ان يصادق عليها الملك ، وحتى ذلك الحين ، فان فرنسا تحتفظ بحامية فى قسنطينة » ·

---

(51) مذكرات احمد باى ، ص : 77 ·

(52) من المعلوم ان الباى قد ترك كل املاكه فى قسنطينة · وقد جاء فى المذكرات انه انما فعل ذلك ليكون قدوة ولتكون مقاومة السكان أكثر ضراوة · ( انظر المذكرات ، ص : 75 ) ·

(53) انظر النص الكامل للاتفاقية فى كتاب المذكرات ، ص : 108 ـ 111 ·

هذا مجرد رأى اذ ليس هناك وثيقة تاريخية توضح لنا الاسباب التى دفعت الباى الى الامتناع عن التوقيع · والشيء الثابت ، بعد تحليل الاوضاع السائدة فى الجزائر آنذاك ، هو ان معاهدة الطافنة قد ساعدت كثيرا على احتلال قسنطينة لانها مكنت قوات الاستعمار من التركيز على واحدة من قاعدتى المقاومة المسلحة ·

وحاول الباى ان يجمع حوله اعيان المقاطعة الى جانب جيشه النظامى الذى بدأ يتشتت بسبب سقوط قسنطينة من جهة ، ولعجز خزينة البايلك عن تسديد الاجور ، وتوفير سائر الامكانات الضرورية للاعتناء بالاجناد · ولكن الجهود المبذولة كلها تقريبا لم تؤد الى نتيجة ايجابية لان الذى يفقد الملك ـ كما قال الباى نفسه ـ يكون كالاسد الذى يلفظ أنفاسه الاخيرة · ويصير أولئك الذين كانوا يخشون النظر اليه فى عهد عزه ، كالطيور الكاسرة تنقضى عليه لتقتلع قطعة من لحمه » · (54)

ومن هنا دخلت المقاومة فى الشرق الجزائرى مرحلة جديدة تتمثل فى شخص الباى يتنقل من قبيلة لاخرى ومن منطقة الى منطقة ثانية · وكلما حل بمكان وجه له الاستعمار سارية يشتبك معها تارة ويفر أمامها مرة أخرى · أما الجيش النظامى ، فانه قد تفتت تدريجيا للاسباب التى ذكرناها ولان الباى لم يعد قادرا على ان يوفر له الاسلحة والذخيرة للتمكن من المقاومة ·

ولقد كان الباى يدرك كل الادراك ان هذه المرحلة الجديدة لا يمكن الاعتماد عليها لطرد قوات الاحتلال أو حتى لاسترجاع بعض المراكز المحتلة حديثا · وعلى الرغم من ذلك ، فانه ظل يواصل جهاده مدة اكثر من عشر سنوات أخرى قاسى خلالها من الشدائد والمصائب ما لم يكن فى وسع غيره من البشر ان يتحملها ·

**ب : مقاومة الامير عبد القادر ·**

---

(54) نفس المصدر ، ص : 88 ·

كتاب الأصالة

# الحقيقة تقود خطواتهم

تـاليف :
**منديس فرانس**
عرض ونقد :
**محمد الميـل**
مدير وكالة الانباء الوطنية



**يقترن العمل السياسى ، فى ذهن الرجل العادى ، بصور أقل ما يمكن ان يقال فيها انها صور غير مرضية ؛ ولعل الكثير من جيلنا ما يزالون يرددون قولة الشيخ محمد عبده الشهيرة التى يلعن فيها السياسة والساسة وكل ما تصرف عن فعل ساس ويسوس • والى عهد غير بعيد كانت عبارة « السياسة » بالفرنسية ، تعنى عند رجل الشارع عندنا الكذب أو التضليل ، فكثيرا ما تسمع من شخص يريد ادانة موقف أو تصريح بانه مخادع ، فيصفه بانه « بوليتيك » •**

ويبدو ان هذه الصورة عن السياسة والاشتغال بها ، التى يعطيها تعبير «البوليتيك» فى تصور رجل الشارع ، ترجع الى العهد الاستعمارى فليس من محض الصدفة ان تقترن هذه الصورة بتعبير فرنسى دخل كما هو ، دون ترجمة ، فى كلام الناس العادى •

Pierre Mendès France

# La vérité guidait leurs pas

Collection Témoins/Gallimard



وليس من المستبعد ان يكون اصل ذلك ما كان يصدر من وعود ، وخاصة على المستويات المحلية ، اثناء الحملات الانتخابية ، سواء كانت للمجالس البلدية أو المجالس الاقليمية أو مؤسسات فرنسية أخرى مثل « المجلس الجزائرى » ومجلس النواب الفرنسى · فاهتمامات سكان القرية اثناء مثل هذه الحملات الانتخابية ـ وخاصة قبل الحرب العالمية الثانية ـ قد تطغى عليها احيانا الاعتبارات المحلية والمصاعب اليومية ، وقل ان يتغلب فيها جانب العناية بالقضايا الوطنية الكبرى ، الا فى بعض المدن ، أو بعد الحرب العالمية الثانية ·

فى حين ان العمل السياسى ينبغى ان يكون هو أكثر الاعمال التزاما بقواعد الخلق الفاضل ومتطلبات النزاهة القصوى · لان العمل السياسى أو نشاط رجل السياسة ، يتجاوز حدود شخصه ومحيطه القريب ، وعلى قدر ما ترتفع درجة المسؤولية على قدر ما تتسع دائرة التاثير ، وعلى قدر ما تمتد آثار العمل السياسى فى المستقبل وتنعكس على مصير جيل أو أجيال · وعلى هذا الاساس ينبغى ان يكون العمل السياسى مبنيا على قواعد خلقية تاخذ فى الاعتبار انعكاساته المتوقعة على حياة الناس ومصير مستقبلهم ·

* * *

خطرت على ذهنى هذه الملاحظات وانا أقرأ كتاب منديس فرانس الاخير الذى ظهر فى مطلع هذه السنة عن دار « غاليمار » · وهو كتاب يضم أحاديث ومقالات وخطبا كتبت وألقيت بمناسبات مختلفة، تناول فيها الكاتب أربعة عشر شخصية من الشخصيات السياسية أو التى احتكت بالسياسة عن طريق الصحافة ، أو عن طريق الادب · وعنوان الكتاب يوحى بالفكرة العامة التى أراد ان يستخلصها المؤلف من حياة هؤلاء الرجال الذين تعرض لهم · والذين قرأ عن بعضهم ، وعرف بعضهم الاخر ·

« فالحقيقة تقود خطواتهم » عنوان يكشف عن البعد الاخلاقى الذى يراه مانديس فرانس لكل عمل يقوم به رجل السياسة ورجل الدولة ·

**السياسة والاخلاق**

وقد وضع الكاتب ، بين يدى تلك الصور التى رسمها لرجال أعجب بهم ، مقدمة طويلة تقع فى نحو أربعين صفحة ، بعنوان « رجل الدولة والسلطة » حوصل فيها افكاره

عن السلطة والحكم والديمقراطية ووسيلة الانتقال الى الاشتراكية ، ومسؤولية رجل الدولة عندما يمارس الحكم فى العمل على تغيير الهياكل باتجاه المستقبل وتحسين الاوضاع الاجتماعية الى أفضل ، وهو منذ المقدمة ، يشعر القارىء بمدى ما يعطيه من قيمة للاعتبار الاخلاقى • لان سياسة الحكم قد تسير فى اتجاه « تدعيم الامتيازات والحفاظ عليها » ، كما قد تسير فى اتجاه « توسيع دائرة الديمقراطية » • ويمكن « ان تستلم للظلم القائم » كما يمكن ان يغذيها « تصميم صلب على تحقيق التطور » (ص 21) وفى هذه الحالة تقل نسبة المظالم وتتقلص مساحة البؤس • وينتهى من ذلك الى ان الحكم على رجل الدولة وتقييم نشاطه يقوم على أساس ما أراد واستطاع ان يحققه فى هذا المجال ، أى على الآثار الملموسة لعمله ، وعلى مدى تأثيره فى الاحداث •

وتحتل الحقيقة ، أى البحث عنها وخدمتها ، مكانة خاصة فى تلك القاعدة الاخلاقية التى يعتبرها مانديس فرانس ضرورية لكل عمل سياسى ، وهو يستشهد فى هذا المجال بالالتزام الذى التزم به اليون بلوم ، ( وهو أحد الشخصيات التى تحدث عنها فى هذا الكتاب ) عندما رجع من المنفى اثر انتهاء الحرب العالمية الثانية ، اذ قال :

« ••• لن أقول للفرنسيين الا ما أعتقد انه حق ، وهو أمر سهل • وسوف أقول لهم كل ما أعتقد انه حق ، وهو أمر أكثر صعوبة ، ولو لم يرقهم كلامى ، بل حتى ولو صدمتهم » • (ص 33) •

واذا كان هناك من يرى ان ليس كل حق يقال ، فان المؤلف يسوق له مقالة للكاتب المعروف اميل زولا ( وهو أيضا احد شخصيات الكتاب ) عندما قال :

« ••• ليس لى من هوى الا شىء واحد ، وهو النور » •

بل ان مانديس فرانس ، فى هذه المقدمة ، يرى ان رجل السياسة يجب ان يكون واثقا فى حس شعبه ، مؤمنا بصلاحيته لمعرفة حقيقة الاحداث ومواجهتها • على ذلك قائلا :

« ••• وعندما تصبح القاعدة التى ينتهجها الحكام هى قول الحقيقة والتخلى عن المسالك المطروقة والمهارة المزعومة فان المبلد سيعرف كيف يستمع للحقيقة ، وسوف يمنح تقديره الى الذين لا يخفونها » (ص 33) •

والسؤال الذى قد يواجه القارىء بهذا الصدد هو : هل الاعتبار الذى يوليه مانديس فرانس للاخلاق ، يتصل بالحياة العامة فقط للرجل السياسى ، ام يمتد لحياته الخاصة أيضا ؟ لاننا نجد شائعا فى المناقشات التى تدور حول هذا الموضوع ، ان الحياة الخاصة لا تهمّ ، ولا ينبغى ان تكون موضوع نقاش ، لان الذى يهم هو الاخلاق المتصلة بالحياة العامة ·

ان مانديس فى مقدمة الكتاب لا يطرح السؤال ولا يجيب عنه · ولكننا عندما تقرأ مجموع الكتاب نجد ان هواه ينصرف الى عدم الفصل بين الحياة العامة والحياة الخاصة ، ويفهم من بعض الاحكام التى يصدرها ، والاقوال التى يستشهد بها انه يرى ضرورة مراعاة الاعتبارات والقواعد الاخلاقية فى الحياة العامة وفى الحياة الخاصة على السواء ·

فهو عندما يتحدث عن ايدوار هيريو ، الذى كان أبرز وجه للحزب الراديكالى قبل انهياره ، يسجل بعض ملامح هذا الرجل الاساسية ، وهى بغضه للمناورة ولما يسمى بالمهارة الفائقة التى تتحول بسرعة الى نفاق وتدليس ، ومناهضته للقاعدة القائلة بأن الغاية تبرر الوسائل ثم يسوق بعض ما قاله ايدوار هيربو فى هذا الصدد :

« ··· ان البعض يرون ( مثل فوشى وتاليران وغيرهما ممن يعتبرون تلاميذ ميكيافيلى) ان السياسة حيل وألعاب مهارة · وهناك آخرون، وهم ورثة فكرة مونتيسكيو النبيلة ومنظرو الثورة الكبرى ، يرون ان السياسة هى تطبيق للاخلاق فى قيادة المجتمعات · ان الاستقامة العامة لا تتفصل عن الاستقامة الخاصة ، فلها نفس المقتضيات ونفس الواجبات » ( ص 149 ) ·

وفى مكان آخر من الكتاب ، عندما يتحدث عن شارل دى غول نجده فيما يصدر من أحكام على رجل 18 جوان ، يحكم الاعتبار الاخلاقى فهو يدين الضربات التى وجهها الجنرال دى غول للحياة الديمقراطية بفرنسا اذ يعتبر ان دى غول فوت على فرنسا فرصة ديمقراطية عصرية ، وأن الشعب الفرنسى ما يزال الى الآن يدفع ثمن ذلك ، ثم يقول :

« ··· لانه اذا كانت الديمقراطية هى تعاقد واضح بين الشعب ومن يعملون باسمه ، فان الجمهورية الخامسة لا يمكن فى نهاية التحليل الا ان تعتبر فترة تدهور ، لا يكاد

تخفيه عديد الانتخابات التى لم تكن تحافظ الا على الاشكال الخارجية للديمقراطية ، فلم يبق لفرنسا ان عرفت من الانتخابات مثلما عرفت فى عهده ، ولم يسبق للشعب ان أبعد عن اتخاذ القرار كما أبعد على حكمه » ( ص 201 ) •

ثم ينتهى الى الحكم الاخلاقى الذى هو محل الشاهد فيقول :

« ان الذين يؤيدون ـ أكثر من غيرهم ـ دى غول ونظامه يضعون فى قائمة ايجابياته ومزاياه مهاراته وأنواع مكره ، فسواء تعلق الامر بالنهج الذى اعتمده كى يعود الى الحكم فى 1958 ، أو تعلق الامر بحل المشكل الجزائرى ، أو بالسياسة الخارجية ، فقد قرأنا مائة مرة الاشادة بالحيلة والسرية واللعب على حبلين • لكن لا نجد كلمات الاخلاقية السياسية ، والاستقامة والنزاهة تستعمل فى وصفه من طرف هؤلاء المعجبين به ، ان الاساليب التى يدينها كل أحد لو كانت تتعلق بالحياة الخاصة أو المهنية ، تقدم من طرف أولئك المعجبين بدى غول كما لو كانت مشكورة وتستحق التمجيد ما دامت تتعلق بالحياة العامة » • ( ص 201 ) •

## الحركة شرط للتوازن والاستقرار

لكن هذه القيمة الكبرى التى يوليها ما نديس فرانس للاخلاق فى الحياة العامة والخاصة أيضا ، لا تعنى ان الاخلاقية شيء جامد • بل ان مفهوم الاخلاقية التى يشترطها فى كل عمل سياسى مفهوم ، ديناميكى متطور • لماذا ؟ لسبب بسيط ، وهو ان الهدف الرئيسى لكل عمل سياسى ، فى نظر مانديس فرانس يجب ان يكون هو تحقيق الديمقراطية ، وتحقيق الاشتراكية •

وما دام يعتبر ان الديمقراطية والاشتراكية لا يمكن لكل منهما ان يتحقق بصفة نهائية ومثل ، فان الامر يتطلب يقظة مستمرة وعملا متواصلا • أى يتطلب اخلاقية ديناميكية لتخدم حركة دائبة ، وفى هذا الصدد يقول :

« لا وجود لديمقراطية تحققت نهائيا ، ولا وجود لاشتراكية انجزت للمرة الاخيرة • ان الديمقراطية مثل الاشتراكية هى ما نهفو اليه ، ما نكدح ونعمل من أجل تحقيقه ، انه الهدف الذى يظل فى الافق • ولان انجازهما لا يمكن ان يعتبر نهائيا وناجحا نجاحا

كاملا ، فهما دائما مهددتان • من طرف الاعداء ولاشك ، ولكن أيضا لان الرأى العام قد يضل ، وهو سوف ينخدع ولاشك عند المناسبة • ان الانسان غير منزه عن الخطا • وسيظل كذلك دائما ، لكن اخطاءه قد تصير عبرا عندما تكون موضوع نقاش صريح فى الساحة العامة » ( ص 44 ) •

تؤكد هذا المفهوم الديناميكى للعمل السياسى فكرة لايدوار هيريو استشهد بهـا منديس فرانس ، وهى تربط بين الديمقراطية والحركة والاستقرار • يقول هيريو : « فى ظل نظام ديمقراطى ، لا وجود لتوازن مستقر الا بواسطة الحركة » ( ص 145 ) •

وعلى هذا الاساس فالاخلاقية المطلوبة من السياسى ، ليست متولدة عن « الفضائل » التى تتحدد بالسلب ، ولكن عن تلك التى تتحدد ايجابيا • والاخلاقية المطلوبة من رجل السياسة مطلوبة أيضا من مجموع المواطنين ، لان :

« ••• أكبر خطر يهدد الديمقراطية وحكومة الشعب بالشعب هو اهمال المواطنين • المواطنون وحدهم هم الذين يستطيعون ان يجعلوهما موضوع نشاط دائب ، أو يتركوهما يضعفان بفعل اهمالهم وجمودهم » ( ص 44 ) •

الا ان مسؤولية المواطن هذه ، هل تمارس من خـــلال التصويت على أشخـاص أو بـرامـــج ؟

لا يتردد مانديس فرانس فى تخوفه من تشخيص الحكم • وهو فى هذا يصدر خاصة عن التجربة الديغولية ، فهو يرى ان :

« اختيار رجل ، حتى ولو كان هو الافضل ، بدل اختيار سياسة ، يعنى الاستسلام • ان تشجيع الامة على ان تعتقد بأن كل شىء يحل من طرف رجل ، دون ان تتدخل الامـة نفسها ، دون ان تختار وتقرر ، معناه أننا نعطى للسياسيين السيئين فـرصة ذهبية ، معناه اننا نمنحهم حماية وتغطية ضد القوة الوحيدة الكفيلة بقهقرتهم ، وهى قوة شعب قرر ان يختار حلوله وصمم على ان يحترمها ويحترم نفسه » ( 38 ) •

ويسوق منديس فرانس فى هذا السياق ، ما قـاله ديدرو بشـأن الحـاكم المستبد المستنير ، عندما كانت هذه الفكرة مطروحة للنقاش قبل انـــدلاع الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر ، يقول ديدرو :

« ان حكومة تحكمية على رأسها أمير عادل ومستنير هى دائما سيئة • ففضائلة تعتبر من بين أشد الاخطار وأقوى الاغراءات انها تعود الشعب على ان يحب ويحترم ويخدم خلفه مهما كان شريرا أو غبيا • انه ينزع من الشعب حق النقاش ، حق ان يريد أولا يريد ••• ما الذى يميز المستبد ؟ انه امتداد سلطانه وليس استعماله » هامش ص 38 •

ويبرر مانديس فرانس تخوفه من تشخيص السلطة ، ان ذلك يؤدى الى اشاعة الغموض فى الحياة السياسية • فالشخص الواحد ـ فى حالة انعدام سياسة واضحة ـ قد يجمع حوله تيارات مختلفة ، لان الذى يحدث فى هذه الحالة هو ان الناس :

« يمنحون ثقتهم لنفس الشخص ، فى حين ان كل واحد منهم ينتظر منه القرار الذى يرضيه ، أى ان الجميع ينتظرون منه قرارات متناقضة » ( ص 39 ) •

ويرى ان الظاهرة البونابارتية التى عرفتها فرنسا فى 1848 والسنوات التى تلتها ليست شيئا آخر غير هذا •

على ان مانديس فرانس لا ينكر ان السياسة هى فى النهاية من عمل أشخاص ، ومن هنا فان الحياة السياسية ما فتئت مشخصة • فالعمل السياسى الذى قام به رويسبيير أو جوريس ليس شيئا آخر غير روبسبيير أو جوريس • الا ان المؤلف يرى بأن روبسبيير أو جوريس ، يمثل فى نظر أتباعه مجموعة افكار وأهداف يراد تحقيقها ووسائل ملائمة لـذلـك •

ويذهب مانديس فرانس ، فى ادانة النظام السياسى الفرنسى الى حد تشبيهه بنظم أميركا الوسطى والجنوبية ويقول فى هذا الصدد :

« ان مواطنى أميركا الشمالية يجدون صعوبة كبرى فى فهم الوضعية الفرنسية ، بينما مواطنو أميركا اللاتينية لا يخطئون فى تقدير النظام الفرنسى فى 1975 ، لانهم يجدون فيه خطوطا ونماذج غير غريبة عنهم • فخاصية نظم أميركا اللاتينية هى كونها لا تشتمل على مجموعة من القوانين الدائمة والاجراءات المجردة لحل المشاكل ، تكون مقبولة من الجميع ويطبقها الجميع ••فالواقع ان تلك النظم تسيطر عليها لعبة القوى الخارجية عن المؤسسات • ( جيوش ، شركات متعددة الجنسيات ، أو ليغارشيات ،

نقابات الخ ٠٠ ) قوى لا تنحنى أمام سيادة القوانين المعترف بها ، وتحاول ان تفرض بشكل خفى أو بالعنف قرارتها ومرشحيها ٠ وتلك هى حالتنا بفرنسا » ( ص 42 ) ٠

وفى خاتمة المقدمة ، يحاول مانديس فرانس ان يسجل الفروق الموجودة بين هذا العصر وبين العصور التى سبقته فى الازمنة الحديثة ، ويرى أن المسؤوليين السياسيين اليوم لا يمكن ان يشبهوا رجال سياسة الامس ٠ ويؤكد هنا على البعد الانسانى فى الحياة السياسية ، على ضرورة فهم الانسان الذى يجب ان يكون هو مصدر الحق قبل ان يكون موضوعه ، ويقول على الاخص :

« ٠٠٠ يجب ان يعرفوا ، قبل كل شىء ، الانسان فى مطامحه وقدراته التى هى غنية ومعقدة ٠ يجب ان يعملوا مع هذا الانسان الذى تغير هو الآخر ، واصبح مواطنا رشيدا ، لان الرقى قد شق طريقه رغم الصعاب ٠ لقد تقدمنا ، واصبحنا نتبين أكثر من ذى قبل ماذا ستكون المكتسبات الجديدة للعصر الذى نعيش » ( ص 46 ) ٠

ان الصورة التى يرسمها منديس فرانس على امتداد الكتاب لرجل السياسة ولرجل الدولة من الصرامة والاستقامة بحيث تبعث على التساؤل : أليس يطلب من رجل السياسة أكثر مما يطيق ؟ ألا يدفعه فى هذه الحالة الى ان يكون دائما فى موقع معارضة ، لان المعارضة هى الموقع السهل الذى يجعل رجل السياسة يستطيع ان يشترط وينتقد دون ان يقع فى أخطاء التطبيق ؟ فى حين ان الرجل السياسى بمعنى الكلمة ، اذا كانت له مبادىء وافكار يغار عليها قد يندفع نحو الاستيلاء على الحكم بأية وسيلة ؟

يحاول منديس فرانس ان يقدم فى خاتمة الكتاب عناصر أجوبة عن هذه الاسئلة اذ يقول :

« ان الرجل السياسى ليس فقط مناضلا وداعية يريد ان يسمع صوته ويحبب لقلوب الناس الرسالة التى يحمل ٠ ان هويته الاخيرة هى ان يعمل ، ويبنى ، وينجز ٠٠ والرجل السياسى الذى يكون دوره قاصرا على المعارضة سيشعر حتما بانه لم ينجز كل المهمة التى أراد ان يكرس لها حياته ٠ ومن هنا نجد البعض ، قد ينساقون من أجل التوصل الى السلطة ، ان يقبلوا بالمساومات والجمود الذى قد يمس حتى الاشياء الاساسية ٠ وهو

رهان خطير للمتسرع وللورع قد لا يقدر كل منهما عواقبه • فالمتسرع يريد ان يجرب حظه ، وقد ينزلق نحو الانتهازية والجمود ، والمتورع يرفض السلطة ، وقد يلوم نفسه بعد ذلك على انه ترك فرصة مناسبة تضيع ، وانه اختار صرامة عقيمة » ( ص 256 ) •

اذن ما العمل ؟ ان منديس فرانس لا يقدم اجابة قاطعة • انه يحدد قواعد للعمل السياسى ذات طابع اخلاقى يجعله دوما محل نقاش وموضوع دفع الى الامام • والملاحظات التى تضمنتها الفقرة السابقة التى سقناها من خاتمة كتابه ، تبدو موجهة الى شخصه ، فقد سجل ان بعض الشباب الفرنسى اخذوا عليه انه قد يكون رفض السلطة بدافع صرامة أخلاقية عقيمة ، ويقول ردا على ذلك :

« لا أعتقد انى أستحق هذا اللوم ، اذ انى ، بكل بساطة ، لم أكن مستعدا ان أدفع ثمنا باهضا لكى أتولى مناصب شرفية لا تسمح فعلا بالعمل والبناء • لم أكن مستعدا لان أربح كرسيا مقابل ان أضحى بموضوع المعركة ذاتها • انى لم أهتم أبدا بالسلطة من أجل السلطة » ( ص 256 ) •

لكن هذه اللوحة الجذابة التى يقدمها منديس فرانس عن نفسه ألا تخلو من ظلال ؟ أليس قد قبل بمنصب شرفى فى حكومة الجبهة الجمهورية التى ترأسها غى موللى فى مطلع 1956 ؟ ان السؤال جدير بالطرح ، خصوصا فى الجزائر حيث يتذكر الجميع ان ثورة نوفمبر 1954 اندلعت فى عهده • واذا كان تاريخه فى الحكم سيظل مقترنا بتخليص فرنسا من الحرب الفيتنامية ، فسوف يسجل عليه التاريخ ان التوفيق قد أخطاه فيما يتعلق بحرب الجزائر •

ويبدو ان منديس فرانس قد أحس بهذا المأخذ فاجاب عنه بنوع من النقد الذاتى اذ قال :

« ••• اذا كنت مدركا لكل ما ساهمت فى انشائه ، فانى لا أنس أيضا فشل وأخطائى • إن الندامة تلازمنى على انى لم أستطع ان أفرض فى الابان ما يستلزمه الانفجار الجزائرى ، وضرورة الاستجابة له بروح تختلف عن الروح التى سادت طيلة سنوات دامية • فقد ذهبت نتيجة ذلك ما لا يحصى من حياة ناس ضحى بهم عبثا ،

بالاضافة الى ما عاناه الجزائريون وأوروبيو الجزائر · وكـل ذلك كان من الممكن تجنبـه » ( ص 257 ـ 258 ) ·

الا انه مهما تكن ندامة منديس فرانس صادقة بشان الجزائر ، فلا يسعنا الا ان نسجل بأن المواقف التى سجلها ضد استمرار حرب الجزائر ، كانت قد صدرت عنه عندما أصبح خارج الحكم ، أو على هامش الحكم · فهو يقول مثلا ، عند تعرضه لشخصية جول فيرى :

« يقع النظر الآن فى اعداد ستة ملايير لبناء ثكنات الجندرمة ، لكن يبدو انهم لم يجدوا بضعة مآت الملايين لتعبيد الطرق وحفر الآبار فى الاوراس» (66) ·

وهى كلمة كتبها وألقاها فى 11 جـــوان 1955 أى بعد ان سقطت الحكومة التى كان يـرأسهـــا ·

والواقع ان كل المواقف التى أدان فيها حرب الجزائر ، خلال هذا الكتاب ، كانت كلها ترجع الى فترات وجوده خارج الحكم ، فقد تعرض لنفس الموضوع ، بكيفية أخرى ، فى خطاب القاه عن جان جوريس ، بتاريخ 20 جوان 1959 ( ص 95 ) ، وفى عدة مواضيع من مقاله عن دى غول الذى كتبه فى 12 نوفمبر 1970 ( ص 194 ـ 207 ) ·

واذا كان لابد من استخلاص نتيجة من ذلك ، فهى ان الوجود فى مـوقع معارضة ، بالنسبة لرجل مثله ، لا يخلو من مزايا ، لانه يجعله يتبين ما لم يتبينه عند ما يكون فى موقع سلطـة ·

## حيـوية الشبـاب وامكانيـات التغيـير

لكن لا ينبغى ان يفهم من ذلك اننا نشكـــك فى شجاعة الرجل الادبية أو نطعن فى اخلاقيته · كلا · فمنديس فرانس من بين رجال الجمهورية الرابعة ، يعتبر من أشـدهم شجاعة وجرأة واقداما على مواجهة الرأى العام بما يخرج عن المالوف والمعتاد · وهو الى ذلك قد احتفظ بحيوية خارقة ، لم يؤثر فيها تقدم السن ، أو البقاء مدة طويلة خـارج الحكم · ولم تكن محض صدفة زيارته للجزائر فى ربيع 1974 عندما كانت فرنسا تتاهب ـ بعد موت بومبيدو ـ لانتخاب رئيس جمهورية جديد · فقد كان من أنصـار فرانسوا ميتران ، وكان مقررا ان يتولى ـ لو نجح ميتران ـ منصبا وزاريا هاما يتصل بشـــؤون

الاقتصاد والمال • ولم يكن هناك شك فى انه جاء الى الجـزائر يجس عبرها نبض هذا العالم الثالث التى تعاظم نموه خلال السنوات الاخيرة • ولعل كثيرين من القراء لا يعرفون ان مانديس فرانس كانت له منذ نحو عشرين سنة آراء اقتصادية ومالية انطلقت من مبدا مراعاة امكانيات العالم الثالث ، الغنى بالموارد الاولية والفقير من الصناعات 0 وقد حاول خلال زيارته تلك للجزائر ان يناقش بعض تلك الآراء مع اطارات جزائرية فتية تاخـذ بزمام مؤسسات اقتصادية ومالية • وقد حضرت بعض تلك المناقشات خلال حفل نظمه الرئيس المدير العام آنذاك للبنك الوطنى الجزائرى الاخ عبد المالك تمـام ( وزير المالية حاليا ) • وشاهدت كيف ان منديس فرانس كان شبه مشدوه امام المجرى الذى أخذه النقاش : لقد كان امام نظريات جديدة ، لم يكن قد تبينها لانه ظل مدة طويلة بعيدا عن الاحتكاك المباشر بقضايا هذا العالم النامى • وقد لاحظت آنذاك حيـوية الرجل اذ كان يتفهم ما يقال له ، ويسلم ببعض الآراء التى كانت تبدو له فى البداية بعيدة عن الصواب•

والحقيقة ان حيوية هذا الرجل وانفتاحه على المستقبل وتفهمه لتيارات الشباب تعتبر من أبرز ما يتمتع به من مزايا • فهو يعتبر ان كل تغيير ايجابى يسير فى اتجاه المستقبل لا يمكن ان يتم الا بمساعدة الشباب • فهو يقول مثلا ، عند تعرضه لشخصية الجنـرال ذى غول ونقده لنظام الجمهورية الخامسة :

« ان الديمقراطية ، هى فى نهاية الامر انفتاح فرص جديدة وتفتيق آمال جديدة لكل الذين يعملون ، فى مواجهة نظام اجتماعى ظالم ، من أجل تحقيق غد أفضل • والشباب يأتى دائما فى طليعة هؤلاء • ففى الماضى كلما نجحت فرنسا فى تجديد نفسها ، فانها لم تفعل ذلك الا بالمساعدة الايجابية للشباب • وليس هذا لانهم هم وحدهم الذين يستطيعون تغيير مجتمع هرم أو تتحكم فيه مصالح المحافظة ، ولكن لان انظارهم المتجهة تلقائيا نحو المستقبل ، وبوصفهم أقل حرصا على الحقوق المكتسبة ، وأكثر تجردا وايثارا ، يقدمون للتحركات الجماهيرية الكبرى تلك الخميرة الضرورية ، ويمنحون التحولات والاصلاحات التى يؤيدونها صلاحية الدوام » ( ص 202 ) •

ويعود بعد ذلك بعد خمسين صفحة ، فى خاتمـة الكتاب ، الى نفس الموضوع ، أى تسجيل الدور الذى يلعبه الشباب فى التحولات الاجتماعية الكبرى • الا ان دور الشباب

لكى يكون ايجابيا يشترط فيه ان يتلاقى مع مجموعات أخرى ، مثل الطبقات المحرومة والتى هى موضوع استغلال • ويرى ان تلاقى هذه العناصر : الشباب مع الفآت المضطهدة هو الذى ضمن نجاح الثورة الفرنسية ، ويقول فى هذا الشأن ما يلى :

« ••• كانت جمهـرة البلاد بئيسة ، وخاصة الفلاحون والفآت الشعبية ، وكانت هذه الفـآت هى عناصر الثـــورة ، وكان الشبان متحمسين نشطين فى جميع الفـآت الاجتماعية ، وكان هناك فلاسفة دائرة المعارف الذين كانوا قد درسوا منذ جيل عـــلى الاقل ، المجتمع الفرنسى القائم آنذاك وهياكله وقدموا الحلول • وبفضل هؤلاء وجـدت الثورة فى متناولها أدوات غنية ومتوفرة سمحت بتحقيق اصلاحات واعطت لفرنسا وجها جديدا » ( ص 254 ) •

ويمكن ان نستخلص من ملاحظة قدمها منديس فرانس فى هامش نفس الصفحة ، من ان نفس الظاهرة ، تفسر نجاح حركات التحرير ضد الاستعمار • ويمكن ان نستخلص من ذلك ان نجاح هذه الحركات ، ومن ضمنها حركة التحرير الوطنى بالجزائر ، قد تكون هى التى ساعدت المؤلف على اكتشاف هذه الحقيقة • فالعالم الفريد ســـوقى المعروف ببحوثه الاجتماعية ، كان قد اكتشف هو الآخر أهمية عنصر الشباب فى الثورة الجزائرية واستخلص من ذلك نتائج حاول تعميمها بالنسبة للتاريخ الفرنسى الحديث : كما تدلنا على ذلك قراءة كتابه « صعود الشباب » الذى خصصه لمعالجة هذه الظاهرة 0 ( وقد ظهر كتاب الفريد سوقى هذا فى أواخر 1959 عن دار نشر كالمين ليفى )

ويعتمد منديس فرانس على نفس القاعدة السابقة ليفسر فشـــل حـركة ماى 1968 بفرنسا • فهو يرى ان اللقاء المطلوب بين قوى الشباب وبين الفآت الشعبية المضطهدة لم يتم فى ماى 1968 ، ويعقب على ذلك قائلا :

« ••• كان طلاقا فاجعا بين الشباب واليسار التقليدى ، بين الطلبة وقسم هام من الطبقة العاملة ، انها انقسامات تفسر الفشل المشترك • وفيما اذا عرفنا ساعة أخـرى ينفتح فيها باب التاريخ ، دون أن يتحقق اللقـــاء بين جميع أعضاء الحلف الضرورى ، فسوف نعرف اجهاضات أخرى » • ( ص 254 ) •

وعندما يرسم المؤلف لوحة الجنرال دى غول ، نجد انه يقدر ما يسجل اعجابه الشديد برجل 18 جوان 1940 ، بقدر ما يدين رجل 18 ماى 1958 • فالاول يبدو حازما عارفا أين يقصد ، واثقا فى الشعب ، والثانى يبدو مذمذبا مترددا ، محتقرا للشعب • ولعل تفسير الفارق بين الرجلين ، الذى أغفل المؤلف ذكره ، يرجع بالضبط الى ان الاول كان فى عنفوان نضج الشباب ، فأدرك اتجاه رياح التاريخ وأخذ مسارها • بينما دى غول 1958 ، كان قد دخل طور الشيخوخة ، فلم تعد له قدرة على تبين الاتجاه الأسلم ، وراح يغالب تيار العصر حتى غلبه التيار ، فتظاهر بمجاراته •

* * *

وبعد فذلك عرض وتحليل مع شيء من النقد حاولت ان يكون كاملا بالقدر الذى يسمح تناول كتاب فى مقال • ولان صدق صاحبه وحماسه لما يكتب يبدو من خلال السطور ، فان قراءته تحلو حتى فى المواطن التى لا نتفق فيها مع الكاتب •

## مولد الرسول والاحتفال بذكراه :

لاشك أن محمدا رسول الله اكرم خلق الله عليه وافضلهم عنده • قد اختاره على علم لتبلّيغ رسالته ، واداء امانته ، رحمة للعالمين بشيرا ونذيرا ليخرجهم من الظلمات الى النور : من الجهل الى العلم ، ومن الضلال الى الرشد ، ومن العمى الى الابصار ، ومن القسوة والجهل الى اللين والحلم ، ومن العبودية لغير الله الى الحرية الحقة بالعبودية لله وحده • فكانت رسالته رحمة للناس أجمعين « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » •

فميلاد الرسول الكريم ميلاد النور والرحمة • وحق على البشرية جمعاء ان تحتفى بمقدمه ، وتحتفل بذكراه احتفالا صحيحا باحياء سنته واقتفاء آثاره والتعرف الى دينه ، واذاعة شمائله واشاعة فضائله •

## عيد المولد عند المسلمين :

وقد اعتادت الامة الاسلامية ـ كل سنة ـ أن تحتفى بذكرى ميلاده فى اليوم 12 من أول الربيعين ، وان تعتبر هذا اليوم عيدا لها ، يصطبغ بالصبغة الدينية ، وان لم يكن عيدا دينيا بالمعنى الشرعى • لان العيد الدينى الشرعى هو ما شرع فيه عبادات خاصة به وسنت فيه أعمال دينية يؤديها المؤمنون وأقوال يقولونها وقربات يقدمونها كالصلاة والخروج اليها ، والتكبير والتهليل ، وتقديم النسك أو اخراج الصدقة الواجبة ، وأذن فيها فى تبادل التهانى وحضور ألعاب أو القيام بها • فالشارع هو الذى سن ذلك أو أذن فيه وقال عنه « ان لكل قوم عيدا ، وهذا عيدنا » (1) •

وليس يوم المولد بعيد دينى بهذا المعنى ، لان الشارع لم يؤسس فيه عبادة خاصة ولا أمر بالاحتفال به • ولكن المسلمين أحدثوه ـ فى اعيادهم القومية ـ منذ قرون كثيرة ، ولم يحدثوا فيه عبادة العيد ، وهم اليوم مجمعون على الاحتفاء فيه ، والاحتفال به حبا فى محمد عليه الصلاة والسلام ووفاء له ، وتمسكا بشريعته ، واعلانا للارتباط بسنته • ومن أحق الناس باحتفاء المسلمين واحتفالهم به واظهار محبته والتعلق به ، واعلان الوفاء له والابتهاج بيومه من محمد صلى الله عليه وسلم ويومه ؟

ان يوم محمد صلى الله عليه وسلم فى الايام لهو اليوم الاغر ، وان ذكراه لاجل الذكر ، وان العبرة فى ذلك لاعظم العبر • وقد كان شعبنا فى الجزائر ينتهز هذا اليوم الاغر ليعلن

---

(1) من حديث صحيح رواه مسلم وغيره خاطب به رسول الله (ص) أبا بكر لما نهى جارتين كانتا عند عائشة تغنيان وتضربان على الدف عن فعلهما ، وأذن لهما الرسول فى فعلهما •

حبه للرسول ، والتمسك بشريعته ، واظب على ذلك أيام عسره ويسره واعلن للصديق والعدو شدة وفائه ، وفي ذلك قال شاعره الكبير الشيخ محمد بن العابد السماتي رحمه الله فأنشده كل ابنائه منذ قاله الى اليوم :

| | |
|---|---|
| أنـــت يـــا يـوم محـمد | فى جبــين الـدهــر تـــاج |
| جئــت بالنـــور المجـــدد | فكســـا الكـــون ابتهـــاج |
| فـابعــث النخـــوة لحنـــا | فى رؤوس النــاشئـــــين |
| فهـــى فى الاكـــوان معـنى | يسـتفـــز الغـــافلـــين |
| وامــــلا الـدنيـــا فخـــارا | أيهـــا النـــشء الجـــديـد |
| واشـــد بالـذكـــرى هـــزارا | تطـــرب الحفـــل الرشيـــد |
| لـــك فى المجـــد سنـــام | دونـــه هـــام القمـــر |
| ســـل تخبـــرك سمـــام | بهـــواديـــك الـغـــرر |

ثم يختمه بالتنويه بذكر هذا الوطن المحمدى المقيم على حب النبيء المتطلع الى التحـرر من قبضة العدو العادى فيقول :

| | |
|---|---|
| وطـــن جـــم المفـــاخـــر | وجـــديـــر بـــاهتمـــام |
| هـــو الارض الجـــزائـــر | هـــو فى الارض الجـــزائـــر |

وقد أصبح هذا النشيد تشدو به حناجر عشرات الآلاف من فتيان وفتيات شعبنا فى حماس دينى وطنى عظيم منذ سنة 1936 وكان من الاناشيد التى دعمت روح المقاومة والاستبسال فى شعبـــنا ٠

ان الامة الاسلامية ــ فى مختلف أوطانها من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ــ تســـمى بالاحتفال بعيد المولد للاعراب عن محبتها للنبيء ، فتقيم فى هذا اليوم المهرجانات العظيمة ، والولائم الفخيمة ٠ وتظهر معالم الزينة فى الدور والاسواق والشوارع من المدن والقرى ويفتن الناس فى التزين بأحسن أنواع اللباس والزينة وفى انتخاب ألذ المآكل ، واشـــهى الحلويات ، وأحلى المشروبات ، ويجتمع المتدينون فى المساجد ليلا أو نهارا لحلقات الذكر ، او سماع العظات ، أو تلاوة قصة المولد أو انشـاد القصائد والمـدائح الموشحات وتسخـو أنفس أهل الخير والمعروف بانواع الاحسان والصدقات ٠ ويجد البائس الفقير فيه ما يســد خلته ويقيم اوده ويكفيه يومه من ألذ المطعومات والمشروبات وتشيع فيه أنواع الفرح والمرح بين الرجال والنساء والولدان يملئون ذلك بالاغانى والالعاب وتفجير المفرقعات ، وقـــد

يخرج بعضهم ـ فى بعض الجهات ـ عما يبيحه الدين ، ويأذن فيه الخـلق القويم بارتكاب المنكرات وتنفق فيه الاموال الطائلة غير مأسوف عليها من المنفقين والمنفقات • فهل أصاب المسلمون وجه الصواب بما فعلوا ؟ وهل حققوا الفرض الذى اليه رموا ؟ وهـل وفقوا الى الحق بما صنعـوا ؟

## محبـة الرســول واجـب اكيـد :

لاشك أن هدف المسلمين من اقامة هذا العيد والاحتفال فيه هو اعلانهم عن حبهم النبىء عليه الصلاة والسلام • والاعراب عن وفائهم لذكراه والتمسك بدينه ، والانتساب اليه •

ومن المعلوم أن حب النبىء فرض على كل مسلم ، وواجب أكيد من الواجبات الدينية • ولا يتم ايمان أحد حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما : من نفسه وماله ، وولده ووالده والناس اجمعين • وان هو احب شيئا أكثر من حبهما ، وآثر شيئا عليهما كان مـن الهالكين • قال الله تعـالى « قــل ان كان ءاباؤكم وابناؤكم ، واخوانكم ، وازواجـكم ، وعشيرتكم ، واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحـب اليكم من الله ورسولهٔ وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى ياتى الله بامره والله لا يهـدى القــوم الفاسقين » (2) • وروى البخارى ومسلم أنه (ص) قال « ثلاث من كن فيه وجد حــلاوة الايمان : ان يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ••• » الحديث •

اجل انه ليس بالمحظور ان يحب المرء نفسه أو ماله أو أهله ، ولكن المحظور أن يؤثر شيئا فى الحب على الله ورسوله بحيث يجعلهما دون شيء من ذلك مما يعز عليه حتى نفسه • فان بلغت محبتهما فى نفسه هذه الدرجة ، وآثرهما على كل شيء عنده ادرك الغاية القصوى والدرجة العليا من صفاء النفس وتزكيتها ، وكمال استعدادها ونــال السعادة الروحية العظمى ، والاطمئنان النفسى الكامل ، ووجد ـ حقا ـ حلاوة الايمان •

## المحبــــة :

ان عاطفة المحبة فى الانسان من انــبل العواطف واسماها وارقها واجملها واقواها سطوة على النفوس واشدها • اذا تمكنت من انسان ملكته وسيطرت على حواسـه وادراكه وجعلته ـ وهو السميع البصير ـ الاصم الاعمى كما جاء فى الحديث : « حبك الشيء يعمى ويصــم » (3) •

(2) من سورة التوبة الآية 24 •

(3) أخرجه البخارى فى تاريخه ، واحمد فى مسنده وابو داود فى سننه •

وقال الشاعر :

وكذبت طرفى فيك ، والطرف صادق　　وأسمعت اذنى فيك ما ليس تسمع

ان عاطفة المحبة قد تدفع العاشق الواله الى الشفقة والرحمة والحنان والبذل وفعل الاحسان وقد تدفعه الى القسوة والغلظة والاجرام ، الى التضحية البالغة واقتحام الاهوال ارضاء للمحبوب واكتسابا لمودته وبرهانا على الصدق فى محبته ، وطاعة لهواه وتجنبا لسخطه ·

وقد عرف علماء الشريعة المحبة بانها « دوام الذكر للمحبوب » وقال بعضهم « هى ايثار المحبوب » وبعضهم قال « المحبة الشوق الى المحبوب » ·

وقال آخر : « ميل القلب الى موافق له » قال القاضى عياض رحمه الله : « واكثر العبارات المتقدمة اشارة الى ثمرات المحبة دون حقيقتها · وحقيقة المحبة الميل الى ما يوافق الانسان » ، ثم شرح ذلك بان هذه الموافقة تحصل اما لادراك حسى ، أو لادراك عقلى قلبى ، أو لوجود الاحسان والانعام من المحبوب · وقال ما فحواه : « هذه الموافقة اما لاستلذاذه بادراكه حسا كحب الصور الجميلة ، والاصوات الحسنة ، والاطعمة والاشربة اللذيذة واشباهها مما يميل اليه كل طبع سليم لموافقتها له · واما لاستلذاذه بادراكه معنى بالعقل والقلب ادراك المعانى الشريفة والحقائق اللطيفة كحب الصالحين والعلماء العاملين ، وأهل المعروف والمحسنين لما اثر عنهم من السير الجملية والافعال الحسنة ، وطبع الانسان يميل الى الشغف بامثالهم ، وقد يبلغ ببعضهم حب أقوام والتشيع لهم الى التضحية البالغة من الجلاء عن الاوطان ، والصبر على هتك الحرم واخترام النفوس ، أو يكون حبه لموافقته له من جهة احسانه له وانعامه عليه،والنفوس مجبولة على حب من أحسن اليها وأنعم عليها» (4).

وحب العبد ربه يجب ان يكون فوق كل حب ، وأسمى من كل حب لانه سبحانه خلق كل شيء فاحسن خلقه · وصور الناس فاحسن صورهم ، وأنعم بما لايعد ولا يحصى عليهم ، وهو وحده المتصف حقيقة بالجمال والكمال والبر والاحسان ، وكل ما يميل اليه الانسان فى الوجود ويحبه هو من صنع الله وفيض جوده واحسانه «صنع الله الذى أتقن كل شيء» (5) وهو سبحانه وتعالى « عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذى أحسن كل شيء خلقه » (6) فحب العبد ربه حب لسيده ومولاه القوى القادر المبدع · الرزاق المنعم الرؤوف الرحيم الرحمان ، انه حب لمن هو أهل للمجد والحمد والتقديس والعظمة والجلال والجمال ·

(4) انظر كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ج 2 ص 29 ـ 30 ط بيروت (دار الفكر)
(5) من آية 88 من سورة النحل ·
(6) من آية 5 و 6 من سورة السجدة ·

قالت رابعة العدوية تخاطب رب العـزة :

أحبــك حبين حــب الهــوى　　وحبــا لانــك أهــل لــذاكــا
فاما الذى هــو حــب الهــوى　　فشىء شغلــت به عن ســواكا
وامــا الــذى أنـت أهــل لــه　　فكشفك لى الحجب حتى اراكــا (7)

واذا أحب العبد مولاه فنى فى طاعته ، ووزن كل حركة منه أو سكــون بميزان شرعه ، ورضى ما يرضيه وسخط ما يسخطه ، وهذا هو شأن المؤمن حقا كما تعرب عن ذلك نصوص واضحة من الشريعة « من كان يؤمــن بالله واليوم الآخــر فليقل خيــرا أو ليصمت » (8) « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا ءاباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه» (9) .

واما حب المؤمن الرسول فانه دون حبه لله وفوق حبه لكل شىء « والذين آمنوا أشــد حبا لله » (10) ٠ وان محمدا صلى الله عليه وسلم أهل لما أوجب الله له على كل مــؤمن من الحب ، وذلك لما اتصف به من جمال خلق ، وكمال خلق ، واحسان الى الخلق اجمعين حتى الوحوش فى اكماتها ، والطير فى وكناتها ٠

لقد كان صلى الله عليه وسلم من خلقه فى أجمل صورة مع وفور عقل ، وصحة فهم ، وفصاحة لسان ، وقوة حواس ، وتناسق اعضاء ، واعتدال حركات ٠ وكان مع جمال خلقه أوسط قومه حسبا ، وأشرفهم نسبا ، واكرمهم اما وأبا ، واعزهم نفرا ٠

وكان خلقه القرآن فى علم ــ مما علمه الله ــ واسع ، وقلب لله خاشع ، وحلم وافر ، وكرم كبير ، وصبر عظيم ، وشجاعة نادرة ، وزهد كامل ، وتواضع شامل ، وعفــة وحياء ، ومروءة ووقار ٠ ورحمة سابغة ، وادب رفيع ، وشكر للنعمة جزيل ، وعدل مطلق ، فى كل ذلك لا يسبقه سابق ، ولا يلحقه لاحق ٠ ومثله الرائعة لكل خلــق ذكر مما أكدته الآيــات الكثيرة من كتاب الله أو تواترت به الاخبار في سيرته قال تعالى «وانك لعلى خلق عظيم» (11).

وانعاماته على الناس ، ورحمته بالخلق أجمعين واشفاقه عليهم ، وحرصه على هدايتهم وايصال الخير اليهم واستنقاذهم من النار ، وتالمه من عنــاد المعاندين واعراض المعرضين

(7) من تفسير المنار ج 10 ص
(8) حديث رواه مسلم وغيره ٠
(9) من آية 22 من سورة المجادلة ٠
(10) سورة البقرة من الآية 165 ٠
(11) سورة القلم الآية 4 ٠

وسروره باهتداء المهتدين مما نطقت به الآيات وشهدت به الآثار الصحيحة قال الله تعالى « لقد جاءكم رسول من انفسكم عـزيز عليه ما عنـتم حريص عليكم ، بالمؤمنـين رؤوف رحيم » (12) وقال : « ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدى من يضل » (13) · وقـال : « طسم تلك آيات الكتاب المبـين لعلك باخع نفسك ان لا يكونوا مـؤمنين » (14) ، وقال : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اسفا » (15) ·

وهكذا تجتمع فيه عليه الصلاة والسلام كل دواعى ميل القلوب اليه ومحبتها ايـاه والتاريخ شاهد صدق على ان كل من لقيه واستمع اليه ونظر فى وجهه الكريم · وسبر خلقه العظيم لم يملك قلبه ان يلين ، وجوارحه ان تخشع لولا العناد فى أقوام أصروا على الكفر والضلال ـ حتى أعتى القلوب واشدها قسوة واعظمها كفرا كانت تذل اذ تستمع اليه صلى الله عليه وسلم يتلو آيات القـرآن كما هى قصة الوليد بن المغيرة ، وعتـبة بن ربيعة ، والنضر بن الحارث ممن ختم الله لهم بالشقاء ، وكما هى قصة عمر بن الخطاب رضى اللـه عنه وكثير ممن كانوا قد بيتوا قتله وجاءوه ليقتلوه فلما لقوه أو استمعوا له ، أو رأوا من حسن معاملته الامثلة الرائعة لانت قلوبهم واسلسوا قيادهم ، وأسلموا الى الله وجوههم ، وأصبح أحب اليهم من سمعهم وبصرهم وكل عزيز عليهم كما أعلن ذلك عمرو بن العاص ، وابن أبى شيبة ، وصفوان بن أمية وهند بنت عتبة وكثير غيرهم رضى الله عنهم · وكـل من درس سيرته ممن لم يره ، وعلم بها انباءه ، وتتبع أقواله وأعماله لا يملك ان يميل اليه ويعجب أو يؤمن به ويحبه ويفديه ·

## محبة الـرسول فى طاعتـه والاسـوة فيه :

لهذا وجبت على المؤمنين طاعته · وتأكدت محبته · وشـأن من احب شيئا ان يؤثـره ويوافق مراده · ويقدم هدى المحبوب على هواه ، ورضاه على رضاه · ولو كانت دعـوى المحبة كافية لتصديق كل ناطق بها لكان الامر سهلا ميسورا لكل زاعم ان يزعمها ، ودعى ان يدعيها · ولكن الدعوى يصدقها أو يكذبها الاعمال والامتحان بالطاعة والاتباع والاقتداء أو بالعصيان والمخالفة والاعراض ·

---

(12) من سورة التوبة الآية 128 ·
(13) من سورة النحل الآية 37 ·
(14) من سورة الشعراء الآية 3 ·
(15) من سورة الكهف الآية 6 ·

ان طاعة الرسول من مستلزمات الايمان به ، والاذعان الكامل له ، والتصديق بكل ما جاء به بحيث يطابق التصديق بالقلب القول باللسان ، فتذعن الجوارح وتستجيب ، ويتم الاهتداء ويكمل الايمان ·

وكان عليه الصلاة والسلام يشترط على من آمن به ان يبايع ـ فيما يبايع عليه ـ على السمع والطاعة فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره · وهذا من مستلزمات الرسالة « وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله » (16) · وقد جاء فى حديث بيعة العقبة عن عبادة ابن الصامت رضى الله عنه عنهم بايعوه ـ فيما بايعوه عليه ـ على السمع والطاعة فى المنشط والمكره والعسر واليسر فان وفوا فلهم الجنة (17) · وجاء فى آية بيعة النساء : ( ولا يعصينك فى معروف ) (18) ·

وقد دلت الآيات الكثيرة المحكمة والاحاديث الصحيحة المتواترة معا على وجوب طاعته وانها من طاعة الله ، مقرونة بها ، وشرط من شروط محبة الله ، وان عصيانه ومخالفته عصيان لله ومخالفة له قال تعالى : « من يطع الرسول فقد اطاع الله » (19) · وقال : « يايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول » (20) · وقد بينت الآيات ان طاعته رشد واهتداء ، وان عصيانه ضلال مبين · قال تعالى : « وان تطيعوه تهتدوا » (21) ، وقال : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنه اذا قضى الله ورسوله أمرا ان تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصى الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » (22) ·

وانما تتم طاعته بالاتيان بما أمر به ، وهجران كل ما نهى عنه ، والرضاء بكل ما حكم به والاذعان له · قال تعالى : « وما ءاتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله » (23) · ومن رحمة الله بعباده ان جعل الطاعة فيما أمر به على قدر الاستطاعة قال عليه الصلاة والسلام : « فاذا نهيتكم عن شيء فدعوه ، واذا أمرتكم بشيء فاتوا منه ما استطعتم » (24) ·

---

(16) من سورة النساء الآية 64 ·
(17) انظر سيرة ابن هشام ، وصحيح مسلم ·
(18) الممتحنة الآية 12 ·
(19) من سورة النساء الآية 80 والآية 59 ·
(20) سورة الانفال الآية 20 ·
(21) سورة النور من الآية 54 ·
(22) من سورة الاحزاب الآية 36 ·
(23) من سورة الحشر الآية 7 ·
(24) رواه مسلم واحمد والنسائى ·

ولقد جاء الوعد الصادق بحسن الجزاء والثواب العظيم على الطاعة ، كما جاء الوعيد الشديد بسوء الجزاء على المخالفة والعصيان قال تعالى : « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » (25) ، وقال : «ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم ··· » (26) ، روى البخارى من حديث أبى هريرة انه صلى الله عليه وسلم قال : « كل أمتى يدخلون الجنة الا من أبى ، من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى » · وقال الله فى المخالف أمره « يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا اطعنا الله وأطعنا الرسولا » (27) ، فهم فى النار يتمنون مالا يتحقق لهم مما فرطوا فيه فى دنياهم · وكان سهلا عليهم ميسروا لهم · ومن خالفه لم يأمن الفتنة فى الدنيا والعذاب الاليم فى الآخرة ·

وليس بصادق فى دعواه الايمان وحسن الطاعة من غلبته شهوته وآثر هواه على الطاعة والامتثال بتنفيذ حكم من احكامه ، والاذعان لما أمر به · فقد زعم قوم انهم آمنوا به واذعنوا لما جاء به ثم جاءوه للخصام والتحاكم فلما حكم بينهم بالعدل بما أراه الله لم ترض طائفة منهم بحكمه ، وطلبوا العدل عند غيره فعجب الله من صنعهم تعجيبا ، وكذب دعوى ايمانهم فقال : « ألم تر الى الذين يزعمون أنهم ءامنوا بما أنزل اليك وما انزل من قبلك يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا » (28) ، ثم قال : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (28) ، فهؤلاء ليسوا بالمؤمنين ، وانما هم من المنافقين يظهرون الايمان بأقوالهم ويسرون الكفر فى قلوبهم ، فتبرزه اعمالهم وتصرفاتهم «واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول رايت المنافقين يصدون عنك صدودا» (28) فى هؤلاء وامثالهم جاء قوله تعالى فى سورة النور أيضا « ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ، واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون ، وان يكن لهم الحق ياتوا اليه مذعنين أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا واولئك هم المفلحون » (29) · فمقتضى الايمان السمع والطاعة والامتثال والرضى والتسليم بما يوافق

(25) سورة الاحزاب الآية 71 ·
(26) من سورة النساء الآية 69 ·
(27) من سورة الاحزاب الآية 66 ·
(28) النساء الآية 60 والآية 65 فالآية 61 ·
(29) من سورة النور الآيات 47 ـ 4 ـ 59 ـ 50 ـ 51 ·

الهوى والمصلحة الشخصية وبما يخالف ذلك وبهذا يكون الفلاح ، واما الاعراض والمخالفة وتقديم الهوى على الطاعة فانه من شأن المنافقين الظالمين ·

والطاعة وحسن الاتباع آية المحبة وبرهان الصدق فى الايمان · والاعراض والصد والمخالفة للامر والنهى دليل العصيان والغفلة ، رغم قوم أنهم يحبون الله وهم معرضون فانزل فيهم قوله : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » قال علماء التفسير نزلت فى كعب بن الاشرف من زعماء اليهود ، وفى غيره منهم اذ قالوا : « نحن ابناء الله واحباؤه نحن اشد حبا لله » قال الزجاج ان كنتم تحبون الله ، ان تقصدوا طاعته فافعلوا ما أمركم به فان محبة العبد لله والرسول طاعتهما ورضاه بما أمرا » (30) · وأما دعوى فى المحبة مع الاصرار على العصيان والمخالفة لامر المحبوب ونهيه فلا يستقيم فى ذوق صحيح الوجدان كما اعرب عن ذلك قول من قال :

تعصى الاله وانت تظهر حبه ... هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته ... ان المحب لمن يحب مطيع

**الاسوة الحسنة فى رسول الله :**

والاسوة فى الرسول (ص) اتباعه والقدوة الصالحة فيه ، وترك مخالفته فى قول أو فعل · وذلك واجب على كل من آمن به واحبه قال تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » · أى قدوة صالحة · فان رسول الله لا يعمل الا الصالح ، وعمله أكمل الاعمال واحسنها ، وعبادته اصح العبادات وأحراها بالقبول عند الله ، وطاعته لله اجل الطاعات فمن سلك طريقه واقتفى أثره اهتدى وافلح ، ومن حاد عن طريقه ورغب عن سنته ضل وغوى ، كما أفصح عنه الحديث الصحيح « ان خير الهدى هدى محمد ، وشر الامور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » ·

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أعرف الناس بربه ، وأتقاهم له ، وأشكرهم لنعمه واخشاهم لنقمه واسلمهم طريقه ، يعبد الله مخلصا له الدين مستقيما على الطريق كما أمر ، لا يحل ما حرم الله ، ولا يحرم ما أحل الله · ولا يشرع للناس مالم ياذن به الله وانما يبلغ عن ربه ما يوحى اليه وقد اباح الله بشرعه للناس زينته التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق ، ورفع به الاصر والاغلال التى كانت على من قبله من الامم ·

(30) الشفاء ج 2 ص 9 ·

وقد اجتهد قوم من الصحابة فى العبادة ، واعتقدوا انهم مقصرون ، وأرادوا أن ياخذوا انفسهم بالزهد وان يرفضوا الدنيا وزخارفها ومتاعها ، ويتركوا النساء ويترهبوا وسألوا أزواج النبيء عن عمله فى السر فقال بعضهم لا آكل اللحم ، وقال بعضهم لا اتزوج النساء . وقال بعضهم لا انام على فراش فبلغ ذلك النبيء (ص) فقال : « ما بال أقوام يقول احدهم كذا وكذا ؟ ولكنى اصوم وافطر ، وانام واقوم ، وآكل اللحم واتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » (31) · وليس اغلظ من هذا القول فى الرد على من انحرف عن اتباع طريقه فى العبادة والاعراض عن سنته حتى لو أراد بذلك الرغبة فى العبادة ، والاجتهاد فى القربة والغلو فى الدين · وسنة النبيء (ص) الوسط فلا افراط ولا تفريط ، وأمة المسلمين الامة الوسط « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » (32) وخير الامور أوسطها ، والغلو فى الدين قبيح مثل الاهمال والتفريط « يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق » (33) ·

وفى هؤلاء الاصحاب البررة الذين لم يريدوا العصيان وانما أرادوا الرغبة نزل قوله تعالى تعليما لهم ولنا : « يايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى انتم به مؤمنون » (34) · فعلمنا منها ان الانحراف عن سنة الرسول (ص) فى التوسط ، والغلو فى تعذيب النفس بترك الطيبات من الرزق الحلال تقربا الى الله اعتداء ومجاوزة للحد ، لانه شرع لما لم ياذن به الله ، وتحريم لما احل الله ، والتحريم والتحليل لله وحده « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » (35) · والاسوة الحسنة والقدوة الصالحة انما تكون فى رسول الله ، فمن أراد ان يعبد الله كما يحب منه ويرضى عنه ، على أكمل الوجوه واحسنها فليتبع سنة محمد وطريقته فيها فبذلك أمر الله « وما ءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (36) ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أمرت أمتى ان يأخذوا بقولى ويطيعوا أمرى ، ويتبعوا سنتى فمن رضى بقولى فقد رضى بالقرآن قال تعالى : « وما

(31) اخرجه البخارى ومسلم عن عائشة ·

(32) سورة البقرة الآية 143 ·

(33) سورة المائدة 77 ·

(34) سورة المائدة الآية 87 و 88 ·

(35) سورة الشورى الآية 21 ·

(36) سورة الحشر الآية 7 ·

«اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» وقال عليه الصلاة والسلام «من اقتدى بى فهو منى ومن رغب عن سنتى فليس منى » (37) ٠

ولقد التزم السلف الصالح من الصحابة والتابعين والعلماء الراسخين ان يتبعوا سنته ولا يحيدوا عن طريقه . وان يحذروا البدعة ويحذروا غيرهم منها قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « القصد فى السنة خير من الاجتهاد فى البدعة » (38) . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه لعثمان رضى الله عنه لما نهاه عن القران فى الحج : « لم أكن أدع سنة رسول الله (ص) لقول احد من الناس » (39) . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ونظر الى الحجر الاسود : « انك حجر لا تنفع ولا تضر ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ثم قبله » (40) . وانما فعل ذلك اتباعا لرسول الله . وان كان فى شيء تعبدى غير معقول المعنى فان الوفاء للرسول والاتباع يوجب ذلك ٠ وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول : « عمل قليل فى سنة خير من عمل كثير فى بدعة » (41) ٠ وقال عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه : « سن رسول الله وولاة امره بعده سننا الاخذ بها تصديق بكتاب الله . واستعمال لطاعة اليه وقوة على دين الله ليس لاحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر فيها من اقتدى بها فهو مهتد . ومن انتصر بها فهو منصور ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى . واصلاه جهنم وساءت مصيرا » (42) . وسمع الزبير بن بكار سفيان ابن عيينة يقال : « سمعت مالك بن انس وأتاه رجل فقال : يا أبا عبد الله من اين احرم ؟ قال : من ذى الحليفة من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : انى اريد ان احرم من المسجد فقال : لا تفعل قال انى اريد ان احرم من المسجد من عند القبر قال لا تفعل فانى اخشى عليك الفتنة . قال : وأى فتنة فى هذا انما هى أميال ازيدها قال : واى فتنة اعظم من ان ترى انك سبقت الى فضيلة قصر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم انى سمعت الله يقول : فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم » (43) ٠ وكان مالك كثيرا ما ينشد :

وخير امر الناس ما كان سنة    وشر الامر المحدثات البدائع

(37) الشفاء ج 2 ص 11 ٠
(38) الشفاء ج 2 ص 14 ٠
(39) الشفاء ج 2 ص 14 ٠
(40) الشفاء ج 2 ص 15 ٠
(41) الشفاء ج 2 ص 13 ــ 14 ٠
(42) الشفاء ج 2 ص 13 ٠
(43) احكام القرآن لابى بكر بن العربى ج 2 ص 119 ٠

## البدع والمنكرات في المـوالد :

اذا كانت المخالفة لسنة رسول الله والرغبة عنها مذمومة ولو أراد المخالف طاعة وخيرا بانشاء قربات واختراع عبادات واجتهاد في طاعات زهدا في الدنيا واعراضا عن متعهـا فاولى واخرى بالذم والرد على صاحبه من ادعى المحبة وهو غافل عن الفرائض والاركان ، أو أتى من الاعمال ما كان بعيدا عن شكل القربة وصفة العبادة فان مثل هذا لا يبرهن عن المحبة ، ولا يعرب عن الطاعة ٠

ان كثيرا من الناس ابتدعوا موالد ـ غير مولد النبيء صلى الله عليه وسلم ـ واقاموا لها احتفالات مصبوغة بالدين ٠ وهم عن الاركان والفرائض من الدين غافلون ٠ وعـن الصلاة ساهون وكثير منهم ألصقوا بها بدعا ومنكرات شنيعة ، وارتكبوا فيها موبقات فظيعة مما يبرأ منه الدين ويشمئز لدى رؤيته كل ذى خلق قويم ٠ من ذلك ما يقع عند قبـور بعض الصالحين ويسمى في الشرق ( موالد ) وفي الجزائر يسمى « الزردات » ٠ وقد كان له ببلادنا منذ حين سوق رائجة ، وأشهرها « زردة سيدى عابد » بقرب مدينة غليزان يوتى لحضورها من الشرق والغرب ٠

ان الذين يقيمون هذه الاحتفالات المنسوبة الى الدين يزعمون انهـم يعظمون هؤلاء الصالحين ، وينفق فيها الاغنياء الامـوال الطائلة ، ويـرى فعلهم بعض الفقهاء والعلماء فيسكتون رغبة أو رهبة ٠

وفي ذلك يقول الاستاذ الامام محمد عبده ـ كما نقل صاحب تفسير المنـار : « لقد تشوهت سيرة مدعي التصوف في هذا الزمان وصارت رسومهم اشبه بالمعاصي والاهواء من رسوم الدين ، واظهرها في هذا البلاد الاحتفالات التي يسمونها ( موالد ) ٠٠٠ زاعمين انهم يتقربون الى الله ٠٠٠ ولا يرون ما يكون فيها من المنكرات منافية للتقرب الى الله كان كرامة الشيخ الذين يحتفلون بمولده تبيح المحظورات وتحل للناس التعاون على المنكرات ٠ فالموالد اسواق الفسوق فيها خيام للعواهر ، وحانات للخمور ، ومراقص يجتمع فيها الرجال لمشاهدة الراقصات المتهتكات ، الكاسيات العاريات ، ومواضع أخرى لضروب من الفحش في القول والفعل يقصد بها اضحاك الناس ، وبعض هذه الموالد يكون في المقابر ويرى كبار مشائخ الازهر يتخطون هذا كله لحضور موائد الاغنيـاء في السرادقات والقباب العظيمة يضربونها وينصبون فيها الموائد المرفوعة ، ويوقدون الشموع الكثيرة احتفالا باسم صاحب المولد » (44) ٠ ونرى من هذا النص ان الاستاذ عبده امام المصلحين في هذا العصر ينتقد

(44) تفسير المنار ج 2 عند الكلام على قوله تعالى « والذين آمنوا أشد حبا لله » ٠

اعمال ثلاث طوائف انحرفوا عن السنة والدين الصحيح . طائفة الصوفية الذين افسدوا رسوم التصوف الحقيقى والتدين الصحيح ، وطائفة الاغنياء الذين اسرفوا فى اقامة حفلات تستباح فيها القبائح وترتكب فيها الفواحش والمنكرات . وطائفة علماء الدين . والفقهاء الجامدين الذين يرون المنكر ولا ينهون عنه . بل يكون حضوركم مشاركة وتشجيعا لمرتكبيه وحجة لهم على من انكر عليهم ٠

وما وصفه الاستاذ الامام صادق على ما كان يجرى عندنا ومنطبق تماما عليه من انحراف عن السنة . وفساد فى الدين لدى الطوائف الثلاث ٠ ولكن استاذنا الامام عبد الحميد ابن باديس رحمه الله وجماعته المتأثرين بدعوة الاصلاح . وتعاليم الامام محمد عبده حاربوا هذا الفساد . فاندثر أكثره . وان بقيت آثاره ٠

ومما يقع فى عيد المولد النبوى من المنكرات المكاء والتصدية فى بيوت الله والضرب على الآلات والنفخ فى المزامر والقيام بالرقصات ٠ وانما عبد الله بالمكاء والتصدية أهل الجاهلية فقال الله فيهم : « وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية » (45) والمكاء . الصفير . والتصدية . التصفيق . وقيل المكاء . الضرب بالايدى والتصدية . الصياح ٠ قال الشوكانى : « ومعنى الآية ان المشركين كانوا يصفرون ويصفقون عند البيت الذى هو موضع الصلاة والعبادة فوضعوا ذلك موضع الصلاة » (46) ٠

وحاش لله ان يكون عمل الجاهلية لنا طاعة . وما استقبحه القرآن لنا قربة أو علامة محبة للرسول (ص) ، وفاء له . وقياما بحقه ٠

وانما يبرهن على حبه والوفاء له الاستقامة على دينه . واحياء سنته وطاعة امره ونهيه فعلا وتركا . والاسوة الحسنة فيه « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » ٠

(45) سورة الانفال الآية 35 ٠
(46) تفسير فتح القدير ج 2 ص 291 ــ 292 ٠
(47) سورة آل عمران الآية 31 ٠

# روح الشريعة الإسلامية
## وواقع التشريع اليوم في العالم الإسلامي

للأستاذ/ محمد أبي زهرة
أستاذ الشريعة وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة



هذا موضوع من الموضوعات التى عرضها القائمون على الملتقى السابع المنعقد بالجزائر العامرة المجاهدة للتعرف على الفكر الاسلامى، وقد اخترناه من بين الموضوعات الكثيرة التى عرضها القوامون عليه.

وانا نرحب بهذا الملتقى،لان كل التقاء بين المسلمين تعارف بينهم وكل تعارف سبيل للوحدة والتفاهم والمسلمون اخوة ويجب ان يلتقوا ليتعارفوا ، ويتفاهموا فيما هو رفع للبلاد وجنب للخير الذى يهم ، والاسلام يجمعهم ، ولا يفرقهم .

---

(*) محاضرة ألقاها المرحوم فى الملتقى السابع للفكر الاسلامى بتيزى وزو المنعقد من 10 ـ 22 جمادى الثانية 1393 هـ ـ 10 ـ 22 يوليو 1973 م .

ونظرا لطول المحاضرة ننشرها على حلقات .

ان المسلمين قد توزعتهم الارض ، وتفرقوا شيعا واحزابا وكانوا شيعا لغيرهم ، واحزابا لاعدائهم ، فهذا تركي ، وذاك مسكوفي، وذلك فرنسي ، وآخر انجليزي ، ونادر من يكون اسلاميا وهذا النادر لا يسمع له صوت وسط ضجيج الاهواء ، وقـــوة الانتماء ، والانتماء لأعداء الاسلام دائما ·

ان الوحدة الاسلامية يجب أن تكون هي المقصد الاسمى، واذا لم نقصد اليها حقا ، واكلنا سباع السادة في كل أرض ، وانما ياكل الذئب من الغنم القاصية ، فيجب ان نضم القاصي والداني ونجتمع على الفكرة الاسلامية أولا ـ والشعور بان المسلمين أمة واحدة ثانيا ، وأنه لا يصح لمسلم ان يتخذ من غير المسلم وليا يناصره كما يقـــول تعالى : « **لا يتخـذ المؤمنـون الـكافرين اولـيـاء من دون المـؤمنين** »· ثالثا ـ ونجتمع للعمل جماعة مؤتلفة موحـــــدة لازالة ذلك الغبار المتكاثف أولا والذود عن حياض المسلمين آخرا ·

وان الملتقيات امثال هذا الملتقى اتجاه الى المعنى الاول فلنسر الى ما يليه ، حتى نصل الى الغاية ، وهي صراط الله المستقيم ·

## روح الشريعة وواقع التشريع اليوم

I ـ ان هذا العنوان ليس محدود المعنى في تفكيرنا ، بل هو مقول بالتشكيك ، كما يقول المناطقة فهو يشع في مؤداه ، ويضيف فهـو يشع حتى يكون معناه ، الشريعة الاسلامية مطبقة في تشريع المسلمين اليوم ، أم غير مطبقة ، ولذلك جواب يوجب الحسرة والاسى ويضيق حتى يكون معناه الشريعة الاســـلامية متحقق روحها في التشريعات القائمة اليوم ، وان لم تكن مطبقة بحذافيرها وغير قائمة حدودها ، ولا منفذة زواجرها الاجتماعية ، ولا نظمها الاقتصادية وقد يزداد في هذه المعنى ، فيدعى أن روحها قائمة في التشريع ، لانها قائمة على المصلحة الانسانية في زعم الزاعمين ، وادعاها البعض متفقة مع هذا الزمان في كثير من المسائل ·

كان هذا التشكيك في المعنى أو الشك فيه سببا في حيرة المعنى ، لان الروح معنى فيه اتهام ، الا اذا قلنا ان روح القانون أو الشريعة

اما أن تكون سالبة واما أن تكون موجبة ، وعلى ضوء هـــذا المعنى نقول اعلاقة القوانين المطبقة اليوم سالبة أم موجبـــة ، أى للشريعة تاثير فيها أو ليس لها تاثير ، بل مناقضة ٠

2 ـ وعلى ضوء هذا ، أتكلم وبايجاز شديد ونحصر كلامنا فى ثلاثة موضوعات :

1 ) مقام الشريعة من التطبيق فى الماضى ٠

2 ) مغزى تطبيقها ٠

3 ) العلاج مع القوانين القائمة ٠

## ( ا ) مقام الشريعة فى التطبيق :

3 ـ جاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم رسولا من رب العالمين فاشرقت الارض بنور ربها ، ولا نريد فى هـــذا المقام أن نتكلم فى العقيدة التى دعا اليها فى وسط الوثنية ، وعبادة الكواكب والنيران، ووثنية اليونان والرومان ، والثالوث الذى كان عنـــد الافلاطونية الحديثة الذى قبسته منه بعض الملل التى كانت فى الاصل ديـانة توحيـــد ٠

لا نتكلم فى شىء من ذلك لانه أمر معروف للعامة والخاصة من الذين عرفوا الاسلام وأدركوه ولا نتكلم فيه لانه ليس من موضـــوعنا فى الظاهر ، انما الموضوع مقصور على التكليفات ، ان العملية التى جاء بها القرآن الكريم الذى لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبينته السنة النبوية ٠ ويلاحظ ان هذه التكليفات أوامر ونواه جاءت من السماء ليس لبشر أن يناقضها أو يغير فيها ويبدل انما له فقط حق استخراج معانيها من ألفاظها ، وتحقيقها وتطبيقها على أقـــوم سبيل وأعدل طريق مستقيم من غير نقص منها ، ولا مزيد عليها ، ولا تحريفها عن مواضعها ٠

جاءت هذه الاوامر والنـــواهى ، وقد كان القانون الرومانى فى أوجه ، وصقلته التجارب فى نحو ثلاثة عشر قرنا من وقت انشـــاء روما ، وكان للفرس نظام ، وللهند وراءها نظام الطبقات الذى يحدد الناس أربع طبقات : طبقة البراهمة أى علماء اللاهوت قد خلقوا من

رأس براهما الههم وطبقة المحاربين وقد خلقوا من سواعد براهما ، وطبقة التجار والصناع ، وقد خلقوا من ساق براهما ، وطبقة الخدم وقد خلقوا من اقدامه ، ووراء هؤلاء الانجاس الذين لا يحسون جاء التكليف الاسلامى فى زمن سادت فيه النظم ٠

ولعل أقواها فى الصياغة القانونية وأحكمها القانون الرومانى الذى لا يزال المصدر الثانى أو الاول فى قانون نابليون ٠

4 ـ وانه بالموازنة بينه وبين الشريعة الاسلامية فى المبـــادىء الانسانية المقررة الآن فى داخل الدول الاوروبية والامريكية نجـــد المفارقة واضحة والموازنة بينهما كالموازنة بين نظام همجى يتحكم فيه الانسان فى أخيه الانسان من غير أن تكون للضعيف حقوق امـــام القوى ، ونظام يقـــرر الحقوق والواجبات من غير تفرقة بين قوى وضعيف ، ولا شريف وغير شريف ، ولا لون ولون ، فالشريعة تقرر ذلك والقانون الرومانى لا يعرفه ، فالمرأة تعامل كالرقيق ، فهى أمة فى بيت أبيها ، وامة فى بيت زوجها واذا قتلها لا يسأل لم قتلها ، لان الزواج فى هذا القانون عقد رق ، والابن لا يملك أن يتصرف فى ماله ، أو أن يتصرف مادام أبوه حيا ، ولو بلغ الستين الا ان يأذن له أبوه ، فالولاية عن النفس عند الرومان ، وفى قانونهم الذى يقـدمه الفرنسيون الى اليوم رق ، وليس ســـدا لنقص يزول بزواله ، أو معاونة لعاجز يزول بزوال عجزه ٠

وقد تعددت أسباب الرق فى القانون الرومانى ، حتى ان الرجـل اذا خرج من أرضه كان عرضة لان يسترقه من يكون من قوم آخرين، ولقد جرى الرق على شيخ من شيوخ الفلاسفة ، وهو افلاطون فقـد استرق عند انفراده خارج قومه ، حتى استعاد حريته بالفداء ٠

كل هذا واضعافه فى الاشياء والنظـــام فى قانون الرومان أما الاسلام فقد الغى كل اسباب الرق ولم يبقى الا سببا واحدا ، وهو الحرب العادلة اذا كان الاعداء يسترقون فيكون من قبيل المعاملة بالمثل ، لقوله تعالى : « **فمن اعتدى عليكم فاعتـدوا عليه بمثـل مـا اعتدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا ان الله مع المتقين** » ٠

ولنزن القانون الرومانى وقانون فارس ، وطبقات الهنود ، لنزن هذا ، ولننظر الى الشريعة وروحها ، فان الافضل لا يستمد من المقابلات والموازنات ، انما يستمد من ذاتها ٠

ان الفضل للشرائع ذاتى ، وليس باضافى حتى نوازن بينه وبين غيره من النظم ٠

## مقاصد الشريعة الاسلامية

تكريم الانسان وأول مقصد من مقاصد الشريعة الاسلامية التى هى روحها ومغزاها ــ هو الكرامة الانسانية ، وقد بدا تكريمها للانسان فى عقيدتها ، وفى تكوينه ، وفيما له من حقوق ، وما عليه من واجبات فالعقيدة الاسلامية تقوم على التوحيد ، اى وحدانية الله تعالى فى ذاته وفى صفاته وفى عبادتهوالاعتماد عليه وحده والاستغناء عمن سواه كبيرا أو صغيرا شريفا او ضعيفا ، وانه لا فضل لمخلوق عليه ، وانما الفضل لله وحده ، فلا عزة الا منه ولا تكريم الا منه ، ولا فقر الا اليه « **يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد** » ٠

فالعقيدة تربى العزة ، ولو كان المؤمن عبدا حبشيا ٠

والتكوين الانسانى فيه بيان انه اكرم خلق الله عند الله تعالى : الم تر ان الله تعالى أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم لمقام الادراك ،والعلم بالاشياء ، « **وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال انبئونى باسماء هؤلاء ، ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ماعلمتنا ، انك انت العليم الحكيم ، قال يا آدم انبئهم باسمائهم فلما انباهم باسمائهم قال : الم اقل لكم ، انى اعلم غيب السموات والارض ، واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ، واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابىواستكبر وكانمنالكافرين** »٠

ولقد صرح الله سبحانه بتكريم الانسان فقال تعالى : «**ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » ٠

وان الانسان يكرم لانه انسان فلا فرق بين أبيض وأسود ، ولا احمر فى الكرامة الانسانية ، واختلاف الالوان من آيات اللهسبحانه وتعالى فى خلقه ، ولذا قال تعالى : « **ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم** » .

والكرامة يستحقها لا فرق بين غنى وفقير ولا أمة غنية بمواردها وصناعاتها وموقعها الجغرافى ، وأخرى ليست فيها هذه المزايا ، ولا بين امة فيها علماء ، واخرى ليس فيها علم يكون ، وعلى العلماء أن يعلموا الجهلاء من غير أن يستعلوا عليهم ، ولقد روى أن على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه قال : لا يسال الجهلاء لم لم يتعلموا ، حتى يسال العلماء ولم لم يعلموا .

ولان الكرامة حق فطرى للانسان : سوى فى استحقاقها اهل الاديان المختلفة ولا فرق بين مسلم وكافر ، ولقد روى البخارى انه مرت جنازة يهودى فوقف لها الرسول الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا انها جنازة يهودى فقال الرسول الحر : أليست نفسا .

## كرامة الرقيق

6 ـ لم تفرق شريعة القرآن فى الكرامة بين الحر والعبد ، بل كرمت العبد كما كرمت الحر على سواء ، ومن احترام كرامة العبد الا ينادى مالكه بيا سيدى ولا سيدتى ، ولا ان ينادى المالك مملوكه بيا عبدى أو امتى بل يقول المالك فتاى وفتاتى ، ويقول المملوك مولاى ومولاتى ومن احترام كرامة الرقيق ان ياكل المالك والمملوك على مائدة واحدة، ولقد قال الرسول الكريم : «**اخوانكم خولكم ملككم اياهم ، ولو شاء لملكهم اياكم ، اطعموهم ما تطعموا ، واكسوهم مما تكسون** » .

ولقد دخل عمر بن الخطاب على قوم من أهل مكة فوجدهم ياكلون ومواليهم لا ياكلون معهم فغضب الفاروق رضى الله تعالى عنه وامتنع عن أن ياكل فى وليمتهم ، وقال بئس القوم لا ياكل مواليهم معهم ، وذكر ان لا عزة لهم وقد منع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من ان يضرب العبيد ،، وقال « من لطم عبده فكفارته عتقه » .

وروى عن ابن عقيل من فقهاء الحنابلة أنه يعتـــق بمجرد اللطم الظالم ·

ومن كرامة العبد ان الله جعل نفسه كنفس الحر ، ولذا قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيما رواه الامام احمد فى سنده : « من جدع عبده جدعناه ، ومن قتله قتلناه ولقد كان فى المذهب الحنبـل ان الحر يقتل بالعبد ، وان المالك يقتل بمملوكه ، وهو نص الحديث ، وقد رويناه ·

وقد يقول قائل انما كان الاولى ان يلغى الاسلام الرق ؟ ونقول فى الاجابة عن ذلك ان القرآن سد أبواب الرق المبنى على الاسترقاق الغاصب ، ولم يفتحه الا فى باب الحرب الاسلامية ، لان الاعـــداء يسترقون ، وقد بنيت الحرب الاسلامية على المعاملة بالمثل ، ما لم يكن فيها هتك لحمى الفضيلة والاعداء يسترقون ، فكيف لا نستــــرق اسراهم ، ومن فضيلة الاسلام الكبرى ان المصـــــدر الاول له وهو القرآن لم يوجد فيه نص يبيح الرق ، ولكن وجدت فيه النصوص التى توجب العتق وما فهمت اجـــازة الرق الا من الاوامر الملزمة بالعتـــق ·

فامر من افطر فى رمضان بعتق رقبة، ومن حلف يمينا فحنث بعتق رقبة ، ومن قتل مؤمنا خطأ بعتق رقبة ، ومن قال امرأته عليه كظهر أمة ، لا يقربها الا اذا اعتق رقبة ، واذا طلب العبد ان يتركه ليكسب ثمنه ، ويدفعه لمالكه ويسمى هذا مكاتبة ، فعلى السيد بمقتضى ظاهر القرآن ان يعقد معه عقد المكاتبة فقد قال تعالى : «**فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم** » ·

واعتبر العتـــــق فى ذاته قربة يتقرب بها الى الله تعالى ، فقال تعالى : « **فلا اقتحم العقبة ، وما ادراك ما العقبة ، فك رقبة** » ·

وانه يقتضى احضار الرق فى حرب المسلمين مع الكافرين وأوامر القرآن الكريم بالعتق لا يمكثَ الرقيق فى ملك مالكه اكثر من سنة ·

وانه بعد ايفاد الاسترقاق فى الحروب وغيرها ليس لأحد ان يدعى بقاء الرق فى الشريعة الاسلامية ·

**العـــدالة :**

7 ـ ان العدالة سمة الاسلام ، وشعـاره والشريعة الاسلاميـة ميزاتها العدالة ، وقد جاءت بها وقررتهامع العدو والولى على السواء ، ويقول الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهـــداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، ان الله خبير بما تعملـــون** » أى لا يحملنكم البغض الشديد لقوم على ألا تعدلوا ، فالعدل أقرب للتقوى ٠

واذا كان قد روى عن المسيح أنه قال اســـتغفروا لاعدائكم ، فالاسلام يقول : « اعدلوا مع اعدائكم » وان ذلك هو الممكن والاسلام لا يستنفر الاعداء الا اذا اعتقدوا الحق ، وتركوا الباطل ، ولقد روى أن أكثم بن صيفى حكيم بنى تميم لما بلغته دعوة الاسلام أرســـل بنيه ليسألوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنـكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون** » ٠

ولما بلغوا أباهم رسالة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وتلوا عليه الآية الكريمة،قال حكيم بنى تميم انه ان لم يكن دينا كان فى الاخلاق أمرا حسنا ، كونوا يا بنى فى هذا الامر أولا ولا تكونوا آخرا ، هذه هى روح الشريعة ومغزاها ، العدالة التى لا فرق بين عبد وولى ولا أبيض وأسود ، ولا عربى واعجمى ، وقد طبقت فى عهد الرســـول الامين وعهد الراشدين تطبيقا دقيقا ، حتى ان رسول الله سيد الخلق أجمعين ، ليطلب ان يقتص منه ، وهو الطاهر المطهر ٠

وان من أبرز صور العدالة فيها ، العدالة بين الحاكم والمحكوم ، فالحاكم فرد من الافراد ويؤخذ منه اذا ظلم ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يقتص من الوالى اذا ظلم واحدا من الرعية وينبه عماله الى ذلك فى اوامر صارمة قاطعة ، لقد جمع ولاته فى موسم الحـج وقال لهم :

وما ارسلتكم لتضربوا أبشار الناس ، ولكن ارسلتكم لتعلموهم أمر دينهم ، والله لا أوتى بعامل ضرب الناس فى غير حد ، لاقصيته منـــه ٠

ولقد قال عمرو بن العاص لرجل من المؤمنين : يا منافق فقال ما نافقت مذ أسلمت وشد رحاله الى عمر ، وقال لامير المؤمنين : « لقد نفقنى الامير وما نافقت مذ أسلمت فأرسـل الفاروق الى عمرو بن العاص ، يقول فلان أنك نفقته وما نفق مذ أسلم فاذا وصلك ، فمكنه من أن يضربك ، فعاد الرجل الى الملأ الذى سمعه ينفقه ، فسألهم أرأوا الامير ينفقه ، فقالوا كلنا نسمعه فتلا كتاب أمير المؤمنين على عمرو ، فقالوا أتضرب الامير ، فقال الرجل ليس هنا لامير المؤمنين أمر فطأطأ عمرو للرجل رأسه ليضربه ، فهز الرجل السوط ، وقال الآن عفوت ٠

ولقد كان عمر نفسه يضرب القصاص ممن يضربه بغير حق فيروى انه قد أمر فى الحج الا يطوف الرجال مع النساء ، وخصص للنساء وقتا ، فـرأى رجلا يطوف معهن ، فعلاه بالدرة ، وقال افما علمت عزمتى بالا يطوف الرجال مع النساء ، فقال الرجل ما علمت لك فى هذا عزمه لئن كنت ظالما فما علمتنى ، وان كنت جاهلا فقد ظلمتنى ، فاعطاه عمر الدرة ليضربه ، فامتنع فطلب منه إن يعفو فما عفا ٠

فلما التقى بامير المؤمنين فى الغد ، وجده مضطرب النفس ، فقال له لعل ذلك من ضربه الامس قال نعم ، فقال العـربى المؤمن الآن عفوت ٠

(يتبع)